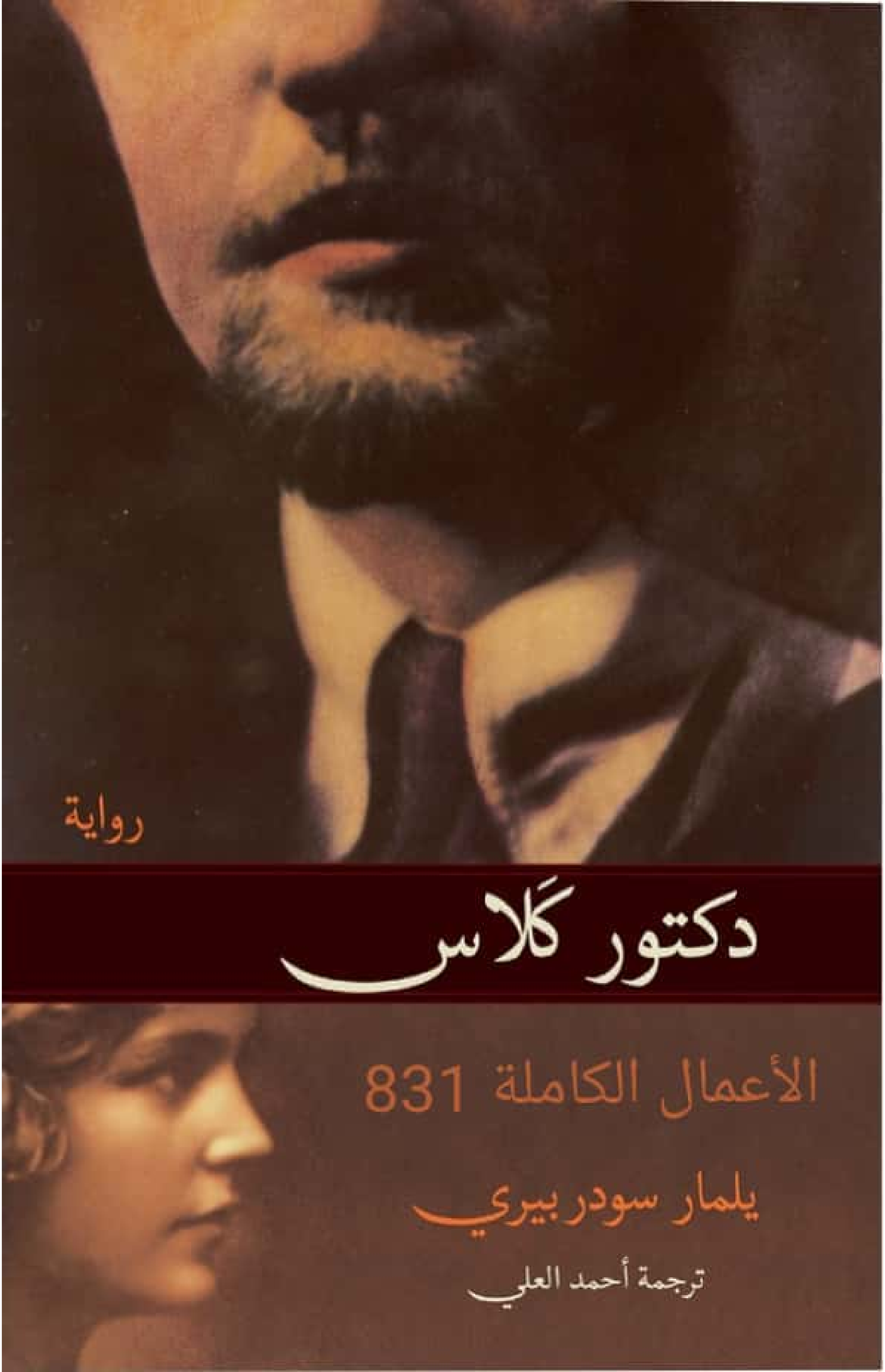

رواية

دكتور گلاس

الأعمال الكاملة 831

يلمار سودربيري

ترجمة أحمد العلي

يلمار سودربيري

دكتور گلاس

رواية

روايات، مجموعة كلمات
روايـات REWAYAT

جميع الحقوق محفوظة©

12 يونيو

لم أشهد صيفًا كهذا من قبل؛ هبوب مستمرّ لحرارة لاهبة منذ منتصف مايو. وطوال الوقت، فوق الشوارع والأسواق، تتعلّق غيمة غبار ثخينة لا تريد أن تتزحزح. لكن مع هبوط الليل تنتفض روح المرء وتنتعش قليلًا. عُدت للتوّ من نزهتي الليليّة. إنها عادةٌ أحرص عليها بعد الاطمئنان على مرضاي، وهم ليسوا بكثر الآن بحُكم الصّيف. تأتي من الشرق ليلًا نسمة هواء باردة طويلة، ترفع موجة الحرارة المتّقدة، وتنفضها بتروٍّ لتصير في الأفق وشاحًا متموّجًا من الحُمرة المبتعدة حتى أقاصي الغرب. لا قرقعة لمقطورات العمّال في هذا الوقت؛ مجرّد أبواق متباعدة من هنا وهناك لعربة أو ترام. خُطاي تأخذني ببطء إلى آخر الشارع. ومن حين إلى آخر، أصادف من أعرفه من الناس لمامًا، فنتبادل الأحاديث لبعض الوقت وقوفًا عند ناصية الشارع. لكن لماذا يحدث لي مرارًا أن أقابل هذا الرجل من بين البشر أجمعين؟ أعني القسّ المبجّل غرغوريوس! لا أراه إلا وأذكر طُرفة قيلت مرّة عن شوبنهاور(1): كان الفيلسوف الصّارم البسيط يجلس وحيدًا كعادته ذات مساء، في إحدى زوايا مقهاه المحبّب، عندما فُتح الباب وأطلّ رجل ذو سحنة ممتعضة. وفور رؤيته لتلك الهيئة من الاضطراب والقرف، حدجه شوبنهاور بنظرة حادّة، ثم هبّ قافزًا نحوه وراح بقسوة يدقّ بعصاه رأس الرجل،

وما ذلك إلا بسبب مظهره الخارجي وحسب!
لكنني لست شوبنهاور. فعندما رأيت ذاك الرّجل مقبلًا في اتجاهي، عبر المسافة الممتدة بيننا من جسر فاسا، توقفت مذعورًا عن مواصلة المشي والتقدّم نحوه، مستديرًا نحو سور الجسر، مرخيًا ذراعيَ عليه وكأنني -منذ زمن- أتذوّق روعة المشهد أمامي؛ بيوت رماديّة ترتفع على جزيرة هيلغاند. وعلى وجه نهر نورسترم، الذي يروي أشجار الصفصاف القديمة قِدم الأرض ويفتّح أوراقها، تنكمش وتنحلّ انعكاسات زخارف البناء الخشبي العتيق لحمّام عام أُنشئ على الطراز الإسكندنافي. تمنّيت ألا يراني القسّ، أو ألّا يميّز هيئتي الجانبية على الأقل. كنت قد نسيته تمامًا في خضم ادّعائي عدم رؤيته، عندما وجدته فجأة يقف إلى جانبي مُرخيًا ذراعيه مثلي على السور ورأسه مائل بعض الشيء - تمامًا كما رأيته أوّل مرّة قبل عشرين عامًا في كنيسة يعقوب، عندما اعتدت الجلوس على الكرسي الخشبي المخصص لأسرتنا، إلى جانب المغفور لها والدتي. وفجأة، من لا مكان، يبزغ هذا الواعظ ذو السحنة البغيضة كرأس الفطر السّام، معتليًا المنبر، صادحًا في أسماعنا "أبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.." الوجه الشاحب الإسفنجي نفسه، والسوالف المعتكرة بالشّقرة نفسها، إلا أنها راحت تبيضّ كما يبدو لي. ولم يطرأ أيّ تبدّل على اللؤم غير الواعي في عينيه خلف عدسات

نظّارته. يستحيل الهرب! أنا طبيبه كما أنني طبيب آخرين. وأحيانًا يزورني حاملًا آلامه ومواجعه. حسنًا.. حسنًا.. مساء الخير أيها القسّ، كيف حالك؟ لستُ على ما يرام؛ في الحقيقة لستُ بخير إطلاقًا. قلبي تعِس، يقرع دون انتظام، ومن وقتٍ لآخر يتوقّف في الليل! أو هكذا أشعر، شعدت لسماع ذلك! قلت في نفسي، لأن آخر همَي هو أن تستطيع الموت! أيها المُسنّ الوغد، فلتمت أنّى شئت، أبعدني فقط عن مرآك. وبعد، إن لديك زوجة شابة فاتنة لا شكّ وأنك تعتصر الحياة من روحها اعتصارًا، وعندما ترحل عنها ستجد حتمًا زوجًا آخر أفضل منك. لكن ما قلتُه بصوت مسموع هو هذا: حقًّا! حقًّا! أهذا ما تشعر به؟ ربما عليك أن تعود لزيارتي خلال الأيام القريبة القادمة. سوف نبحث الأمر سويًا. لكن كان لديه غير ذلك للحديث عنه. أمور "مهمّة": هذه الحرارة غير طبيعية، ما هذا اللفح! وأيضًا: يا للغباء! يُنشئون مبانٍ ضخمة للبرلمان على جزيرة ضئيلة كهذه! وأيضًا: ليس الأمر مقتصرًا عليّ وحدي، زوجتي بالمثل ليست على ما يرام.

في النهاية سار الرجل في طريقه وذهبتُ إلى سبيلي. دخلت الحارة القديمة، على امتداد شارع ستورشركوبرينكن، وبقيت بين أزقّتها؛ مساء حميمّ ينغلق فضاؤه عليّ في الممرّات الضيّقة وبين المنازل؛ على الجدران تحبو ظلال مريبة، ظلال لم نعهد رؤيتها

جوارنا.

السيّدة غرغوريوس، أجل! لقد كانت زيارتها الأخيرة لي غريبة نوعًا ما. جاءت إلى العيادة أثناء ساعات الاستشارات المفتوحة. لاحظتْ وجودها منذ دخولها، كان ارتباكها جليًا. وعلى الرغم من حضورها في وقت مبكّر، فإنها انتظرت حتى فرغت العيادة من المرضى، داعيةً أولئك الذين جاؤوا بعدها لأن يأخذوا دورها. وفي النهاية دخلت عليّ، وحُمرة الخجل تعلو محيّاها، وفي وجهها جفول. ثم راحت تتخبط في حديث أرادت منه القول إنها تعاني من التهاب في الحلق. حسنًا، الوضع في تحسّن الآن. سأعود إليك في الغد أيها الطبيب، فأنا الآن في عجالة من أمري.

لم تعد حتى الآن.

طالعًا من الأزقة، سرت إلى نهاية رصيف ميناء شيبسبرون. يعلو القمر سماء جزيرة شيبسهولمان، يطفو على صُفرة ليمونيّة محاطة بالأزرق الشفقيّ. لكن مزاجي الهادئ المسالم قد ودّعني. لقاء رجل الدين ذاك أفسد نزهتي. كأن العالم بحاجة إلى أمثال هذا الرجل! مَن منّا لم يوضع يومًا في مواجهة تلك المشكلة المحيّرة التي يناقشها شيطانان أو ثلاثة عندما يجلسون حول طاولة مقهى: لو كان بإمكانك عبر الضغط على هذا الزر الذي في الجدار أن تقتل ثريًا صينيًا ثم ترث أملاكه جمعاء، هل تُقدم على ذلك؟ لم أشغل بالي بهذه

المشكلة بحثًا عن إجابة، ربما لأنني لم أتعرّف على البؤس القاسي المتمثّل في أن أكون فقيرًا بشكل حقيقي وواقعي. لكن إن كان الكبس على الزر سوف يتسبب في قتل ذاك القسّ، فأظن أنه من واجبي القيام بذلك.

بينما أمضي صوب المنزل، مخترقًا شحوب الشفق الغريب، صارت الحرارة أكثر قسوة منها في عزّ الظهيرة؛ وغيوم الغبار تلك، داكنة الحُمرة، الطافية طبقات طبقات خلف مداخن مصانع كونسهولمان، باتت تميل إلى السواد وكأنها تُنذر بالشرور والكوارث. وبخُطى طويلة ومتأنيّة، عبرت جوار كنيسة كلارا، نازلًا الشارع، في يدي قبَعتي، والعرق يجري بغزارة من جبيني. على الرغم من أن الهواء لم يكن باردًا في أيّ بقعة، حتى في الظلال تحت أشجار الكنيسة العملاقة، فإن همس العشّاق، اثنين اثنين، لم ينقطع عن الكراسي الخشبية تحت كل غصن؛ بأعيُنٍ سكرانة يجلس بعضهم في أحضان بعض، ويتبادلون القُبل.

* * *

أجلس الآن عند نافذتي المفتوحة، وأكتب لمن؟ لا لصديق ولا خليلة. بالكاد أكتب لنفسي. لا أقرأ اليوم ما كتبته البارحة؛ ولن أقرأ كلماتي هذه في الغد. أكتب لأشغِلَ يدي وحسب، لتجري أفكاري مسترسلة فأستبينها. أكتب لأغدر بساعة أرَق واحدة على الأقل.

لماذا يهجرني النوم هكذا؟ لم أرتكب أيَ جُرم.

* * *

ما أدسّه في هذه الصفحات ليس اعترافًا -لمن أعترف؟- ولست أُخبر عن حقيقتي كاملة. أبوح بما يُرضيني فقط، وما هو صحيح.. ففي النهاية، لا أستطيع حلَ اللعنة المعقودة على روحي -إن كانت حقًّا ملعونة- باختلاق الأكاذيب.

* * *

في الخارج، يتدلّى الليل الكحليَ فوق فناء الكنيسة وأشجارها الباسقة، ويرين على الحيّ صمت مطبق يجعل تلك الأنفاس والهمسات بين الظلال في الأسفل مسموعةً من عُشّي العالي هنا. ضحكةٌ واحدة منذ قليل ثقبت الظلمة نحوي. أشعر في هذه اللحظات أن لا أحد في الكون وحيد غيري أنا، أنا تيكو گابرييل گلاس، الطبيب الذي في بعض الأوقات يُنجد الآخرين، لكنه لم يكن قادرًا قط على مساعدة نفسه، والذي خلال الثلاثين عامًا المنصرمة من حياته لم يقرَبْ امرأة.

* * *

14 يونيو

يا لها من مهنة! كيف حدث أن اخترتها وهي أقلَ المهن على الإطلاق لياقة بي؟ الطبيب واحد من اثنين: إمّا ساع للخير أو راكض وراء التشريفات. في الحقيقة، مرّ عليّ وقت ظننت فيه أنني الاثنان معًا.

مرّة أخرى، جاءت إلى العيادة امرأة فقيرة مسكينة، تنوح راجية معونتي؛ امرأة عرفتها لسنوات طويلة. تزوّجت موظّفًا حكوميًا قليل الشأن، ما يكسبه من المال يساوي لا شيء، حوالي أربعة آلاف كرونة في السنة، ثم أنجبت منه ثلاثة أبناء، جاؤوا جميعًا في السنوات الثلاثة الأولى من الزواج. بعدها، ولخمس سنوات أو ست، أستُبقيَت كما هي. عاد إليها بعض صحتها، قوّتها وشبابها. حظيت بوقت كاف لتدير منزلها وترتب أموره، لتتعافى بعد تعب مديد. وعلى الرغم من أن الرغيف الذي يجلبونه إلى المنزل يقصُر عن حاجتهم، فإنهم نجحوا في تدبّر أمورهم على نحو ما. والآن، على حين غرة، ها هي أمامي مرة أخرى.

كان الدمع يخنق كلامها فتتحدث بصعوبة.

لكنني، بالطبع، ألقيت عليها درسي المعتاد الذي أحفظه حتى النخاع، وأكرره دومًا على أمثالها في مناسبات كهذه: واجبي كطبيب يحتّم عليّ احترام الحياة مهما بلغت هشاشتها!

كنت جادًا، وليس لشيء أن يؤثر فيّ، حتى صار عليها في النهاية أن ترحل؛ خجلةً حائرة ودون عون.

دوّنت في السجلّ ملحوظة عن زيارتها هذه، فحالتها هي الحالة الثامنة عشرة في قائمة الحالات المشابهة التي عاينتُها، على الرغم من أنني لست بطبيب أمراض نسائية.

لن يأخذ مني النسيان ذِكرى الحالة الأولى. كانت صبيّة في حوالي الثانية والعشرين من عمرها؛ ممتلئة، داكنة الشَعر غزيرته. جمالها فاجر فظّ، يفرض نفسه على الرائي منذ أوّل وهلة، ذلك النوع من الجمال الذي لا بد وأنه ملأ الأرض في أيّام لوثر عندما قال: يستحيل على امرأة الحياة دون رجل استحالة عظ المرء أنفه. لدمها كثافة الطبقة الوسطى ولا ريب، ووالدها من أثرى أثرياء رجال الأعمال. كنت طبيب العائلة، ولهذا هرعَت إليّ شديدة الاضطراب، ذاهلة وخارج سجيّتها، لكن دون قطرة حياء. أنقذني، ترجّتني، أنقذني. أجبتها بأن ألقيت محاضرتي المعتادة: واجبي كطبيب يحتّم...الخ. لكنها لم تفهم ما تفوّهت به بوضوح، ولم يعنها في شيء على الإطلاق. شرحت لها أن القانون لا يتواطأ مع أحد في حالات اللف والدوران كحالتك. حدجتني بنظرة عدم الاستيعاب. القانون؟ نصحتها بأن تعترف لوالدتها وتستشيرها: لسوف تتحدث إلى "البابا"، ثم سُيقام عرس كبير. أوه، لا. خطيبي لا يملك قرشًا، ووالدي لن يغفر لي فعلتي أبدًا. لم يكونا مخطوبين بالطبع. لقد استخدمت صفة "خطيبي" لأنها لم تجد غيرها. أمّا "عاشق" فهي كلمة روائيّة، كلمة حمقاء في كلام الفم. أنجدني! أليس في قلبك أي رحمة؟ لا أعرف ما أفعل، سألقي بنفسي من الجُرف البحريّ، سأنتحر.

نفد صبري. وللحق، لم تستطع هذه الفتاة أن تثير فيّ أيّ

إحساس بالرحمة. فأمور كهذه لا تنصلح إلا إذا كان الثراء هو مفتاحها. حينها، وحده الكبرياء مَن عليه أن يعاني قليلًا ويمحو زهوه. لكن "خطيبها" لا يملك المفتاح، فهو فقير بالنسبة لعائلتها. شخرت بأنفها، ثم تمخّطت، وأطنبت في شروحها بهيجان كامل، وفي النهاية رمت نفسها على الأرض وراحت تركل الهواء وتصرخ.

أجل، انتهى الأمر طبعًا كما توقّعت له منذ البداية. صفعها والدها الجلف المأزوم صفعتين أو ثلاثة، ثم زوّجها بسرعة فائقة من شريكها في الجريمة، ورحّلهما فورًا خارج الديار بحجّة قضاء شهر العسل.

حالات كهذه لا تقلقني. بينما كنت جدُّ آسف على المرأة الفقيرة التي زارتني اليوم. كثير من المعاناة والتعاسة مقابل حفنة صغيرة من البهجة.

احترام الحياة البشريّة! أيّ تفاهة تخرج من فمي هذا، أيّ نفاق رخيص؟ وما الذي يمكن أن تحمله شِفاه رجل يُزجي ساعات فراغه، على الدوام، في تقليب الأفكار؟ الحياة البشريّة.. إنها تجري بطرق لا تعد ولا تحصى حولنا. أما الحيوات البعيدة عنا، البشر الذين لم نرهم حتى، فمن اهتمّ بهم قيد أنملة؟ من اهتم؟ الجميع يثبتون ذلك بأفعالهم، خلا بعض المُحسنين السذّج. كل الحكومات ومجالس النوّاب على وجه البسيطة يثبتون ذلك أيضًا.

والواجب! ما هو إلا نافذة أنيقة نسترق النظر من وراءها عندما لا نريد المُضيّ في ما يلزمنا القيام به.

علاوة على ذلك، لن يغامر أحد بمكانته الاجتماعية وسمعته المحترمة ومستقبله وكل شيء في سبيل إزجاء المعونة لغرباء لا يعنونه شيئًا على الإطلاق. يساعدهم متوكّلًا على وعودهم بالكتمان؟ هذا تصرّف صبياني. قد تواجه صديقتها المعضلة نفسها، ثم تهمس لها الأولى أين يمكنها طلب المساعدة؛ ثم تجد نفسك رجلًا ذُهنت عليه علامة استفهام. لا. الأفضل هو الالتزام بالواجب، حتى لو كان لا شيء سوى محض لوحة تشكيليّة مصبوغة بمشهد طبيعي كقُرى بوتيمكين.(2)

خوفي يكمن في أنني قد أعتاد على تكرار درسي المزيّف للمرضى حتى أصدّقه في النهاية. إن كان بوتيمكين قد ضلّل امبراطورته وخدعها، فكم على المرء أن يكون مخادعًا ليضلّل نفسه؟

* * *

المكانة، الاحترام، المستقبل؛ وكأنني لست مستعدًا في أيّ يوم، وأيّة لحظة، لقذف هذه الحمولات على ظهر أوّل سفينة تعبر بمحاذاتنا في سبيلها إلى البعيد.

* * *

أجلس مرّة أخرى عند نافذتي. زُرقة الليل مستيقظة خلفي؛ وتحت الأشجار همسٌ وخشخشة.

بالأمس، أثناء نزهتي الليلة، وقعت عيناي على زوجين. ميّزت المرأة فورًا. لم تمضِ سنوات كثيرة على مراقصتي لها في إحدى الحفلات. ولم أنس أنني كلّما التقيتها بعد ذلك، راحت تشكو ليلتها الخالية من النوم. وغير ذلك لا شيء، فهي لا تدرك شيئًا. لم تكن حينها امرأةً بعد. كانت عذراء. كانت حُلمًا حيًّا بلحمٍ وعظام: حلم الرجل بامرأة.

والآن تتأبط ذراع زوجها نازلةً الشارع. تلبس ما هو أغلى ممّا ارتدته سابقًا، لكنه مبتذل، سوَقيّ الذّوق. وأرى في نظرتها ما هو منطفئ، بال. لكنها في الوقت نفسه نظرة تواصليّة زوجيّة، كأنها تحمل أحشاءها أمامها على طبق من فضّة.

لا، لست أفهم. لماذا عليه أن يجري على هذا النحو؟ لماذا عليه أن ينتهي دومًا هكذا؟ لماذا على الحب أن يكون الذّهب الخرافيّ الملعون الذي يتحوّل في الغد إلى وريقات مفتتة، هباء، أو نتانة طالعة من الانغماس في السُكر؟ هذا التردّي الحتميّ لكل علاقة، والذي هو جانب من طبيعتنا، مصمّم بشكل غير مباشر لإطعام جوعنا الأبديّ لحبّ جديد، أو دحر ما يعوق ذلك.. أليس هذا التردّي الأزليّ ينبع من سَعي الآدميّ المستمرّ نحو الحب؟ إن عشقنا الدائم للجمال لا يعرف منبعًا آخر غير طبيعتنا هذه.

الشّعر والموسيقى والفنون كلّها سكرانة من دفقات ذاك

النبع. كل شيء، حتى أتفه اللوحات التشكيلية من تاريخ العالم الحديث، وكل جزء من تصويرات رفائيل لقداسة مريم العذراء، وحتى لوحات ستينلين عن الكادحات الباريسيّات الصغيرات؛ من "ملاك الموت" كأغنية الأغنيات إلى كتاب الأغاني لهاينرش هاينه. حتى التراتيل الكنَسيّة ورقصات الفالس في ڤيينّا، أجل، وكل الزخارف الجصيّة في منزلي الموحش هذا؛ كل تكوين على ورق الجدران، وهيئة المزهريّة الصينيّة هناك، والنقش على وشاحي، وكل ما صُنع ليُبهر ويؤنّق - لا يهم إن كان حقّق مبتغاه أم لا- أليس ينبجس من النبع نفسه، حتى وإن اتخذ أطول الطرق وأكثرها مَيلًا ومواربة؟ هذه ليست فكرة عبقريّة من بنات أفكاري، ليست وليدة الليلة، بل فكرة أثبتت مئات المرات على مرّ الزمن.

ذاك النبع لم يكن اسمه الحبّ على أيّ حال. بل حُلمنا عن الحب.

إن كل ما نقوم به سعيًا منّا لتحقيق حلمنا عن الحب يُرضي غرائزنا، وهذا ما يدفعنا إلى المضيّ أبعد في إرضائها، على الرغم من شعور غرائزنا العميقة نفسها بوخز من الذنب، فالحُب يجعل من كل شيء عيبًا. وهذا لا يُمكن إثباته. إنه مجرّد إحساس أحسّ به وأعتقد أن الجميع يتملّكهم الشعور نفسه منفردين. يُقابل الناس قصصَ حب الآخرين باستخفاف، وكأنها قصص هزليّة،

وأحيانًا لا يستثنون حتى أنفسهم من السخرية. أمّا التبعات فإن المرأة الحامل كائنٌ مرعب! والمولود الذي ستضعه شيءٌ كريه. ما أقلّ ما يبعثه سرير الإعدام من فظاعة مقابل ولادة طفل؛ تلك السيمفونيّة المفزعة من الصُراخ والقرَف وأخلاط الدم.

في المحصلة، يكمن الأمر في الفعل نفسه، في ممارسة الحب. لا يسعني أبدًا نسيان نفسي صغيرًا، جالسًا أستظل بصفّ من أشجار الكستناء العملاقة في فناء المدرسة، منصتًا إلى زملائي يشرحون "ما يحدث". رفضت تصديق ما تفوّهوا به. كان على صِبيان آخرين أن يقتربوا مني، ضاحكين من غبائي، ومؤكدين الأمر، لكنني لم أصدقهم كلّ التصديق وقتها، وهربت منهم مختليًا بنفسي الغاضبة. هل فعل أبي وأمي ذلك؟ وهل عليّ اقتراف هذه الفظاعة عندما أكبر؟ ألا سبيل للهرب؟ لطالما احتقرت بفجاجة الصَبيان السيئين الذين يخربشون البذاءات على الجدران ولوحات الإعلانات. أما في تلك اللحظة فقد خيّل لي أن الإله نفسه قد رسم البذاءة على امتداد السماء الزرقاء الربيعية المثقلة بالسَحب؛ وأظن أنني حينها شككت في وجوده لأوَل مرة.

إلى اليوم، لم أتعافَ من صدمتي تلك. لماذا تُحفظ استمراريّة جنسنا الحيوانيَ في الحياة وتُصان بأعضاء نستخدمها عدّة مرات يوميًا للتخلّص من الدنَس؟ لماذا

لا ترتهن ديمومتنا بسُبلٍ وأفعال قائمة على الكرامة والجمال، وفي الوقت نفسه باعثة لأعلى درجات إبهاج الحواس؟ أفعال يمكن القيام بها مثلًا في الكنيسة أمام أنظار الجميع، تمامًا كما تكون في الظلمة والعزلة؟ أو في ضريح من الورود، تحت عين الشمس، بامتداد هتاف الجوقة، وعلى وقع الضيوف الراقصين في الزّفاف؟

* * *

كم مرّ عليّ من الوقت وأنا أذرع الغرفة؟ لست أدري.
الظلمة في الخارج باتت أخفّ، يلمع من ديك الكنيسة[3] جانبه الشرقيّ، وعصافير الدوريّ تغرّد هائجة جائعة.
غريب؛ كيف لرعشةٍ أن تعبر جسد الهواء دومًا قبل الشروق.

* * *

18 يونيو

هواء اليوم أبرد قليلًا. ولأوّل مرة منذ حوالي الشهر، أتنزه على حصاني.
يا له من صباح! استضافني سرير البارحة مبكرًا، ونمت كما يبدو طوال الليل. لا أنام دون أن أحلم، غير أن أحلام البارحة كانت زرقاء، شفّافة. ركبتُ حصاني صوب منتزه هاغا، ملتفًّا حول ضريح الصّدى، قاطعًا الخيم النحاسيّة[4]. على العشب والأغصان شباك العناكب والندى، وحفيف يتعالى بين الأشجار. الإله ديڤا

اليوم في أوسع عطاياه؛ كانت الأرض ترقص تحت أقدامنا، فتيّة جميلة كأنّها في صباح خلْقها الأوّل. مررت بحانة اعتدتُ الاستراحة فيها خلال نزهاتي أيّام الربيع المنصرم. ميّزت المكان، فترجّلت عنده، وأفرغت كأسًا كاملة من الجعّة في جوفي

بشربة واحدة. قابضًا على خصر الفتاة ذات العينين البنيّتين، أدرتها حولي مرارًا وقبّلت شعرها، ثم ودّعتها خارجًا.

هكذا، كما في الأغاني.

***

19 يونيو

نعود إلى السيّدة غرغوريوس، هناك ما يشغل بالها. أعترف أنني استغربت حركاتها.

هذه المرّة جاءت متأخّرة، انتهت الفترة المحددة للاستشارات العامة وتُركت وحدها تترقّب في غرفة الانتظار.

دخلت عليّ شديدة الشحوب، حيّتني، صباح الخير، وبقيت واقفة وسط غرفة الفحص. أشرت إليها بالجلوس، لكنها لم تبرح مكانها. قالت لي:

- كنت أخدعك في المرّة السابقة، لستُ مريضة، بل إن صحّتي في زهوها. أتيتك في شأن مختلف تمامًا أردت محادثتك عنه. لم أستطع وقتها، أيها الطبيب، أن ادفع نفسي للتفوّه به.

في الأسفل عبرت الشارع عربة أحصنة، تحمل براميل كبيرة، فارتفع منها ضجيج عالٍ وهرعت لإغلاق النافذة. وفي الصمت المفاجئ، سمعتها تتمتم بصوت خفيض سريع بكلمات مرتجفة على حافة الدمع:

- صرت أشعر بنفور مريع تجاه زوجي.

وقفتُ في زاوية الغرفة وظهري نحو الموقد، وأحنيت رأسي في إشارة إلى تفهّمي وضعها. مضت في كلامها:

- لا أكرهه كإنسان، بل هو لطيف معي وخيّر. لم يفه بما يسيء إليّ قط. لكنه يوقظ فيّ إحساسًا نفّاذًا بالنفور منه.

ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تكمل:

- لا أعرف كيف أعبّر عن نفسي. ما طرأ على بالي سؤالك إياه هو أمر شاذّ جدًا، وربما يناقض معتقداتك. لا أدري ما هو رأيك في الأمور التي تشبه ما جئتك به، أيها الطبيب. لكني أعثر فيك على ما يلهمني الثّقة بك، ولا أعرف أحدًا آخر أستطيع البوح له بأمري، لا أحد في هذا العالم على اتساعه يمكنه مساعدتي. أيها الطبيب، هل تستطيع التحدث مع زوجي؟ هلّا أخبرته أنني أعاني من مرض ما، أعاني من مرض مُعدٍ في رحمي، وعليه لذلك أن يتنازل عن حقوقه الزوجيّة، على الأقل لفترة من الوقت؟

حقوق! مررت بكفّي على جبيني. كلّما تناهت إلى سمعي هذه الكلمة تُظلم الدنيا في عينيّ. أيها الرّب في عليائه،

ما الذي حلّ بعقول البشر ليبتكروا أموزًا كالحقوق والواجبات!

اتضح لي وضوحًا لحظيًا أن عليّ نجدتها، إن كان بيدي ما أستطيع فعله. لكن وقتها لم أجد ما أقوله، أردتها أن تمضي في حديثها. ربما كان تعاطفي معها مخلوطًا بجرعة من الفضول الصَرف.

قلت لها:

- سيّدة غرغوريوس، أعذريني على سؤالي هذا، لكن كم مضى على زواجكما؟

- ست سنوات.

- وهل كان ما تسمَينه حقوقًا زوجيّة أمرًا عسيرًا طوال الوقت، كما هو الآن؟

احمرّ وجهها بعض الشيء. قالت:

- لطالما استصعبتها. لكنها مؤخرًا باتت غير محتملة. لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك، لا أعرف ما قد يصدر عني.

- لكنني لاحظت أن القسّ ليس بالرَجل الفتيَ الشاب. إنه ليفاجئني أنه وفي عمره هذا يستيطع أن.. أن يتعبك كثيرًا كما تقولين! كم عمره إن تحرّينا الدقّة؟

- ستة وخمسون عامًا، كما أظن. لا، ربما سبعة وخمسون، لكنه يبدو أكبر من ذلك بالطبع.

- حسنًا. لكن أخبريني سيّدة غرغوريوس، هل فاتحته بهذا الموضوع من قبل، وأعلمته كم يعذبك ذلك، سائلة

إياه بودّ وبساطة أن يعذرك؟

- نعم، طلبت منه ذلك مرّة، فألقى عليّ عِظة دينيّة. قال إننا لا نعلم إن كان الله قد قدّر لنا أن نحظى بطفل أم لا، فنحن لم ننجب حتى الآن؛ ولذلك ستكون خطيئة ما بعدها خطيئة أن نحجم عن ما أمرنا الله بفعله كي نُرزق بالأبناء.. قد يكون على حق، لكنه أمر يعسُر عليّ.

ذُهلت، ولم أقو على منع ابتسامتي. يا له من عجوز خطّاء قاس!

انتبهت السيّدة لابتسامتي، وأعتقد أنها أساءت فهمها. وقفَت في مكانها صامتة لبعض الوقت، وكأنها تجمع شتات أفكارها، ثم استأنفت حديثها بصوت ضعيف راعش، والدم ينتشر في وجهها، والحُمرة تجتاح بشرتها كلها. قالت:

- لا، عليك أن تسمع القصة كلها. يبدو أنك خمّنتها بالفعل، فأنت ترى دخيلتي. أطلب منك أن تلعب دور الأحمق من أجلي. ولهذا عليّ أن أكون صريحة معك على الأقل. إنني زوجة خائنة. أعشق رجلًا آخر. ولهذا بات الأمر صعبًا عليّ صعوبة لا تطاق.

راوغت نظرتي لها وهي تفضي بكلامها ذاك. لكنني أنا، للتوّ وحسب، ولأوّل مرّة، أراها بحق. في تلك الوهلة رأيت امرأة تقف في غرفتي، امرأة لها قلب غامض يطفح بالرغبة، في وردة شبابها، معطّرة بالحُب، لكنها محمرّة خجلًا، لأن شذى عشقها العِطريَ نفّاذ، وسهل

الملاحظة.
شعرت بنفسي أشحب.
رفعت رأسها والتقت أعيننا. لا أعرف ما الذي قرأته في عينيّ، لكنها لم تقوَ بعدها على الاستمرار في الوقوف، فغاصت في المقعد، مرتعشةً نائحة. ربما ظنّتني أحمل الأمر كلّه محمل الطيش، أو ربما غير مبال بها ويابس الفؤاد، وأنها فضحت نفسها لرجل غريب دون طائل.
اقتربت منها، أخذت كفّها ورحت أربت عليه: هنا، أنا هنا، لا يقلقنك شيء، لا تبكي، لا تبكي بعد الآن. سأساعدك، هذا وعد.
- شكرًا، شكرًا...
قبَلت كفّي وبلّلتها بدموعها. راحت تنشج من جديد، ثم أشرقت ابتسامة من ظلمات نواحها. فكان عليّ أن أبتسم أيضًا. قلت:
- لكنك حمقاء لإخباري بالمعلومة الأخيرة! لا لأنك من المفترض أن تخافي من خيانتي ثقتَك بي، أو أنني قد أبتزّك؛ لكن لأن أمورًا كهذه لا بد من بقائها طيّ الكتمان دومًا ودون استثناءات! ولأنني بالطبع سأساعدك على أي حال. فأجابت:
- لقد أردت أن أخبرك! أردت من شخص أحترمه وأجلّه أن يحيط علمًا بذلك دون أن يحتقرني.
وهنا تذكّرت، وعرفت لماذا أنا بالتحديد. إنها قصة طويلة حدثت قبل عام، عندما سمعت نقاشًا دار بيني

وبين زوجها القسّ- كان مريضًا وكنت أعوده وقتها. قادنا نقاشنا إلى الحديث عن الدعارة. استعادت السيّدة كل ما قلته حينها، والآن راحت تعيده على مسمعي- قلت كلامًا بسيطًا وجِدُّ عاديَ، فحواه أن أولاء البنات الفقيرات لسن سوى بشر في النهاية، ولهذا يجب علينا معاملتهن والحديث عنهن كبشر...الخ. كلام عادي، لكن المختلف هو أنها لم تسمع أحدًا يتفوّه به قبلي. ومنذ ذلك اليوم وهي تُكبِرني، ولهذا استجمعت شجاعتها لتقف أمامي وتصارحني.

كنت ناسيًا ذاك كله. لكن ما تطمره الثلوج، تُخرجه السيول!

وعدتها أن أفاتح زوجها بالأمر اليوم، فغادرَت. لكنها نسيت قفّازيها ومظلّتها. فعادت باحثةً عنهما، وعندما اختفت من جديد كانت مشرقة، سعيدة، دائخة بالبهجة، مثل طفلة وجدت طريقها، وتتطلّع إلى نَيل فرحها الأكبر.

* * *

قصدته بعد الظهيرة. وكانت قد هيّأته بعض الشيء للحديث في هذا الأمر كما اتفقنا. وفي غرفة منفصلة، طرقث الموضوع معه. ازداد وجهه شحوبًا حتى غدا رماديًا. قال:

- أجل، لمَحت زوجتي إلى أن مشاعرها باتت على هذا النحو. لا يسعني إظهار أساي العميق لحالها. تمنّينا معًا

أعمق الأماني أن نُرزق بطفل. لا أؤيّد انتقالنا إلى غرفتين منفصلتين للنوم، لكن لا أمانع رغم أنه أمر غير معتاد في دوائرنا الأسريّة. هذه نقطة يجب إيضاحها. ولن ينتج عن الانفصال شيء سوى الشائعات. وأنا رجل مُسِن، وسترنو الأنظار كلها إلي.

ثم سعل سعالًا جافًا. قلت:

- أجل، أوافقك. لا أشك أنّك تضع صحّة زوجتك في مقدّمة أولوياتك يا رجل الدّين. وعلى أي حال، فإنني أرى آمالًا عريضة بشأن تحسّن حالتها وعودتها كما كانت. فأجابني:

- ليس بوسعنا سوى الصّلاة لله والدعاء لها. لكن كم من الوقت سيستغرق شفاؤها، أيها الطبيب؟

- يصعب البتّ في ذلك. لكن نصف عام من الامتناع التام عن ممارسة الجنس هو أمر لا مفرّ منه. وبعد ذلك سنرى..

يحمل وجهه بعض البقع البنيّة القميئة. وبعد سماعه ما قلت، ازدادت تلك البقع دُكنة؛ فبرزت على خلفيّة شحوبه عديم اللون، وكأنّي بعينيه قد ضاقتا أيضًا.

* * *

تزوّج مرّة من قبل. لكن زوجته الأولى تلك ماتت، ويا للأسف! يضع على طاولة مكتبه بورتريهًا لها، مكبّرًا عن "سكيتش" رُسم بالفحم؛ تبدو بسيطة التفكير، متبرّمة، تقيّة، مُغرية، لا تختلف كثيرًا عن الطيّبة كاترينا فون

بورا.(5)

إنها تناسبه ولا شك. لكنها، ويا للأسف، ماتت.

* * *

---

(1) أرتور شوبنهاور (1788–1860) فيلسوف ألماني، عُرف بفلسفته التشاؤمية وتبجيله العدم، من أقواله: الحياة تتأرجح كالبندول بين الألم والملل. (المترجم)

(2) بعد ما استولت روسيا على ممتلكات واسعة من الدولة العثمانية، سعى غريغوري بوتيمكين لإقناع الإمبراطورة بنجاح سياسته الاستعمارية والهادفة لاستعمار هذه الأراضي. ثم دعا الإمبراطورة لرحلة عبر النهر لتشاهد بنفسها من المركب عملية الاستيطان، وكانت حيلته هي صنع مجموعة من واجهات القرى المتحركة التي كانت تحتل المناطق التي تمر من أمامها سفينة الإمبراطورة، حيث يقوم المواطنون الروس بالتلويح لها وإطلاق صيحات السعادة والحب والترحيب. وفي المساء يجري فك القرى سريعا ونقلها إلى المناطق التي من المقرر أن تمر أمامها السفينة في اليوم التالي، وهكذا تقتنع الإمبراطورة بأن الأرض قد عُمَرت، وأن الناس يدعون لها ويهللون لها بالرخاء والسعادة. م.

(3). يُرفع على قبب الكنائس عادةً تمثال ديك، وهو رمز لصدق المسيح، مأخوذ من قصّة نكران الحواريّ بطرس علاقته به؛ إذ قال له المسيح: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي هذِهِ اللَّيلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ» فأجابه بطرس «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ!» لكن بطرس بالفعل أنكر معرفته ثلاث مرّات عندما سُئل عن علاقته به في دار رئيس الكهنة، وما إن سمع صياح الديك مرّتين حتى تذكر نبوءة المسيح «فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى». الآيات مأخوذة من إنجيل مرقس 14. م.

(4). ضريح الصدى هو بناء أنشئ عام 1790 كغرفة عشاء صيفية لملك السويد غوستاف الثالث في منتزه هاغا شماليّ ستوكهولم لحبّه تناول العشاء في الهواء الطلق. يشمل المنتزه أيضًا مبنى سرادق الملك، والخِيام النحاسيّة البديعة المصممة على شكل خيم الحرب الرومانية. م.

(5). كاترينا فون بورا (1499-1552) هي زوجة مارتن لوثر وأحد قادة الإصلاح البروتستانتي. م.

21 يونيو

من هو الرجل "المحظوظ"؟ يتردّد هذا السؤال في ذهني دون انقطاع منذ رأيتها أوّل أمس.

غريب! كان عليّ أن أعرف الإجابة فورًا. تكشّف لي أنه شابّ أعرفه، وأحبّ قُربه إلى درجة ما. إنه كلاس ريكّه.

حسنٌ.. حسن. إنه بالتأكيد مخلوق يختلف الاختلاف كلّه عن القسّ غرغوريوس.

صادفتهما معًا لوهلة أثناء نزهتي الليليّة؛ كنت أسير دون وجهة محدّدة، في شوارع مخضّبة بأزهار الشفق الدافئة. وكنت أفكر فيها، تلك المرأة الصغيرة، ولطالما فكّرت فيها. قادتني قدماي جانبًا نحو شارع خلفيّ مهجور. وهناك، فجأة، رأيتهما يتقدّمان نحوي بعد أن خرجا لتوّهما من أحد الأبواب. وعلى عجل، سحبت منديلي ورحت أعطس كي أغطّي وجهي وأخفيه عنهما. لكنها حركة لا ضرورة لها؛ فهو بالكاد سيميّزني لو رآني وجهًا لوجه. أما هي، وقد أعمتها السعادة، فليست ترى أمامها، ولم تلحظنِ.

* * *

22 يونيو

جلست أقرأ الصفحة التي كتبتها البارحة، وأعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، مخاطبًا نفسي: هكذا هو الأمر إذًا، يا صاحبي القديم، أصبحتَ قوّادًا، ألست كذلك؟

تحدّث بمنطق. لقد حرّرتها من حياة فظيعة، وشعرت أنه

صوابٌ لا بد منه.

ما تقوم به مع نفسها هو شأنها، لا شأني.

* * *

23 يونيو

إحدى مساءات منتصف الصيف. ليلٌ خفيف، أزرق. ألستِ أذكركِ أيتها الليالي المشابهة في طفولتي ويفاعي كأرقّ الليالي، وأكثرها سعةً وهواءً من بين ليالي السنة كلها؟ لماذا إذًا أجدك الآن ثقيلةً، قلِقة؟

أجلس عند نافذتي عابرًا حياتي كلها، وأعيد عبورها، كي أجد سببًا لتعثّرها ثم سقوطها في حفرة لم تصادفها حيوات الآخرين.. حفرة بعيدة عن دروب الناس المعروفة؟

لأفكّر.

أثناء عبوري فناء الكنيسة، رأيت مرة أخرى أحد المشاهد التي يعبَّر عنها عادةً في الرسائل المرسلة إلى الصّحف بجملة "عصيّة على الوصف"؛ لا بد وأنها فائقة البطش، تلك الغرائز التي تُرغم الرجال الأشقياء على الاستخفاف بكل الأعراف المتّبعة في أفنية الكنائس. فهي تقوّي أحابيل الطائشين للوصول إلى مرادهم، وتلعب بعقول الأذكياء منهم لتلقيهم في حُفَر المصائب والتضحيات. أمّا النسوة، فتدفعهن تلك الغرائز نفسها إلى القفز على مشاعر الحياء ومبادئ الاحتشام -التي يقوم التعليم بإيقاظها وتطويرها في الفتيات فيتواصين

بها جيلًا بعد جيل- فيشرَعْنَ بتلمّس التياعات جسديَة مؤلمة، تودي بهن إلى الغرق في كرْب عميق.

وحدي أنا، مَن لم تقده غرائزه إلى شيء. كيف أمكنني ذلك؟ لكن حواسي انتفضت أخيرًا ودبّت في داخلي نوايا الرّجال. كنت طَموحًا في طفولتي، اعتدت مبكّرًا على التحكم بذاتي والتفريق بين أهدافي العميقة والأماني السطحيّة؛ بين الدوافع المستمرّة والشهوات الآنيّة. تعلّمت على سماع صوت واحد فقط، وإهمال الأصوات الأخرى. استوعبت بعدها أن هذا الأمر غير طبيعي بين الناس، بل وإنه أكثر شذوذًا عن الطبيعة من طفرات العبقريّة والمواهب الخارقة؛ ولهذا آمنتُ بأن لديّ ملَكة يجب أن أصنع منها ما يجعلني مرموقًا وبالغ الاختلاف. ألم أكن من بين أكثر الطلبة لفتًا للانتباه في المدرسة؟ دائمًا الأصغر عمرًا بين طلاب الفصل؛ ألم أتجاوز اختبار الثانوية عندما بلغت الخامسة عشرة من عمري، ونلت شهادة الماجستير في الثالثة والعشرين؟ لكنني حينها توقفت. لم أرغب في اكتساب معارف أخرى، ولم تنازعني الرغبة في الحصول على الدكتوراه. كنت مُحاطًا بمن هم طيّبون إلى درجة إقراضي أيّ مبلغ من المال أحتاجه؛ لكنني تعبت. شعرت بخواء محاولة التخصّص أكثر في الدراسة. كل ما أردته هو جَني خبز يومي. لقد أشبعتُ رغبات الطفل في نيل الدرجات الأعلى فغادرَتني. لكن، ويا للغرابة، لم تحل محلها أيّ

رغبة من رغبات الرجال الناضجين. يُخيّل إليّ أن السبب وراء ذلك هو أنني لم أبدأ بالتفكُّر، طوال حياتي، إلا في تلك الساعة. لم أملك من الوقت ما يدفعني لإمعان النظر حتى تلك الأثناء.

هنالك غرائز أخرى كانت تغفو، نصف مستيقظة، طوال تلك السنوات؛ نصف ناعسة بما يكفي لتبعث أحلامًا مشوّشة، وشهوات ضبابيّة، كما يحدث للفتاة اليافعة؛ لكنها ليست جبّارة ومستبدّة كما هي عند الشبّان. وحتى لو بقيتُ مستيقظًا في الليل من وقت إلى آخر، غامرًا نفسي في خيالات ساخنة، لم أكن واعيًا إلى أنني يجب أن أبحث عمّا يُلبّي هذا الشّبق مع الفتيات اللّائي يذهب زملائي لزيارتهن، أو تلكم اللّاتي يُشرن إليّ بالأصابع في الشارع؛ لم أشعر نحوهن سوى بالقرف. وهذا، في ظنّي، ما يُفسّر الانعزال الذي نمَث في ظلّه تصوّراتي، دون أن تلامس -مجرّد الملامسة- تصوّرات زملاء الدراسة. وعلى أي حال، كنت أصغرهم دومًا. ولهذا عندما ينخرطون في نقاش عن تلك الأمور، أجد نفسي في البداية لا أفهم شيئًا ممّا يقولونه. وهذا الجهل تطوّر معي حتى أصبح شكلًا من أشكال الصّممْ. ولهذا بقيت "نقيًا"، لم أقترف حتى الذنوب الصغيرة التي يقع فيها من هم في عمري، فأنا بالكاد أعرف ما هي بالضبط. ولم أكن أيضًا أحمل إيمانًا دينيًا، يدلّني ويُعينني. لكنني رغم ذلك خلقتُ أحلامي الخاصة عن الحب، أوه أجل، أحلامًا فاتنة، وكم

كنت واثقًا من أنها يومًا ما ستتحقَّق. لكني لم أكن، في سبيل تحقيقها، لألطِّخ بياض سيرتي الدراسيَّة، أو لأبادل بكارَتي بتجربة حُبّ بخسة مع فتاة ليل لن تهبني مقابلها سوى ما يشبه خليط حساء رخيص.

أحلامي عن الحب بدت لي مرَّة قريبة، جدّ قريبة، حتى كدت ألمسها. حدث ذلك في إحدى ليالي منتصف الصيف؛ كان الليل وقتها شاحبًا وغريبًا. إنها ذكرى تنبعث إلى الحياة في خاطري، مرارًا وتكرارًا، وهي في الحقيقة كل ما عندي. فهي وحدها ما يبقى طافيًا عندما يغرق كل ما عداها، وتتحوَّل الذّاكرة إلى غبار عدَميّ. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الذكرى لا تحمل ما هو خارق للعادة. اعتدتُ المبيت في بيت عمي الريفي أثناء عطلات منتصف الصيف. وكان هناك شباب وشابّات، ورقص ولعب. وكانت هناك تلك الفتاة. صادفتها من قبل أكثر من مرة في بعض الحفلات العائلية، ولم تشدّ انتباهي قط. لكن هذه المرة، عندما رأيتها، قفز إلى ذهني كلامٌ نقله لي زميلُ دراسة في إحدى الحفلات الماضية: تلك الفتاة، ولا شك، قد وضعت عينيها عليك، فهي تحدّق فيك طوال السهرة! أستدعي كلامه الآن. وعلى الرغم من أنني لم آخذ ملاحظته على محمل الجدّ وقتها، فإنني وجدت نفسي أتابعها وأهتم بها بطريقة لم أكن لأقوم بها لولا كلامه. ولاحظت أيضًا أنها تنظر إليّ بين الحين والآخر. ربما لم تكن أكثر جمالًا من فتيات

كثيرات يحِطن بنا، لكنها كانت في أوّج تفجّر أنوثتها العشرينيّة، مرتديةً فوق نهديها النديّين بلوزة بيضاء، خفيفة. راقصنا بعضنا أكثر من مرة. وبحلول منتصف الليل، صعدنا جميعًا هضبة تطلّ على مشهد ريفي خلّاب، وقد أوقدنا مشعلًا. أمّا نيّتنا فهي أن نبقى هناك حتى شروق الشمس. الطريق إلى الهضبة يشقّ الغابة، وتحدّه على الجانبين أشجار صنوبر باسقة. صعدنا الدّرب اثنين اثنين، وكنت أنا ثانيها، أسير بمحاذاتها. تعثّرَت بجذع شجرة في الغابة الظليلة. مددت لها يدي كي تنهض، فسرَت في جسدي رعشة من اللذّة عندما شعرت بكفّها الناعمة، الصغيرة، الأنيقة، الدافئة، ترقد في كفّي. ولهذا مضيت قابضًا على كفّها، حتى في البقع السهلة والناعمة من الطريق.

ما الذي دار حديثنا حوله؟ لست أدري، لم تبق كلمة واحدة في ذاكرتي. كل ما أذكره هو تلك الموجة الزّاعشة من الصّمت، والارتهان، والإخلاص، التي سبحت في صوتها وكلامها، وكأن مجرّد السّير سويًا يدًا بيد عبر الغابة كان أمرًا لطالما حلمَت به، والآن تحقّق. وصلنا قمّة الهضبة. الشبّان الآخرون، وقد وصلوا قبلنا، قاموا بإيقاد المشعل. ثم انتظمنا في مجموعات، وافترقنا في ثنائيّات. تعلّقت السماء من فوقنا؛ واسعة، مضيئة، زرقاء. وتنبسط تحتنا الجداول، والأصوات، والمعابر العميقة، مشعّةً كالشمس وهي تبتعد حتى أقاصي

الأرض. وكنت ما زلت محتفظًا بكفّها في كفّي. وأذكر أنني استجمعت شجاعتي ببطء لأستطيع تمسيدها بتمهّل. استرقت بعض النظرات نحوها، ورأيت كيف أن بشرتها تشعّ في الليل الممتقع، وكيف أن عينيها كانتا تمتلئان بالدمع دون بكاء، وأنفاسها تتوالى ثابتةً هادئة. في الصمت جلسنا معًا، وفي داخلي كنت كمن يغني أغنية، أغنية قديمة طرأت على بالي لا أعرف كيف:

هنالك لهب يضطرم

إني أحترق في ألف إكليل من نار

ولا أخفي ذلك.

هل عليّ إذن أن أتوسّط وحبيبتي هذا اللهب؟

هل لي مراقصة فؤادي ولهفاته؟

مكثنا هناك لوقت طويل. أهمل وجودنا البعض وعادوا إلى المنزل. وسمعت أحدهم يقول بأن هناك غيومًا ثقيلة جهة الشرق، ولذا لن ينكشف لنا الشروق. راح الجمع فوق التلّة يقلّ ويقلّ، بينما جلسنا نحن حتى تُركنا وحدنا كما ظننا. رحت أمعن النظر في عينيها طويلًا، وهي تبادلني النظر. ثم أخذتُ وجهها بين كفيّ، وقبّلتها، قبلة خفيفة، بريئة. وفي اللحظة نفسها صاح أحدهم باسمها. انتبهَت منذهلة، فانتزعت نفسها منّي وراحت تركض، تركض بخطى رشيقة إلى أسفل التلّ، باتجاه طريق الغابة.

عندما لحقت بها كانت قد اختلطت بالبقيّة، ولم يكن

بمستطاعي القيام بشيء سوى اعتصار كفَها برقّة وصمت، وكانت بالمقابل تشدّ على كفّي أيضًا. مَن لم يذهبوا معنا إلى التلّة، ما زالوا يرقصون في المنزل؛ فتيات ريفيّات، ورجال المزارع خشنو الكفوف، مختلطين بشبّانٍ وشابّات الطبقة العليا، كما هو متّبع في احتفال هذه الليلة من كل سنة. مرّة أخرى طلبتها للرقص، وكانت رقصة جامحة، مدوّخة، لم يغيّر من الأمر شيئًا أن الشّمس أطلّت علينا، فسحر منتصف الصّيف منفوث في الهواء، وعابق. الأرض كلها ترقص أسفل أقدامنا، والراقصون من حولنا، اثنين اثنين، يعبرون عبور الأشباح؛ مرّة إلى جوارنا، ومرّة فوقنا، ومرّة بعيدًا جدًّا من تحتنا! الأشياء كلها ترتفع وتنخفض وتدور وتدور. وأخيرًا طفرنا من دوّامة الراقصين التي تشوّش الذّهن، وهربنا معًا دون أن نجرؤ على النظر إلى بعضنا، وانزوينا خفافًا، دون كلمة واحدة، خلف سياج من أزهار اللّيلك. وهناك قبّلتها من جديد، لكنها كانت قُبلة مختلفة؛ فرأسها مال إلى الوراء نائمًا، متوسّدًا ذراعي، وقد أطبقت أجفانها، وارتعشت شفاهها حيّة تحت شفاهي. عصرت نهديها، وشعرت بكفّها تزحف ثم تحطّ بين أفخاذي- ربما أرادت أن تدافع أمامي عن نفسها بطريقة ما، ربما أرادتني أن أرفع كفّيَ عن صدرها، لكن ما حدث هو العكس، فقد راحت كفّاي تحتلب بنهم نهديها، عصرَتهما. وفي تلك الأثناء عبرَت وجهها موجة

مشرقة، بدأت ضعيفة، ثم اشتدّت واشتدّت حتى انبثقت عنها ومضة عنيفة خاطفة؛ فتحت عينيها بعدها، لكنها لم تحتمل إبقاءهما مفتوحتين، فأطبقتهما مجبورة، في استسلام مطلق. ثمّ، عندما قبّلنا بعضنا قبلتنا الطويلة حتى نهايتها، وقفنا، والوجنة على الوجنة، ذاهلين، محدّقين في الشمس التي اخترقت الغيوم الشرقيّة.

لم أرها مرّة أخرى. حدث ذلك منذ عشر سنوات. عشر سنوات مرّت الليلة. وإلى اليوم، عندما أفكّر مليًا في هذه الذكرى، يفترسني الندم، وينتابني من الغبن والقهر أشدّهما، ثم يصرعني المرض.

لم نتواعد في اليوم التالي؛ لم يخطر لنا ذلك. كان والداها يعيشان في منزل مجاور. وافترضنا أكيدَين بأننا سنلتقي في الغد، وبعد غد، وكل يوم، وسنمضي معًا في هذه الحياة. لكنها أمطرت في اليوم التالي، وانتهى النهار دون اجتماعنا. وكان عليّ في المساء النزول إلى البلدة. وبعد بضعة أيام قرأتُ خبرًا في الصحيفة يقول إنها ماتت؛ غرقت مع فتاة أخرى أثناء السباحة في البحيرة- أجل ماتت، والليلة تمرّ عشر سنوات على موتها.

في البدء، غطستُ في اكتئاب رهيب. لكن لا بد وأنني جُبلت من طينة ضارية؛ فقد واصلتُ حياتي كما كانت، ونجحت في امتحانات فصل الخريف. لكنني عانيت

أيضًا. كنت أراها أمامي في الليل؛ أرى الجسد الأبيض يستلقي بين العُشب والوحل، العينان مفتوحتان، وفاغرٌ ذلك الفم الذي قبّلته. ثم يأتي أناس يجدّفون قواربهم ويحملون حبلًا يوثقون خطّافه على نهديها، ذلكما النهدين الفتيين اللذين لمسثهما كفّاي في مساء قريب.

كان على الوقت أن يأخذ كثيرًا من عمري قبل أن أشعر مرّة أخرى بأنني رجل، أو أن هناك مخلوقات في العالم يسمّين نساء. لكنني بتّ أقسى، وأكثر تحجّرًا. شعرت لمرّة، على الأقل، بأن شرارةً من تلك النار الذهبيّة العظيمة قد مسّتني. لكنني أهملتها تمامًا كما لم أفعل في حياتي كلها. لم أجارِ تلك المرأة التي حرّكت شهواتي، ولم أبادلها تفاهةً واحدة. بالطبع هناك آخرون مثلي، لكنهم يغدون أقل تصلّبًا مني مع الوقت، وأكثر إلحاحًا في تجاوز هذه الحال، لأن هذا هو همّهم اليومي. لكنني لست مثلهم، ولست أدري هل طرح مثل هذا السؤال مُهمّ أصلا؟ غير أن مجرّد شعوري بتلك الشرارة قد عنى لي شيئًا. إنه لمن السذاجة عدم الاعتقاد بأن غريزة الرجل لن تدفع بأمثال تلك الشرارة إلى الانفلات والتواتر، يكفي أن تشعر بها أوّل الأمر لتدرك أنها قادمة مرّة أخرى ولا ريب.

عزيزي مارتن لوثر[6]، يا منبع القيم التي تُشكّل مذهب القسّ المبجّل غرغوريوس، لا بد وأنك كنت خطّاءً كثير الذنوب حتى العَظم. فيا له من كلام اعتباطي، ذاك الذي

تفوّهت به عندما تناولت موضوعنا المثار هنا. وعلى الرغم من ذلك، فإنني أظنّك أكثر صدقًا من كل أتباعك. وهذه نقطة تُحسب لك.

هكذا مرّت السّنون، الواحدة تلو الأخرى؛ تعبر الحياة إلى جانبي، ولا تراني. صادفت نساءً كثيرات أعدن إشعال رغباتي، لكن هاته النسوة بالتحديد لا يلاحظن وجودي البتة، لا يلتفتن نحوي ولا يسكبن عليّ نعمة نظراتهن. كنت كائنًا خفيًا عنهن، غير مرئي.

ما سبب ذلك يا ترى؟

أظن أنني الآن أعرف.

المرأة العاشقة، المرأة التي في الحب، ينثال منها سحرٌ ما، ينسكب مشعًا من هيئتها وكيانها كلّه، في سَيرها وتلفّتها وحديثها وقيامها وقعودها. هذا السّحر هو، وحده، ما يستعبدني. وقد كن نسوة واقعات في الغرام من أوقدن في صدري الشهوات. لكن لأنهن في غمار حب رجل آخر، فهن لا يُعرنني أيّ انتباه. في حين أنني لا ألتفت لفتيات أخريات -ما أكثرهن- كنّ يطمحن إليّ في الوقت نفسه؛ ففي النهاية أنا طبيب في ريعان شبابه، وعملي يضعني في مستوى معيشة ممتاز. ولهذا كنت أُعتبر صيدًا ثمينًا. وبتّ في الحقيقة هدفًا لاهتمامات لجوجة كثيرة، لم تظفر سوى بالفشل الذريع.

أجل، تمضي السنوات والحياة تخلّفني وراءها. أجهد في العمل وتلبية نداء الواجب؛ يأتيني الناس بمختلف

عِللهم، وأحاول بقدر ما أستطيع علاجهم. البعض يُشفون، وآخرون يموتون، وآخرون يمضون في آلامهم ومواجعهم. لا أحقق أي معجزات؛ بعض من أفشل في علاجهم يُغرضون عني ويقصدون مشعوذين ودجالين بحثًا عن الشفاء. لكنني أعتبر نفسي طبيبًا شديد الحرص وذا ضمير يقظ. وقريبًا سيقودني هذا إلى أن أصير طبيب العائلة المثاليّ؛ صاحب الخبرة الطويلة، والنظرة الهادئة الباعثة على الثقة في النفس. ربما لم يكن الناس ليأتمنوني هكذا لو عرفوا كم هو سيئ نومي في الليل، ومتقطَع.

إنها ليلة من ليالي منتصف الصيف، والظُلمةُ شاحبةٌ زرقاء؛ ألستِ أذكركِ أيتها المساءات المشابهة؟ عندما كنتِ مرَة باعثةً للشكر، وضَاءة وملعبًا للهواء. لماذا أجدك الآن مثل همّ ثقيل جاثم على صدري؟

* * *

28 يونيو

البارحة، أثناء نزهتي الليلية، مررت على الجراند أوتيل(7). **وجدت** كلاس ريكّه، العاشق، يجلس إلى طاولة خارجيّة على الرصيف، وحيدًا مع كأس ويسكي. تجاوزته ببضع خطوات، ثم استدرت وجلست إلى طاولة غير بعيدة عنه تمكّنني من مراقبته. إمّا أنه لم يرني، أو لم يخطر له احتمال مصادفتي. لا بد وأن فتاته الصغيرة قد أخبرته عن زيارتها لي ومكاسبها السعيدة-

وأفترض أنه ممتنٌ لي، لكنني أظنه أيضًا قلقًا من اطّلاعي على السّر. جلس ساكنًا يدخّن سيجارة رفيعة وطويلة.

عبر إلى جوارنا صبيّ يبيع الجرائد، فابتعت منه صحيفة أفتونبلادت، وذلك للتمويه. ثم رحت أتابع ريكّه متلصّصًا عليه من أطراف الصفحات. وخطرت إلى ذهني الفكرة نفسها التي راودتني عندما رأيته أوّل مرة قبل سنوات بعيدة: لماذا يحمل هذا الرّجل الوجهَ الذي من المفترض أن أحمله أنا؟ هكذا كنت لأبدو لو أنني أعدتُ خلق نفسي. أنا الذي عانيت في تلك الأيام من عذابات مبرّحة جراء شعوري بالقبح الصارخ المؤذي للعين كهيئة الشيطان. لكن لم يعد هذا الأمر يهمني الآن كثيرًا.

لم أصادف رجالًا وسيمين مثله في حياتي، أعني بتلك الوفرة من الجاذبية. عينان رماديّتان باهتتان، مؤطرتان بما يضفي عليهما شرودًا وعمقًا. حاجبان مستقيمان تمامًا وقريبان من العين نزولًا، يمتدّان بعيدًا نحو الصّدغ. جبينٌ نيّرٌ رخاميّ البياض، وشعرٌ كثّ أسود. لكن وحده الفم في النصف الأدنى من الوجه ما يُباهي بجماله المُكتمل، فهو محاصر بملامح عليلة؛ أنف غير مستقيم، بشرة غامقة وكأن أحدًا قد وشَمها بالنار... باختصار: إنه يتمتع بكل الملامح التي تنقذه من الانزلاق إلى ذلك النوع من الوسامة الخلّابة المثاليّة التي لا

توقظ في النفس، غالبًا، سوى الشعور بالسخرية والاستخفاف.

كيف يبدو هذ الرجل من الداخل؟ لست أدري البتّة. أعتقد أن المرء يأخذ عنه انطباعًا بأنه شخص حاذق إذا نظر إلى حياته المهنيّة وحسب. أتذكّر رؤيته رفقة مدير قسم الإدارة التي يعمل فيها أكثر من رؤيته رفقة زملائه.

طرأت على بالي مئات التخمينات أثناء مراقبتي له وهو يجلس هناك دون حراك، نظرته مثبته على العدم؛ لا يلمس كأسه، وسيجارته تموت ببطء. نبشتْ ذاكرتي عن مئات الأحلام القديمة، وخيالات النزوات الجامحة -وكانت كلها حيّة تنبض- وكيف كنت لأحقّقها لو بادَلْت حياتي بحياته. لطالما قلت لنفسي: الرّغبة، من بين جميع الأحاسيس، هي الأشهى والألذ، ووحدها ما يدفع حياتنا البائسة هذه ويزحزحها عن ركودها؛ غير أن الركض خلف إرضائها وإشباعها ليس بالأمر الممتع كلّ المتعة؛ نستطيع الخلوص إلى هذه النتيجة من خلال ملاحظة سيرة حياة كل أولئك "القناصل" الخاصّين والعموميين الذين لا يحرمون أنفسهم شيئًا ممّا تعرضه "بلاد الرّغبات"، والذين لا أشعر نحوهم بوخز من الغيرة أو بدافع للحذو حذوهم. لكن عندما أواجه رجلًا مثل كلاس ريكّه، حينها يختلف الأمر، فأنا في أعمق أعماقي أشعر تجاهه بحسدٍ مرير. بالنسبة له فإن الرّغبة كمشكلة

قد وجدت حلّها منذ زمن بعيد، لكنها بالنسبة لي ما تزال عالقة، فقد سمّمت فتوّتي كلّها، وما تزال تزن كثيرًا على كاهلي في سنيّ نضجي هذه. صحيح أن المسألة انتهت بالنسبة له ولآخرين أيضًا، فقد رووا شبقهم بطريقة أو بأخرى، لكن ليست الاستجابة للرغبة، في حدّ ذاتها، هي ما تشعرني بالحسد، بل إنها تحققني بالقرف. هكذا، وإلا لكانت المعضلة قد حلّت نفسها معي أيضًا وانتهت. الحب أيضًا بالنسبة له هو حقٌّ طبيعي مثل الولادة؛ لم يتوقف قط محاولًا تخيير نفسه بين الجوع و"اللحم الفاسد". ويخيّل إليّ أنه لم يملك وقتًا للتفكير؛ لم يسمح للتفكير بأن يقطّر سمومه في نبيذ متعته. إنه سعيد. وأنا أحسده.

ارتعشت حالما فكّرت أيضًا بها: السيّدة هيلغا غرغوريوس. رأيت عينيها، عبر الشّفق، منكمشتين من السعادة. أجل، هذان الاثنان ينتميان لبعضهما، إنه انتخابٌ طبيعي! لماذا إذًا يجب عليها أن تُلحق عائلة هذا المخلوق الذي يُدعى زوجها باسمها طوال حياتها؟ هيلغا غرغوريوس! يا للسخافة.

بدأ الليل بالهبوط. غروبٌ قرمزيّ مُشعّ، يُنير واجهة القصر الملكيّ المقلّم بالسواد. يعبر الناس الرصيف وأصيخ السمع إلى نبرات أصواتهم؛ اللهجة المتشدّقة لأمريكيّين هزيلَين وفارعي الطول، والنغمات الأنفيّة الحادة لبعض التجّار اليهود البُدَناء، وهمهمات القناعة

والرضا المعتادة أيّام السّبت، المنبعثة من أناس عاديّين من الطبقة الوسطى. هناك من أومأ لي مُحيّيًا، فأومأت له بالمثل. وهناك من رفع نحوي قبّعته، فرفعت نحوه قبّعتي. وبعض المعارف جاءوا وجلسوا إلى طاولة قريبة مني- كانوا مارتن بريك وماركل، ورجل ثالث صادفته مرّة أو مرّتين، لكن لا يحضرني اسمه الآن، أو أنني لم أعرفه قط- إنه أجرد الرأس، ولم أقابله من قبل في مكان خارجيّ كهذا، ولهذا لم أميّزه للوهلة الأولى حتى رفع قبّعته ليسلّم علي. أومأ ريكّه نحو مارتن، محيّيًا، ثم انتظر قليلًا قبل أن يغادر. عبر قريبًا من طاولتي، وحيّاني من مكانه بكثير من التبجيل والاحترام. لقد عُمّدنا بالاسم المسيحيّ نفسه في كاتدرائية أوبسالا، لكن يبدو أنه نسي ذلك، وإلّا لاقترب مني وهو يسلّم عليّ.

ما إن صار ريكّه بعيدًا عن مرمى أسماعنا، حتى شرعت الرّفقة الجديدة في الحديث عنه. التفت الرجل الأصلع صوب ماركل يسأله: أنت تعرف إذًا ريكّه هذا؟ يقولون إنه فتىً ذو مستقبل واعد- طموح، أليس كذلك؟

أجابه ماركل: أجل، "طموح.." لو أقررت حقًّا بأنه طموح فسيكون ذلك عائدًا إلى ما يجمعنا من صداقة؛ لكن المرء المحايد سيضع الأمر في مكانه الصحيح بالقول إن الرجل يريد المضيّ في حياته. فالطموح أمرٌ شديد النّدرة. اعتدنا على إلباس المرء صفة الطموح إذا أراد أن

يكون وزيرًا في الدولة مثلًا. وزير دولة- وما ذاك بالله عليك؟ مدخول ضئيل مثل مداخيل بائعي الجُملة، وسُلطة بالكاد تملك القوّة لتوظيف بعض الأقارب، وقُدرة واهنة على فرض الأفكار وتطبيقها، لو كان هناك أيًا منها أصلًا. لا أقول إنني أمانع أن أتقلّد منصبًا وزاريًا، فهي بالطبع وظيفة أفضل من التي أشغلها حاليًا- مأخذي فقط هو أن هذا ليس طموحًا. ففي الأيام الخوالي، عندما كنت أنا نفسي طموحًا، رسمت خطّةً صغيرةً رهيبة لاحتلال الأرض وإعادة ترتيب أمور كثيرة فيها، وقرّرت: عندما يبلغ العالم في مثاليّته وصلاحه حدّ أن يصير في النهاية مملًّا، سأحشو جيوبي بالمال الذي تستطيع كفّاي القبض عليه، ثم سأختفي في مدينة عالميّة متحضّرة؛ جالسًا في ركن مقهى، محتسيًا شراب الشّيح، سكرانَ مستمتعًا بالعالم وهو يعود مرّة أخرى إلى الخراب والشرّ بعد أن مللت منه وتنازلت عن قيادته.. لكن، على أي حال، يعجبني كلاس ريكّه. إنه وسيم، ويمتلك قدرة نادرة على ترتيب أمور حياته بمتعة في "وادي الويلات" هذا.

هذا هو ماركل الذي أعرفه، أجل! هو هو، لم يتغيّر. يعمل هذه الأيام مراسلًا لإحدى الصحف، ويكتب مقالاته بمزاج ساخط، يُفترض لها أن تُقرأ بجديّة، وللحق فهي جديرة بذلك أحيانًا. ذقنه ليست بالحليقة دومًا، وشعره أشعث. هذا صحيح في الصباحات. لكنه

في المساءات رجل أنيق، يشعّ بحسّ دعابة رائعة، تشتعل رويدًا رويدًا مع أنوار الشارع. يجلس جواره بريك بعينيه الغائبتين، مرتديًا معطفًا واسعًا واقيًا من الأمطار وسط هذا الحرّ كلّه! إنه يتلفّع به كمن يشعر بالبرد.

التفت ماركل نحوي وسألني إن كنت أريد الانضمام إليهم، إلى دائرة الخمّيرين. شكرته واعتذرت منه قائلاً إنني على وشك المغادرة. وكذا كانت نواياي في الواقع رغم أنني لا أشعر بأيّ رغبة في العودة لمعتزلي في الغرفة، ولهذا أجّلت مغادرتي بعض الوقت. أطلت الجلوس منصتًا إلى موسيقى تنبعث من إحدى رياض الحديقة، تسبح بصفاء وعلوّ في سكون المدينة الغسقيّ، عابرًا بنظرتي نحو القصر الملكيّ الذي تنعكس نوافذه المحدّقة، العمياء، على مياه النهر- نهرٌ ليس له من اسمه نصيب! فهو يكاد الآن لا يجري، بل يستلقي زجاجيًا مثل برك الغابات. ثم رحت أنظر إلى نجمة زرقاء صغيرة ترتعش معلّقةً فوق روسنباد، مبنى الحكومة. ثم وهبت أذني من جديد إلى المحادثة الدائرة في الطاولة إلى جواري. كانوا يتحدثون عن الحب والنساء، والسؤال محلّ النقاش هو: ما هو الشرط الجوهري عند الرجل ليستمتع بنفسه إلى أقصاها مع امرأة؟

أجاب الرجل أجرد الرأس: أن تكون في السادسة عشرة من عمرها، سوداء الشعر، نحيفة، ودمها حار.

أمّا ماركل فأجاب بتعبير حالم: أن تكون لحيمة الأعضاء، سمينة.

لكن بريك قال: أريدها مهووسةً بي وحسب.

* * *

2 يوليو

لا، أصبح الأمر لا يطاق. في حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم وقفت السيّدة غرغوريوس في غرفتي مرة أخرى مبهوتة؛ تعلو وجهها الصُفرة، وعيناها تحدّقان فيّ على اتساعهما- سألتها ما الخطب، ما الذي حصل. هل حدث شيء؟

أجابت بصوت خفيض:

- لقد اغتصبني ليلة البارحة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

جلست على كرسيّ طاولتي، تلعب أصابعي بالقلم على ورقة ما، وكأنني أهمّ بكتابة وضفة طبيّة. جلسَت هي في زاوية أريكة المكتب. قلت مدمْدمًا وكأنني أحدّث نفسي: طفل مسكين. لم أجد ما أقوله غير ذلك.

قالت:

- أنا غاضبة لأنه سحقني هكذا، داسني ومرّغني.

جلسنا صامتين لوهلة، ثم بدأت هي بالكلام. لقد أيقظها في منتصف الليل. لم يكن قادرًا على النوم، فرَجاها وتوسّل إليها طويلًا. بكى. قال بأن نقاءه من كل الذنوب هو أمر على المحك الآن، ولا يعرف ما الذنوب المهُولة

التي من الممكن أن يقترفها لو أنها لم تسلم نفسها لرغباته. وواجبها هو أن تقوم بذلك. بل إن واجبها أوْلى من صحتها. سيساعدهم الله، وسيُنعم عليها بالصحة من جديد إذا أطاعت أوامره.

جلستُ مستلب الذّهن. ثم سألتها:

- هل هو مراءٍ، منافق؟

- لا أدري. لا، لا أظن ذلك. لكنه اعتاد على حشر الله في كل شأن يصبّ في مصلحته. ولطالما فعلوا ذلك، فأنا أعرف كثيرًا من الكهّان. أكرههم. لكنه ليس منافقًا؛ بل على العكس، آمَن أنّ الفطرة تدل على دينه وتُثبت بدهيًا أنّه على حق، ولهذا يضع من يرفضون تعاليمه في خانة الغشّاشين والمدلّسين، الخبثاء الذين يُخبرون الأكاذيب عن قصد ليجرّوا الناس إلى النار.

تابعَت الحديث بهدوء، مع رعشة رهيفة في صوتها. غير أن ما قالته فاجأني في الحقيقة. فلم أكن قبلها أعي بأنّه يُمكن لأيّ كائن أنثوي –على هذا القدر من الضآلة– أن يجهد نفسه بالتفكير! أو أنه يستطيع، بوضوح وكما هو ظاهر لي، أن يزن ويحلّل رجلًا مثل غرغوريوس، كما فعلت هي، حتى لو كانت تشعر حياله بعميق البغض والقرف. شعرتُ بذلك القرف، وذاك البغض، في كل رعدةٍ تخلّلت نُطقها للحروف؛ فهي أثناء مضيّها في الحكاية إلى آخرها، أصابَتني بالعدوى، فانتقل لي كلّ ما كان يعتمل في صدرها. أرادت أن تنهض، أن ترتدي

ثيابها لتبقى خارج المنزل طوال الليل، حتى يحلّ الصباح. لكن رجل الدّين أحكم قبضته عليها سريعًا، وكان قويًا، لم يدعها تفلت منه...

شعرت بنفسي ألتهب، ضربات قلبي تنبض في صدغَيّ، وسمعت في داخلي صوتًا بلغ من الوضوح والعلوّ أنني ظننته مسموعًا فارتعبت، كأنني أفكّر بصوت عالٍ؛ كان يصرف أسنانه ويقول: انتبه لنفسك أيها القسّ! لقد وعدتُ هذه المرأة الصغيرة، هذه الوردة الأنثى ذات الخصلات المنثالة، تلك التي هناك، وعدتها أنني سأحميها منك. خذ حذرك، فحياتك بين يدي. وقبل أن تنضج فيك رغبة الذهاب إلى ربّك، فإنني سأرسلك إليه قبل الأوان، وأقسم أنني سأفعل! فأنت لا تعرفني حقّ المعرفة، وضميري لا يشبه بأيّ حال من الأحوال ضميرك. أنا حاكم نفسي والآمر عليها، وأنتمي إلى فصيلة بشريّة لستَ على علم حتى بوجودها!

هل هي تجلس حقًّا هناك، منصتةً إلى أفكاري؟ عبرَتني رعدةٌ نفضَتني عندما طرق سمعي صوتها فجأة:

- أستطيع قتل ذاك الرجل!

فأجبتها بابتسامة باهتة:

- سيّدة غرغوريوس، عزيزتي، أعرف أن ما قلته هو مجرّد كلام، لكن عليك ألّا تعتادي على قوله هكذا بأيّ حال.

كان على رأس لساني أن أقول لها: عليك ألّا "تقولي"

نواياك على الأقل! لكنني قلت لها، تقريبًا خلال النَّفَس نفسه، محوّلًا مجرى الحديث على عجالة:

- أخبريني، كيف أقدمت على الزواج من السيّد غرغوريوس؟ هل مورس عليك ضغط من أبويك، أم كان إعجابًا شديدًا لم يتأكّد لك صدقه مع الوقت؟

ارتعشَت قليلًا، وكأن بردًا مفاجئًا انتابها. قالت:

- لا شيء من ذلك. لقد جرى الاقتران بشكل غريب لم يكُن لأحد فهمه أو التنبؤ به. طبعًا، ما كنت واقعة في حبّه، لم أختبر معه حتى ذاك القليل القليل من حبّ المراهقة؛ المؤقّت وسريع العطب. سأحاول أن أشرح لك الأمر، سأخبرك القصّة كاملة.

ارتاحت عميقًا في الأريكة، منحنية بعض الشيء مثل طفلة، ونظرتها المتأملة تجاوزتني نحو الفراغ المجرّد، ثم بدأت الحديث:

- ما أبهى طفولتي، وما أسعدني في شبابي المبكّر. عندما أستدعي تلك الفترة من حياتي يتخطّفني الظنّ أنها حكاية خياليّة لم تقع قط. أحبّني الجميع وأحببتهم. ثم وصلت إلى ذلك العمر الذي.. أنت تعرف. لكن في البداية لم يُحدث الأمر أيّ فرق. كنت ما أزال سعيدة كلّ السعادة، أجل، أسعد مما كنت من قبل، حتى قرعتُ أبواب العشرين. فتاة صبيّة، تشعر بجسدها ووخز رغباته، ممّا شكّل وقتها مصدرًا لسعادة صافية بريئة، لا أكثر؛ تغنّي الدماء في عروقي، وأغني لها- كنت دائمة

الدندنة أثناء قيامي بأعمال البيت، وحتى عندما أسير في الشارع، أهمهم النغمات بأنفاس خفيضة. وكنت طوال الوقت واقعة في حب أحد ما. فلقد ترعرعت في منزل متديّن؛ لكن لم أعتقد أن في القُبلة ذنبًا عظيمًا. وهكذا، عندما وقعت في عشق أحد الفتيان، أوّل مرّة، وقبّلني، لم أعترض. أعرف أن هناك أمرًا آخر كان عليّ التفكير به، لأدرك أن اقترافه إثم كبير ولا شك، لكنه كان مُظلمًا أمامي وبعيدًا جدًا، ولم أكن مستحثّة للذهاب نحوه. لا، أبدًا. بلغت سذاجتي حدّ جهلي أنني قد أستحثُّ أحدًا للذهاب إلى ذلك الاتجاه! ظننت أنه أمر تُسلم نفسك له عندما تتزوجّ لتنجب الأطفال، أي لا معنى له في ذاته على الإطلاق. لكن عندما بلغت العشرين، وقعت في غرام جارف مع ذاك الرّجل.

كان وسيمًا، وطيّبًا، وحسّاسًا- على الأقل هذا ما آمنث به وقتها، ولم أزل أشعر به كلّما فكّرت فيه. أجل، إنه كذلك- تزوّج لاحقًا من صديقة طفولتي، وقد جعل منها كائنًا طافحًا بالسعادة. حدث أوّل لقاء لنا في الصيف، خارج البلدة، عندما قبّلني أوّل مرة. وفي أحد الأيام أخذني عميقًا في الغابة. وهناك حاول إغوائي حتى اقترب من الظّفر مني. آه، لو أنّه فعل، لو أنني لم أهرب منه- كيف لكلّ شيء أن يكون مختلفًا الآن! لكان تزوّجني وتغيّرت حياتي، ربما، على الأقل لم يكن عليّ الزواج من الرجل الذي هو زوجي اليوم. ربما، لو ظفر

بي، لكنت أحظى الآن ببعض الأطفال ومنزل، منزل حقيقي، ولم أكن مدفوعة لألعب دور الزوجة الخائنة؛ لكن الخوف اجتاحني من العَيب والفضيحة. انزلقت مبتعدة من ذراعي الرّجل وهربت.. هربت طوال حياتي. وقث عصيب حلّ بعدها. لم أرغب في رؤيته مرة أخرى، لم أجرؤ على ذلك. أرسل لي الزهور، وكتب الرسائل تلو الرسائل متوسّلًا الغفران. لكنني ظننته شابًا نذلًا ووغدًا، ويستغلّني. لم أجب على رسائله، ورميت أزهاره من النافذة. لكنني كنت أفكر به طوال الوقت. والآن، ليست فقط تلك القُبَل التي تبادلناها ما أفكر به، فأنا أعرف الآن ما هو الإغواء، وما هي الرغبة. وعلى الرغم من أن شيئًا لم يحدث وقتها، فإنني شعرت بأن هناك ما تغيّر فيّ. تخيّلت أن الآخرين يقرؤون علامات التغيّر باديةً عليّ. لا يمكن لأحد أن يشعر بكمّ العذاب الذي انتابني. في الخريف، عندما انتهى الصيف وعُدنا من جديد إلى المدينة، خرجت في إحدى المساءات، أتمشى وحدي، مصحوبة بألوان الغسق. كانت الريح تصفر محتكّة بأركان المنازل، وقطرات من المطر تهطل متقطّعة هنا وهناك. انعطفت إلى الشارع الذي يعيش فيه، وعبرت أمام منزله. ثم توقفت عندما لاحظت ضوءً يشتعل من نافذة غرفته، ورأيت في ضوء القنديل رأسه منحنيًا على كتاب. جذبني مثل مغناطيس. وفكّرت كم سيبدو لطيفًا لو أنني كنت هناك، إلى جواره. تسلّلت بخفّة عبر

المدخل الأمامي، وكنت بالفعل قد قطعت نصف الطريق إليه عبر السلالم؛ لكنني استدرت عائدة، وابتعدت.

لو أنه بعث إليّ بأيّ رسالة خلال تلك الأيام، لأجبت عليها. لكنه تعب من الكتابة دون أن يصله أيّ جواب، وهكذا لم نلتق مجددًا إلا بعد سنوات عدّة، عندما تغيّر كل شيء.

لقد أخبرتك بالفعل، ألم أفعل؟ بأنني ترعرعت في بيت متديّن، والآن أنا غارقة في الدّين! تمرّنت في البداية كي أصير ممرّضة. لكني تخلّيت عن ذلك لأن صحّتي لم تسمح لي بالمضيّ قدمًا. ولهذا مكثت في البيت مجددًا، أقوم بأعماله شاعرةً برغبات وأحلام لطالما دعوت الله أن يخلّصني منها، شعرت بأحاسيس لم أستطع تحمّلها أكثر، وكان على حياتي أن تتغير. ثم جاء يوم أخبرني فيه والدي بأن السيّد غرغوريوس طلب يدي للزواج. صُعقت. فهو لم يتودّد إليّ قط، ولم يحاول أن يُشعرني بأيّ شيء على الإطلاق. كان مجرّد صديق قديم لعائلتي. تحبّه والدتي. أمّا والدي فأظن أنه ارتاب به بعض الشيء. ذهبت إلى غرفتي وأجهشت بالبكاء. فلطالما شعرت بأن هناك أمرًا مَقيتًا فيه لم أكن لأستوضحه. وأعتقد أن هذا، بالتحديد، ما جعلني أوافق عليه! لم يجبرني أحد. ولم يناقشني أحد في قراري. فقد آمنت بأن هذه هي إرادة الله. ألم يعلموني طوال حياتي أن مشيئة الله هي على الدوام نقيض رغباتنا؟

ألم أكن أستلقي طوال ليل البارحة مستيقظةً، باكيةً، راجيةً الله الحُريّة والسّلام؟ وفي اليوم التالي آمن بأنه استجاب لرجاءاتي، لكن بطريقته الخاصة! ظننت أنني رأيت مشيئته تلمع أمام عينيّ. خُيّل لي أنني، إلى جانب ذلك الرَجل، سأنسى أشواقي وستموت رغبتي إلى الأبد. ظننت أن الله بهذه الطريقة قد رتّب الأمور لتحدث. واعتقدتُ بأن الرجل لا بد وأن يكون طيّبًا زاهدًا، أليس بقسّيس؟

لكن الأمور جرت على عكس ما توقعت. لم يكن بمقدور الرجل أن يقتل أحلامي، فراح يدنّسها دون شعور. ولئن كنت أدين له بالشّكر على شيء، فذاك لأنه راح، بطيئًا وعلى مهله، يقتل إيماني. ولا أريد استعادته أبدًا. الإيمان- عندما أتأمّله الآن، أشعر أنه فكرة فاسدة، منحرفة. فكلّ ما يتوق المرء له، وكل ما يبعث في روحه السعادة، ولو كان مجرّد فكرة، يُعتبر خطيئة. رغبات الإنسان آثمة ما دام يحنّ إليها، ويسعى لها بيديه ورجليه؛ وما إن يزهد فيها حدّ القرف، ما إن يراها عذابًا يشبه في وقْعه سوطَ السياط، يبيت عدم التّوق إليها والسّعي لنيلها ذنبًا كبيرًا! أخبرني، دكتور گلاس، أليس هذا غريبًا، فاسدًا، أليس شاذًّا ما يدفعوننا للقيام به؟

أشعر بالحرارة تنبعث منها جرّاء حماسها في الحديث. أومأتُ لها بعينيّ، من فوق عدسات نظارتي:

- أجل، هذا غريب.

- وأخبرني.. هل تظنّ أن حبّي هذا خطيئة؟ الحبّ ليس سعادةً كلّه، بل يشوبه كثيرًا من القلق. لكن، رغم ذلك، هل تراه آثمًا؟ إذا كان إثمًا، فكل ما فيَ آثم. فلست أعرف شيئًا أحمله أثمن من حبّي أو أكبر منه. لكن يبدو أنك مصدوم مني، جالسةً أمامك هنا، أتحدّث.. ففي النهاية، لديّ شخص آخر يمكنني أن أحكي له هذا كلّه. غير أننا، عندما نلتقي، لا يسعنا الوقت كثيرًا في خلوتنا - فجأة جرى الدمَ في وجهها خجلًا- فلا نتبادل الأحاديث طويلًا عن الأمور التي تشغل بالي طوال الوقت.

جلست ساكنًا، صامتًا، مسندًا رأسي بيدي، أمعن النظر فيها بعينين نصف مغمضتين، وهي تغرق هناك في زاوية الأريكة، ورديّة الوجه، محاطة بشُقرة خصلاتها الكثيفة. تلك الخدود البِكر الحريريّة. فكّرت: لو أنها تحمل تلك المشاعر نحوي، لما كان هناك وقت للحديث أيضًا! وقررت: لو استرسلَت مرّة أخرى في الكلام، فسأسير نحوها وأطبق شفتيها بقبلة. لكنها ظلّت صامتة. كان الباب الذي يفتح على غرفة انتظار المرضى مغلقًا، والآن أسمع وقع خُطى مدبّرة المنزل هناك في الممرّ.

كسرتُ الصَمت قائلًا:

- لكن أخبريني، سيّدة غرغوريوس، ألم تفكري قط بأمر الطلاق؟ فأنت لا تربطك بزوجك حاجة ماليّة- ترك

والدك بعد موته ثروةً طائلة، وأنت طفلته الوحيدة، أمّا والدتك فهي تعيش في حال جيّدة، أليس كذلك؟

- أوه، دكتور گلاس، أنت لا تعرفه إذًا. طلاق وقسّيس! هذا مرفوض بشكل قاطع، مهما كان ومهما فعلت. كان دومًا مستعدًّا ليغفر لي طلبي الطلاق فورًا ما حييت، سيغفره سبعين مرّة، ويسعى لإعادتي إلى جادة الصواب، وفي سبيل ذلك سيقوم بكل ما يمكنك تخيّله.... حتى أنه سيرفع الصلوات من أجلي في الكنيسة. لا، لقد وُلدت لكي أداس وأسحق.

نهضت قائلًا:

- حسنًا، عزيزتي سيّدة غرغوريوس، كيف يمكنني مساعدتك الآن؟ لا أرى لك أيّ مخرج.

هزّت رأسها آسفة، ثم قالت:

- لا أدري. لا أستطيع التفكير أكثر. لكن أظنه سيزورك اليوم بشأن أمراض قلبه. قال لي ذلك بالأمس. هلّا تحدثت إليه مجددًا؟ مرّة أخرى وحسب، وبالطبع دون أن تلمّح له إلى أنني كنت هنا اليوم، وأفشيت لك بالأمر.

- حسنًا، سأرى.

ثم غادرت.

بعد مضيّ بعض الوقت على رحيلها، سحبت دوريّة طبيّة كي أقرأها لتشتيت أفكاري. لكن دون فائدة. إني أراها أمامي، تحكي قصة حياتها، وكيف حُشرت في مأزق لا تُحسد عليه ولا مخرج منه. خطأ مَن ما حدث؟

هل هو خطأ ذاك الرجل الذي حاول إغواءها في الغابة يومًا ما؟ يا إلهي، وما كان ليكون شغل الرجال بالنساء في هذه الحياة لو لم يكن إغواؤهن، سواءً في الغابة أو في فراش العرس، ومن ثم الوقوف إلى جانبهن في كل ما يحدث لاحقًا؟ وِزرُ من إذاً إنْ لم يحمله رجل الغابة، هل هو وِزرُ رجل الدّين؟ هو يشتهيها وحسب، كما يشتهي آلاف الرجال آلاف النساء في هذه الحياة، وهو - "فوق البيعة" كما يرطن العامّة من الناس- اشتهاها بشهامة، فتزوّجها. وهي دون علم منها ولا فهم، مدفوعةً بالأفكار المرتبكة المتضاربة التي كبُرت معها، قد وافقت عليه. لكنها عندما أسلمت نفسها لهذا المخلوق لم تكن مستيقظة، تزوّجته وهي نائمة. وفي الأحلام تحدث أكثر الأمور غرابة وإن بدت طبيعية وعاديّة. هذا في الأحلام. لكن عندما يصحو المرء ويتذكر حلمه، يُصعق، وإمّا ينفجر ضاحكًا أو يرتجف في ذعر. وهي للتوّ استيقظت واستعادت حلمها! أمّا والداها، اللذان كان يجب عليهما أن يعرفا ما هو الزواج قبل أن يوافقا، وربما طارا من الفرح والسعادة وقتها، هل كانا مستيقظين حقًا؟ هل شعر القسّ ولو بالقليل من عدم الارتياح جرّاء إجبارها على الجنس بكلِّ رعونة ووضاعة؟

لم ينتبني إحساس بهذه القوة من قبل: إن الأخلاق حيلة وحسب، لعبة لفٍّ ودوران. بالطبع آمنت بذلك منذ

زمن؛ لكنني ظننت بأن الدورة الكاشفة لزيف الأخلاق تأخذ قرونًا ودهورًا، أمّا الآن فهي تأخذ أمامي دقائق ولحظات. غشاوة أمام عينيّ وانمحت. أمّا دواخلي، حيث مقودي الذي يوجهني في خضم رقصة الساحرات هذه، انبثق صوت هامس مرة أخرى يصرف أسنانه متمتمًا: خذ حذرك من ذاك القسّ!

* * *

كانت مُحقّة. جاء في ساعة الاستشارات المفتوحة. شعرت بغبطة سريّة عندما فتحت باب المكتب ورأيته يجلس في غرفة الانتظار. لم يكن هناك سوى مريض واحد أمامه: امرأة مسنّة تريد تجديد وصفتها الطبيّة- ثم يأتي دوره. فاردًا ذيل معطفه، غاص بثقة كاملة في ركن الأريكة نفسه الذي احتضن زوجته محنيّة الظهر قبل ساعات قلائل.

وكالعادة، شرع في الحديث الفارغ، هراء في هراء. يظن أنه يمتعني عندما يتساءل صحيًا عن سلامة مشاركة النّاس الخبزَ والخمرَ في الاحتفال الكنسيّ. أمّا اضطرابات قلبه فقد أتى على ذكرها بشكل عابر، مقتضب، حتى شعرت بأنه جاء لزيارتي حقًّا ليسمع رأيي كطبيب فيما يتعلّق بالسؤال التالي (وهو ما تطرحه الجرائد كلها الآن هربًا من الرتابة التي أحاطت بخبر رؤية وحش البحيرة العظمى[8]): هل طقس المناولة[9] في الكنيسة ينطوي على خطر صحّي يهدّد

المؤمنين؟ لم أتابع النقاش العام الحاصل حول الموضوع، وإن كنت قد اطّلعت في بعض الجرائد على مقالات لم أكمل قراءتها. ولأنني لست محيطًا بالنقاش ومدى الجديّة التي بلغها، كان على القسّ أن يحيطني علمًا بتفاصيل التفاصيل. كيف نستطيع أن نمنع عدوى الأمراض عند اصطفاف المؤمنين حول طاولة التناول؟ هذا هو السؤال الرئيس. كان القسّ شديد الأسف لإثارة مثل هذه الأسئلة صحفيًا. أمّا وقد أصبح محطّ لغط وأخذ وردّ، فلا بدّ من الإجابة عليه بحرص ودقّة. هناك عدّة حلول يمكن تصوّرها؛ أبسطها هو أن على كل كنيسة توفير عدد من الأكواب الصغيرة التي يقوم حامل الصّولجان بغسلها على المذبح بعد انتهاء كل مجموعة من متلقّي البركات من طقس التناول، لكنه حلّ باهظ الثمن، فمن المُحال على أبرشيّات[10] الدول الفقيرة توفير عدد كافٍ من أكواب الفضّة تلك.

من دون كثير اهتمام، علّقتُ بأنه في وقتنا هذا، عندما نرى أن الحماس الدينيَ يتعاظم بثبات، وكؤوس الفضّة تُشترى في كل تتويج حتى لفائزي مسابقات الدرّاجات، فإن توفير أكواب فضة مشابهة ليس أمرًا يستحيل على الناس، وخاصّة إن كان لأسباب دينيّة. لكن لا أذكر أنني سمعت كلمةً واحدة طوال حياتي عن وجوب أن تكون الأكواب مصبوبة من الفضّة في طقس التناول. هذا الانطباع الأخير تركته لنفسي ولم أفه به- فاسترسل

القسّ قائلًا إنّه تم اقتراح أن يأتي كل مؤمن بكأسه الخاصّة، أكانت فضيّة أو زجاجيّة، لكن الخشية تكمن في أن يأتي الثريّ بكوب فضّة مزخرفة منمّقة، ويأتي الفقير بقدح زجاجيّة مخصّصة لشرب الكونياك!

بالنسبة لي سيكون ذلك مشهدًا تصويريًا رائعًا! لكنني احتفظت بهذا الانطباع أيضًا لنفسي ولم أفه به، تركته يتابع حديثه- هناك قسّ يؤمن بالتطوير والأفكار الحديثة، اقترح بأن دم المسيح يمكن ابتلاعه عن طريق الكبسولات- في البداية تساءلت بيني وبين نفسي إن كنت سمعته بشكل صحيح؟ فكرّرت: في كبسولات مثل زيت الخروع؟- أجل تمامًا، في كبسولات. أخيرًا ابتكر أحد القساوسة كأس مناولة من مادّة جديدة كليًا، حتى أنه مُنح براءة اختراعها وأنشأ شركة محدودة لإنتاجها! استفاض رجل الدّين في شرحه عن المادّة، وبدا لي أنّ هذا الابتكار الجديد سوف يُمرّر على أذهان الناس البسطاء، بشكل أو بآخر، عبر نفس الخطوط العريضة التي تُمرَّر بها جدوى أقداح المشعوذين وقناني الدجّالين. لكن القسّ المبجّل غرغوريوس ينتمي إلى المدرسة القديمة، ولا يحمل استقلالية في التفكير، وقال إن مثل هذه الابتكارات لا تملؤه سوى بالقلق والهواجس. وهذا ما تفعله أيضًا الجراثيم التي قد يتناقلها المؤمنون. لذا ما العمل؟

وما إن سمعته ينطق بهذه الكلمة، حتى اشتعل ذهني

بفكرة. ميّزت فورًا نبرة صوته. مرّة سمعته يتحدث عن الجراثيم، والآن اتضح لي إنه يعاني من مرض يُدعى رهاب البكتيريا. فهو يرى أن الجراثيم انبثقت من منطقة غامضة وبعيدة عن الدّين، لكن قريبة من نشاطاتنا الاجتماعيّة اليوميّة وناتجة عنها. فالجراثيم مخلوقات جديدة في الكون كما يعتقد، أمّا دينه فقديم، يعود إلى ألفٍ وتسعمائة عام إلى الوراء. لم تبدأ عاداتنا اليوميّة الحاليّة إلا في مطلع القرن التاسع عشر، منبثقة من الفلسفة الألمانيّة وناتجة عن سقوط نابليون. غير أن الجراثيم، وقد هاجمته أشدّ الهجوم، قامت بزعزعته تمامًا وهو المتديّن النقيّ، ووفقًا لرؤيته للأمور واعتقاده، فإنها راحت، خلال هذه السنوات الأخيرة من عمر البشريّة، تنشط بعنف وضراوة. بالطبع، لم يخطر له على الإطلاق بأن كتلًا هائلة من الجراثيم كانت هناك في الآنية الخزفيّة التي أدارها المسيح على حواريّيه حول طاولة العشاء الأخير في بستان جتسيماني[11].

لا يمكنني الجزم ما إذا كان هذا الرجل غبيًا أم مكّارًا.

أدرت له ظهري وتركته يتحدث. رتّبت بعض الأدوات في الخزانة. طلبت منه كالمعتاد أن ينزع المعطف والصدريّة؛ وبالنسبة لموضوع طقس التناول، ومن دون كبير ضجة، أيّدت طريقة الكبسولة.

قلت له:

- أعترف بأن فكرة الكبسولة تبدو بغيضة في الوهلة

الأولى، بغيضة حتى بالنسبة لي، أنا الذي لا أدعي التقوى. لكن إمعان التفكير فيها يزيح كل الاعتراضات. إن جوهر التناول لا يكمن في الخبز والخمر، ولا حتى في الموائد الكنسيّة، بل يكمن ولا شك في الإيمان. والإيمان الحقيقي لا يتأثر بالأمور الشكليّة مثل الأكواب وحبوب الجيلاتين.

مع هذه الكلمات كنت أضع السماعات على صدره، وسألته أن يهدأ للحظة، ثم رحت أنصت. لا أمر يدعو للقلق ممّا سمعته. فقط عدم انتظام طفيف في النبض يصيب المسنين الذين اعتادوا على إكثار الأكل في العشاء ثم الانقلاب فورًا على الأريكة والنوم. قد يؤدي ذلك يومًا إلى السكتة الدماغية. لا أحد يستطيع تأكيد هذا بالفعل، لكن أيضًا لا شيء ينكره. في المحصلة، هذا الرجل غير معرّض الآن لأيّ تهديد جدّي.

لكني عقدت العزم. هذه استشارة لا بدّ وأن تنتج عن كَشْفٍ خطير جدًا. فأطلت الاستماع إلى نبضه أكثر مَما ينبغي. حرّكت السماعة، نقرتها، أصخت السمع مجددًا. لاحظت كيف يعذّبه أن يجلس صامتًا ساكنًا دون حراك- لقد اعتاد على الحديث المتواصل في الكنيسة ورفقة الأصحاب والمنزل. وهذه حقًّا ملكَةٌ فذّة؛ لا بدّ وأن هذه الموهبة هي ما دعته ليكون قسًا. فخصِي له قد أخافه- ربما كان يفضّل أن يستأنف الحديث عن كبسولات التناول لبعض الوقت، ثم بنظرةٍ مفاجئة إلى ساعته

يهبُّ صوب الباب خارجًا من العيادة. لكنني الآن أحبسه في الأريكة. لا أدعه يهرب. وبصمت أنصت لنبضه. وكلّما أطلت الاستماع ازداد قلبه ضيقًا وانزعاجًا.

سألني في آخر المطاف:

- هل الأمر جسيم؟

لم أجبه فورًا. ذرعت الغرفة لعدّة خطوات، فهناك خطّة تختمر في رأسي. وعلى الرغم من كونها سهلة وبسيطة، فإنها بالنسبة لشخص مثلي غير متمرّس على المكائد والدسائس بدت صعبة، فتردّدت. ولو بانت عليّ علامات التردّد فلن تكون مشكلة عويصة، فخطتي تستند بأكملها على غبائه وجهالته- لكن هل كان غبيًا بما يكفي؟ هل أجرؤ؟ أم أن الخطة غير ناضجة؟ هل استطاع أن يكشفني؟

قطعت تردّدي. ولبضع ثوان، وبنظرة الطبيب الحادَة، الكاشفة، حدجتُ ذلك الوجه الأبيض الرماديَ، المنتفخ، الغاطس في بلاهة طيّات الدهون المتراكمة. لكن استعصت عليّ قراءة عينيه. فنظّارته تعكس صورةَ نافذة الغرفة وستائرها وأصيص نبتة اللبخ. قرَرت أن أشدّ بأسي. إنه واحد من اثنين- إمَا نعجة أو ثعلب، وحتى لو كان ثعلبًا فإن الثعلب نفسه أكثر غباءً من الإنسان العاديّ، لذا لا خوف منه ولا خطر، ولا ضير من لعب ألعاب الدجّالين معه لبعض الوقت- إنه يحبّ حيَلهم، وهذا بادٍ على وجهه: إن ذهابي وإيابي عبر

الغرفة، وصمتي المتطاول بعد تساؤله "هل الأمر خطير؟" قد أذهله، أوهنه ولطّفه. دمدمت أخيرًا وكأنني أحدّث نفسي:

- غريب.

ومرّة أخرى فحصته بالسّماعات:

- أعذرني، لا بدّ لي من الاستماع إلى نبضك لوقت أطول. عليّ التأكد من عدم ارتكابي خطأ ما.

ثم قلت بتنهيدة طويلة في البداية:

- حسنًا. استنادًا إلى ما سمعته اليوم، فإن القلب الذي تحمله ليس بتلك القوّة أيها القسّ. لكني أعتقد بأنه ليس بهذا السوء في أوضاع الحياة العاديّة الهادئة. أظن أن له أسبابه الخاصّة لكي يضطرب الاضطراب الذي يعانيه اليوم!

حاول على عجالة أن يعيد تشكيل وجهه ليرسم ملامح الاستفهام، لكن دون أن ينجح. رأيت فورًا أن طويّته المُذنبة قد فَهِمتني، في حين أن شفتيه كانتا على وشك سؤالي عن قصدي. لم يستطع أن يشكّل ردّة فعل متناسقة إزاء الموقف، ولذا لم يصدر عنه شيء عدا السّعال. بالطبع لم يكن راغبًا في توضيح أي شيء- لكنني لم أكن لأدعه ينجح في التملّص.

ابتدرته بالقول:

- لنكن صريحين مع بعضنا سيّد غرغوريوس.

بهذه الافتتاحية قفز القسّ من مكانه فزعًا. لكنني

تابعت:

- أنت بالتأكيد لم تنس المحادثة التي جرت بيننا قبل عدّة أسابيع بخصوص صحّة زوجتك الواهنة. لا أنوي توجيه استفهامات لك حول التزامك بالاتفاق الذي توصّلنا إليه. سأقول لك فقط، أيها القسّ، إنني لو كنت عرفت حالة قلبك وقتها، لزادت الأسباب التي بسببها سمحت لنفسي بتقديم تلك النصيحة إيّاها. أمّا بالنسبة لزوجتك، فالأمر يتعلّق بصحتها العامة وشفائها من قريب أو بعيد. لكن بالنسبة لك، فالأمر يتعلّق بخسرانك حياتك في أيّ وقت وبسهولة.

بدا فزعًا أشدّ الفزع أثناء توجيهي الكلام إليه- ألوان عديدة تزحف إلى وجهه، لكن لا شيء منها أحمر، فقط تدرّجات الأخضر والبنفسجي. كان عليّ أن أشيح وجهي عنه، فقد أضحى في منتهى القبح. سِرت إلى النافذة المفتوحة لأستزيد من الهواء المنعش، لكن الهواء في الخارج كان مرهقًا وثقيلًا أكثر منه هنا.

فتابعت:

- وصفَتي لك سهلة وبسيطة، يمكنك قراءتها هكذا "سريران منفصلان". أذكر امتعاضك من ذلك واعتراضك عليه، لكن لا يمكن فعل شيء آخر حيال هذا الأمر. ذلك لأن النشوة القصوى ليست وحدها ما تهدّد بحَفر قبرك، بل عليك تجنّب كل ما يبلّل ريقك ويضرم شبقك- أجل، أجل.. أعرف ما ستقوله! ستقول إنّك رجل عجوز،

ورجل دين من رأسك حتى أخمص قدميك؛ لكن في النهاية أنا الطبيب لا أنت، ولي الحق في مصارحة مرضاي بما يشغلني. ولست أعتقد بأنني أتخطّى حدودي عندما أتّبع المنطق وأقول إن الحضور المستمر لامرأة شابّة، وخاصة في الليل، وقُربها، له التأثير نفسه على رجل الدين وعلى الرجل العادي الفاني. لقد حصّلت تعليمي في أوبسالا، وعرفت دارسين في اللاهوت هناك. لم آخذ انطباعًا بأن الدراسات اللاهوتيّة هي أنفع للدّارسين من فروع العلم الأخرى، وكأنها ضمانة ضد النار للأجساد الغضّة المعرّضة للسوء. ولنتحدث عن التقدّم في العمر. حسنًا، كم عمرك أيها السيّد؟- سبعة وخمسون عامًا؟ إنها مرحلة حرجة، تبلغ الشهوة من العنفوان في عمرك هذا ما كانت تبلغه طوال سنيّك الماضية- لكن ركْض جسدك وراءها وإرواءها بات يجهده، فينتقم من نفسه! صحيح أن زوايا النظر إلى الحياة وتقويمها كثيرة؛ فلو لم تكن قسًا، أي لو كنت مثلًا رجلًا طاعنًا في التهتّك والدّعر، فإنني أتوقّع سماع جواب منطقيٍّ آتٍ من زاوية نظرك ومن خلال سنّك وتجربتك. مثلًا، لا منطق في هجر الأمر الوحيد الذي يمنح الحياة قيمتها لمجرّد المحافظة على الحياة نفسها! ليذهب كل شيء إلى العدم! لكن هذا السبب غريب تمامًا عن عالم أفكارك ومنطقه الدينيَ، لا يمكن أن يصدر منك، ولذا لن أجادل فيه. واجبي كطبيب الآن هو

تحذيرك وتوعيتك- هذا كل ما بيدي فعله. وأنا واثق بأنك بعد أن رأيت ما رأيت وعرفت ما عرفت عن خطورة الوضع وجديّته، ستقوم بالأمر الصحيح. يصعب عليَ تصديق أنك تريد أن تسقط صريع الموت المفاجئ مثل المأسوف عليه الملك فريدريك الأوّل، أو مؤخرًا مثل فيليكس فور.

تجنّبت النظر إليه أثناء حديثي. لكن عندما وضعت نهايةً لمرافعتي، عبرَت عيني عليه، فرأيته يضع كفّيه على عينيه، بينما شفتاه تتمتمان بسرعة. وخمّنت أكثر ممّا سمعت أنه يقرأ: أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك.. ولا تُدخلنا في التجربة، لكن نجّنا من الشّرير.

جلست إلى مكتبي، ومددت له ذراعي بوصفة طبيّة لا ضير منها، قائلًا:

- ثم إن الجلوس في المدينة طوال هذا الصّيف الشّديد القيظ ليس صحيًا لك أيضًا. اذهب لزيارة المياه، ستهبك المياه عالمًا من الرّاحة. زُر الحمّامات في بورلا أو رونيبي. لكن في هذه الحالة يجب ان تسافر وحدك بالطبع.

* * *

---

(6) مارتن لوثر (1483-1546) هو قسيس ألماني ومُطلق عصر الإصلاح الديني في أوروبا. من بين آرائه هو أنّ لكل امرئ الحق في تفسير الكتاب

المقدس، وأنه يمكن للقسّ الزواج. م.

(7). الجراند هو أوتيل من فئة الخمسة نجوم في ستوكهولم. أنشأه تاجر فرنسيّ يدعى جون فرانسيس ريجس عام 1872. أفتتح عام 1874 في الوقت نفسه الذي افتتح فيه جراند أوتيل آخر في أوسلو؛ كل العواصم الاسكندنافية تحوي "جراند أوتيل" خاص بها. يقع الجراند أوتيل في ستوكهولم بمحاذاة المتحف الوطني ومقابل القصر الملكي. يختلف إليه منذ 1901 الفائزون بجوائز نوبل للآداب وعائلاتهم وضيوفهم حتى أصبح ذلك تقليدًا اتّبعه كثير من مشاهير العالم وقاداته. م.

(8). وحش البحيرة العظمى هو وحش يعيش في بحيرة ستورخسن الواقعة في السويد والتي يبلغ عمقها تسعين مترًا. وذُكر الوحش أوّل مرة في 1635. ويوصف بأنه من الزواحف المائيّة، ذو زعانف تمتد عبر ظهره البالغ طوله تسعة أمتار، ورأس صغير يشبه رأس الكلب. تروي بعض الروايات أن ظهره يحمل أكثر من سنام. وهو ينتمي إلى "وحوش البحيرات" وهي مجموعة متنوعة من الحيوانات الضخمة التي تعيش في المياه العذبة، وقد زعم وجودها شهود عيان، وهي مجرّد شائعات، ولها ذِكر أيضًا في بعض الأساطير وقصص الفولكلور، لكن لا دليل ماديّ لوجودها

على الإطلاق. م.

(9) سر الأفخارستيا أو سر التناول، أو القربان المقدّس، هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، أو أحد السرّين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية. وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه. ويُحتفل بها في جماعة المؤمنين لأنها التعبير المرئي للكنيسة. الاحتفال يكون بصيغة تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز التي تمثّل جسد يسوع، وأحياناً تذوّق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثّل دم يسوع. م.

(10) الأبرشيّة: المكاتب الإدارية الملحقة بالكنيسة والتي تهتم بشؤونها وشؤون الرعيّة. م.

(11) جثسيماني هو بستان في "جبل الزيتون" في مدينة القدس، يُعرف بأنه المكان الذي صلّى فيه يسوع في الليلة السابقة للصّلب وفقاً للعقيدة المسيحية. م.

5 يوليو

يوم أحد صيفيّ. ترتفع حرارة الأشياء والناس عند اقتراب بعضهم من بعض بشكل مهول، ويسعى بينهم الغبار. وحدهم أفقر الفقراء وأشدهم عوزًا من يخرجون للسّير في أجواء مماثلة. ومرآهم هكذا، يا الله، غير لطيف البتّة.

خرجت في حوالي الرابعة عصرًا. صعدت سفينة بخاريّة وفي نيّتي أن أقطع النهر لأتناول العشاء في مطعم يورغاردسبرن. مدبّرة منزلي ذهبت لحضور جنازة. ثم ستمضي الوقت بعدها في شرب القهوة في الهواء الطلق. فالمتوفى ليس قريبًا لها ولا تجمعها به صداقة، لكن الجنازات بالنسبة لهذه الطبقة من النساء تُعتبر مناسَبة من المبهج المشاركة فيها، ولم يطاوعني قلبي على رفض استئذانها للخروج رغم أن غيابها يعني أن عليّ أنا أيضًا تناوُل طعامي اليوم في الهواء الطلق. وفي الحقيقة، دعاني بعض الأصحاب إلى منزلهم القائم على الأرخبيل(12)، لكن لم تطاوعني نفسي على الذهاب. لا تجذبني الصحبة ولا منازل الأرخبيلات المحاطة بالمياه. ولأقُل إنني لا أحب الإطلالة الأرخبيليّة؛ أرض مقطّعة الأوصال، مشهد مبتسر. بقع متناثرة من اليابسة، بينها بعض المعابر المائيّة، وبعض الصخور الناتئة، وأشجار صغيرة تعِسة. منظر طبيعي بائس ومتقشّف؛ ألوانه باردة يغلب عليها الشحوب والازرقاق، لا تملك العظمة التي تظهر بها أحيانًا الأراضي

البعيدة المنعزلة. عندما يتناهى إلى سمعي مديح الناس للأرخبيلات وجمالها الطبيعي ينتابني شكٌ من دوران أمور أخرى في رؤوسهم لم يصرّحوا بها؛ وعندما تتبَعت الأمر وتفحَصته، تأكّد لي شكّي. كان أحدهم يتخيّل الهواء النظيف والاستحمام البارد، وآخر يتخيّل قاربَه المبحر، وآخر يصيد السَمك، ويندرج ذاك كله بالنسبة لهم تحت عنوان الجمال الطبيعي. أزجيت الوقت في أحد الأيام مع فتاة صغيرة تعشق الأرخبيلات، وتبادلنا الأحاديث، وعندما طال كلامها عن الأرخبيلات عرفت أنها في الحقيقة تعشق مشاهد الغروب؛ وأنها وقعت في حب أحد الطلاب هناك منذ زمن. نسيَت الفتاة أن الشمس تغرب كل يوم وفي كل مكان، وأن الطلاب متقلّبو المزاج! لا أدّعي بأنني متبلّد المشاعر تجاه الطبيعة وسحرها، لكن لأجل هذا السَحر عليّ أن أطوي الأرض إلى أبعد، إلى بحيرة فاترن مثلًا، أو إلى سكانيا وشساعة بحرها. لكن وقتي ضيّق، ولم أجد من الأمكنة حول ستوكهولم بعشرين ميلًا أو ثلاثين ما يمكنني مقارنته بستوكهولم نفسها- بجزيرة يورغاردن المكتظة، أو منتزه هاغا، أو الرصيف المحاذي للنهر خارج الجراند أوتيل. ولهذا أقبع في مكاني هنا صيفًا وشتاءً. أقوم بهذا عن قصد ووعي، مرتديًا مسوح الإنسان المنعزل ورغبته الدائمة في رؤية أناس من حوله رغم انعزاله، أناس لا يعرفهم، غرباء وليس عليه أن يبادلهم الحديث.

حسنًا، وصلت إلى المطعم وجلست فورًا إلى طاولة

بمحاذاة الحائط المزجّج في آخر الرواق الطويل. هرع النادل نحوي بقائمة الأطباق، وبهدوء فرد منديلًا أبيض فوق بقايا صلصة اللحم والخردل التي خلّفها من سبقني. وبعد لحظة، مادًّا نحوي قائمة قناني النبيذ، ابتدرني سريعًا بالسؤال: نبيذ الشابليني؟ ما هذه الذاكرة التي تحوي أعماقًا من المعرفة التي لا تقلّ عمّا تحتفظ به ذاكرة أي أستاذ! ما هذا الطراز النادر من متذوّقي النبيذ؟ فهو مُحقّ، لم أخرج يومًا لتناول الطعام إلا واحتسيت هذا النوع من النبيذ دون غيره. مَن هو هذا النادل الخبير الذي يعرف زبائنه حق المعرفة؟ لا بدّ وأنه قضى سنوات شبابه الأولى موازنًا صحائف مشروبات الكوكتيل الكحوليّة في حانة أوتيل بيرنز، ثم مع تقدّمه في السّن، آخذًا في النضج، صار يلبّي واجبات أكبر في صالات الطعام التابعة لمطعم رايدبيري ثم هامبرغر بورسه. ومن يدري عن المحطّات العابرة التي دفعته إليها أيادي الأقدار حتى جعلته هكذا- خفيف شعر الرأس ويرتدي لباسًا مهترئًا بعض الشيء- ثم جلبته الأقدار إيّاها إلى هذا المكان الشديد التواضع ليطوّع خبرته فيه. لقد أهدته السنوات طبيعة أن يتواجد في أي مكان تفوح منه رائحة الطعام وتصطف فيه القناني منتظرة نزع سداداتها. أبهجتني رؤيته، وتبادلنا نظرة سريّة تشي بتفهّم عميق.

عبرت بنظري على من حولي من زبائن. إلى الطاولة جواري جلس شابٌ لطيف اعتدت على ابتياع سجائري

منه. أذكر أنه كان يعالج على حسابه صديقةً له تعمل مساعدةً إداريَة، صغيرة ولذيذة، ذات عينين حادّتين كعيني الجرذ. ثم هناك، بعد طاولته، ممثِّل يجلس مع زوجته وأطفاله، وبرصانة يمرّر منديلًا على فمه. وفي الركن هناك، رجلٌ غريب أطوار يجلس وحده، لا بدّ وأنني رأيته في شارع أو مقهى خلال العشرين سنة المنصرمة. إنه يتقاسم عشاءه مع كلبه المسنّ الذي راح فروه يبهت ويتلوّن بالرماديّ.

جاء كأس الشابليني فجلست مستمتعًا بخيوط الشمس[13]. وهي تلعب في نبيذي الأبيض الصافي حتى سمعت، قريبًا مني، صوتَ امرأة أميّزه. رفعت رأسي، فرأيت عائلة تدخل للتوّ. زوج وزوجة وصَغير في الرابعة من عمره أو الخامسة؛ كان صبيًا لطيفًا لولا البلوزة السيئة التي جعلوه يرتديها، ذات اللون الأزرق المخمليّ الشّاحب، والياقة المخرّمة المنخفضة. إنها الزوجة من كانت تتحدث، وهي من تناهى إليّ صوتها المألوف. - حسنًا اجلس هناك- لا، ليس هنا- الكرسيّ هناك تحت الشمس، لا- لا، لن نطلّ على المشهد كاملًا من هناك- أين رئيس الندل؟

الآن عرفتها. إنها تلك الفتاة التي جاءت يومًا ما إلى مكتبي وراحت تنشج باكية وتتعفّر على أرض الغرفة، راجيةً مني مساعدتها بكل ما أوتيت من سبل المساعدة- أن أحرّرها من الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها. وقد تزوّجت لاحقًا من الأهبل الذي كانت ترغب به- ثم

أنجبت طفلها. حدثت ولادتها في وقت مبكّر بعض الشيء بالنسبة لتاريخ زواجها، لكن مضى من الوقت الآن على ذلك ما جعله غير مستغرب أو محطّ تفكير. وإذًا، ها هو دليل الجريمة في بلوزة مخمليّة وياقة مسطّحة. والآن، يا عزيزتي، ما تقولين الآن؟ ألم أكن محقًّا؟ لقد عبرت الكارثة؛ لكن طفلك الصغير بقي معك، وها أنت مفتونة به...

إنما لست متأكدًا من أن هذا الطفل هو نفسه ذاك الجنين حقًّا. لا، غير معقول. الصبيّ الواقف أمامي في الرابعة من عمره، أو الخامسة على أعلى تقدير، وقد مرّ على قصّتها القديمة تلك سبع سنوات أو ثمان. أذكر زمن حدوثها لأنه وافق بداية ممارستي مهنتي. ما الذي حدث للطفل الأوّل؟ لا بدّ وأنه أخفق في محاولة الخروج إلى الدنيا بشكلٍ ما. حسنًا، ذلك غير مهم الآن- يبدو أنهم أصلحوا فيما بعد أيّ ضرر أصاب الفتاة.

على أي حال، لست أحمل أدنى اهتمام بهذه العائلة وماضيها ومصيرها. وعندما دقّقت النظر رأيت أن المرأة ما تزال يافعة وجميلة، لكنها اكتسبت وزنًا ثقيلًا ما جعل جسدها يُزهر كيفما أراد. يخيّل إليّ أنها تقضي صباحاتها في مخابز الكعك، وتشرب الجُعَة لتغسل فمها من طعم ما التهمته من فطائر حُلوة، ومن حولها صديقاتها يتناقلن الشائعات. أمّا ربّ منزلها فهو دون جوان، تاجر يبيع بالجملة. من خلال مظهره وأسلوبه أستطيع القول بأنه لم يبرح خوّاناً كالدّيك. إضافة إلى

ذلك، اكتسبا معًا عادة استباق النادل بالتوبيخ، لظنّهما أنه سوف يلهو عنهما فيُهمل خدمتهما: هذه العادة تصيبني بالمرض. مَن كان هذا طبعه فهو بالتأكيد حُثالة. شربتُ انطباعاتي المختلطة بجرعة غزيرة من نبيذي الحامض الخفيف، وأرسلت ناظري إلى الخارج، عبر النوافذ الزجاجية الضخمة ذات المزاليج. هناك، ينبسط المشهد الغنيّ دافئًا وادعًا في شمس المساء. أطراف قناة الماء تعكس الاخضرار المزدهر من حولها، وقلب القناة مرآةٌ لزرقة السماء. بهدوء وتمعّن، رأيت زورقين يجدّفهما رجلان يلبسان سترات زرقاء مقلّمة، انزلقا تحت الجسر واختفيا؛ وسائقي درّاجات هوائيّة عبروا الجسر وانتشروا في الطرقات؛ وعلى العشب، تحت الأشجار الكثيفة، يجلس الناس في مجموعات، مستمتعين بالظلال واليوم الجميل. أمّا هنا، فقد حطّت فراشتان صفراوتان على طاولتي.

في جلوسي ذاك، مُغرقًا عينيّ في الاخضرار الصيفيّ المنبثق من كل مكان، تبخّرت أفكاري وتخيّلت نفسي في أوضاع لطالما تسلّيت بها. وفّرت من المال حتى الآن حوالي العشرة آلاف كرونة(14)، أو أكثر قليلًا، وهي في مأمن. وخلال خمس سنوات أو ست، سأكون قد جمعت من المال ما يكفي لبناء منزل خاص بي في منطقة الأرياف. لكن أين بالضبط؟ لا بدّ وأن يطلّ على البحر؛ ساحل مفتوح دون جزر ولا صخور. أريد فضاءً مفتوحًا، وأريد أن أسمع البحر، وأريده أن يستلقي إلى

الغرب مني، ذلك لأني أريد للشمس أن تنام فيه، لا بدّ من ذلك.

هناك أمر آخر بأهميّة البحر، وأرغب فيه لا محالة؛ أريد وفرةً من الخُضرة والأشجار الدائمة الحفيف. لا أشجار صنوبر ولا تنوب. حسنًا، قد أقبل بالصنوبر، بشرط أن تكون باسقة شاهقة، مستقيمة وقوية، ونجحَت في أن تصير أشجار صنوبر حقيقية كما هو مقدّر لها. أمّا المعالم المتعرَجة لغابة أشجار التنوب أمام السماء فإنها تُطلق في داخلي حزنًا لا يفسّر. ومتى ما أمطرت السماء بغزارة في المدن غزارته في البلدات، فإن غابة أشجار التنوب تحت كل هذ الماء تصيبني بالمرض والكآبة. لا. لا بدّ وأن تكون الأرض مزجًا أركاديًا يهبط بنعومة ناحية البحر، وأشجار كثيفة الأوراق والظلال تحاصرني، وسقفٌ من الخُضرة يسبح فوق رأسي.

لكن، واحسرتاه، المشاهد الساحليّة في الحقيقة ليست هكذا على الإطلاق؛ بل هي عاديّة بسيطة. هبوب هواء البحر يجعل الأشجار شائكة، شاحبة، وضئيلة. لن تضع الأقدار أبدًا عيني على الشاطئ الذي آمل قيام بيتي وحياتي عليه.

ثم تأتي مهمّة تشييد البيت، وهذا بدوره عمل لا ينتهي؛ فهو يحتاج إلى عدّة سنوات حتى يُنجز. وقد يخطفك الموت أثناءها. ثم يستغرق التشييد سنتين أو ثلاثًا حتى يُستأنف، ثم عليه أن يتعتّق لخمسين عامًا على الأقل كي يكون أهلًا بحيوات قاطنيه وصنوًا لها.

وزوجة أيضًا! لا بدّ لزوجة من دخول المنزل. غير أن هذا ليس سهلًا سهولة الإبحار في ريح مواتية. لا أستسيغ فكرة أن يحدّق أحدهم في وجهي أثناء نومي. الطفل النائم هو وحده الجميل، والفتاة المليحة أيضًا، لكن ليس الرجل، لا! قيل إن إغفاءة البطل بالقرب من نار المعسكر وحقيبته تحت رأسه مشهد ممتع. هذا ممكن. لأنه على درجة من الإرهاق والتعب بحيث ينام نومًا عميقًا. لكن كيف سيبدو وجهي عندما تدخل أفكاري أيضًا في سبات عميق؟ لن تصيبني أي متعة إذا ما شاهدت وجهي بنفسي- لو كان بإمكاني ذلك بالطبع، فما بالك بالآخرين؟

لا. لا وجود لسعادة تحقّق الأحلام، إلا وهي تبتلع ذنَبها.(15)

لطالما تساءلت أيضًا، مستغرقًا في الأفكار والخيال، ما الشخصيّة التي أفضّل أن أكونها لو لم أقرأ الكتب قط، ولم أتأمّل القطع الفنيّة واللوحات؟ لم أعرف إجابةً عن سؤالي هذا. لربما كانت الأرخبيلات حينها ستخلب عقلي. إنّ كل تصوّراتي عن الطبيعة، ومشاعري نحوها، مستقاة من انطباعات شربتها من الشّعر واللوحات. فمن الفن اشتعل في داخلي شوقٌ للتيه في مروج فلورنس المزهرة العتيقة، وأن أغطّس رأسي في بحار هوميروس، وأن أركع أمام «الغابة المقدّسة»، لوحة آرنولد بوكلي.

يا لهفي! ما الذي كانت لتراه عيناي المحرومتان في هذا

الكوكب لو أنها تُركت لنفسها، عاريةً من مئات الآلاف من المعلّمين والرّفاق الذين غنّوا وفكّروا ورأوا، ليكفوا البقيّة منّا عناء التجربة؟ طويلًا فكّرت في شبابي المبكّر: ماذا لو كنت هناك؟ ماذا لو التقطت فرصةً ما! أن أكون في موقع الواهب، المُعطي، ولو لمرّة واحدة، لا المتلقّي، الآخذ الأبديّ: كم هو محزن أن يمضي المرء حياته وحيدًا، حاملًا روحًا قاحلة جرداء، وقد بلغت حيرته مبلغها وهو يبحث عمّا يفعله لكي يشعر أنه إنسان، أن له معنى وأنه جدير بأن يحترم ذاته. إن أكثر الحالات سعادة هي تلك التي يعيشها أغلب البشر دون شعور بالحاجة إلى احترام الذات. لم أعش هذه الحالة قط، ولهذا رافقني وخز الألم طويلًا، وأظن أنني انتهيت من خوض الجزء الأسوأ من تلك الآلام المبرّحة.

لم أكن في حياة أخرى لأكون شاعرًا- أن أرى ما لا يراه الآخرون، بل إن كل ما رأيته قد رأوه قبلي وأعطوه شكلًا وصِفة. أعشق بالطبع بعض الشعراء والفنانين: مخلوقات مريبة كما بدت لي. إنهم لا ينفعون للقيام بأيّ أمر، ولو كانت لديهم الإرادة لتحقيق أمر ما، فسيقومون بعكسه. ما هم؟ إنهم أياد وأعين وآذان. مع هذا أجدني أحسدهم. ليس إلى درجة أن أهبهم إرادتي مقابل رؤاهم. لكني أحب أن أستلّ منهم آذانهم وأعينهم. أحيانًا عندما أرى أحدهم يجلس غائب الذهن، صامتًا محدقًا في الفراغ، أقول لنفسي: تُراه في هذه اللحظات يرى ما لم يره أحد من قبل، وبعد فترة سوف يُطلع

آلاف الناس عليه وأنا منهم؟ لست أفهم - حتى الآن- إبداع الشباب منهم. لكنني أعرف وأتنبأ في الوقت نفسه أنه متى ما تمَّ تمييزهم ورفعهم عاليًا، فسوف أفهم أعمالهم وقتها وأقدّرها. يجري الأمر كما جرى مع التصاميم الحديثة للألبسة والأثاث وكل شيء آخر؛ وحده الجافُ المتصلّب المنتهي منذ زمن بعيد من يرفض تذوّق جمالهم. أمّا الشعراء، فهل هم حقًا من يعطون العصور معناها؟ الله أعلم، إنها مهمَة لا أجدهم يضطلعون بها. بل عليّ القول إنهم الأدوات التي تقول من خلالهم العصور سيرتها ومآلها، قيثارات تغني من خلالها ريح الزمن. من أنا إذًا، ما أنا؟ لا شيء. عيناي ليستا بعينين. بالكاد أرى السكارى هناك وأطباق الفجل على طاولاتهم، بالكاد أراهم صُحبة ستريندبيري(16) وأذكر عشاءً تناولناه معًا في شبابنا المبكر في أوتيل ستالمستاريغاردن القائم في هاغا. وعندما عبر مجدّفا القوارب في قناة الماء، منذ قليل، مرتديين سترات مقلّمة، رأيت شبح موباسان(17) يلحق بهما.

والآن، جالسًا إلى نافذتي المفتوحة، كاتبًا هذه التدوينات على ضوء شمعة مرتعشة- لم أشعل القناديل الزيتيّة، فمدبّرة منزلي تنام بغطيط مرتفع، وقد التهمت كعك الجنازة وقهوتها، ولا يطاوعني قلبي على إزعاجها. بهت لهب الشمعة، وبات ظلّي يرفرف على ورق الجدران مثل لهبها المتراقص، وكأنها تحاول أن تنتفض وتُحيي نفسها. يعبر في خاطري الآن هانس آندرسن(18)

وحكاية الظل؛ وبدا لي أنني الظل الذي يحاول أن يصير رجلًا.

* * *

6 يوليو، صباحًا

لا بدّ من تدوين الحلم الذي انقضّ عليّ البارحة.

انتصبتُ واقفًا عند فراش نومه، أعني القسّ المبجّل غرغوريوس. يأكله المرض. كان النصف العلوي من جسده عاريًا، وكنت أستمع إلى قلبه. السرير موضوعٌ إلى جوار مكتبه، وتنتصب في الرّكن آلة الأرغن، يعزف عليها شخص ما عزفًا لم يشكّل ترنيمةً دينيّة، وبالكاد يتّسق اللحن ليكوّن قطعة موسيقيّة مقبولة. أحد الأبواب كان مفتوحًا، ممّا أصابني بالقلق وعدم الارتياح. لكنني لم أكن قادرًا على حمل نفسي لإغلاقه.

سألني القسّ:

- هل الأمر جسيم؟

فأجبته:

- كلا. ليس جسيمًا. لكنه خطير.

كنت أعني أن ما كنت أفكر فيه هو خطير بالنسبة لي. وظننت في الحلم أنني عبّرت عن نفسي بعمق وأناقة.

لكنني أضفت:

- لكن، لأجل سلامتك، لا بدّ وأن نرسل إلى مختبرات المصنع لجلب بعض كبسولات التناول.

سأل القسّ:

- هل عليكم أن تجرون عملية لي؟

أومأت بالإجابة:

- لا بدّ من ذلك. فقلبك لا نفع فيه البتّة، إنه قديم جدًا. علينا أن نخرجه منك. لكن لا تقلق، إنها عمليّة آمنة تمامًا، يمكن إجراؤها باستخدام سكّين ورقيّة عاديّة.

بدت لي الفكرة في الحلم حقيقة علميّة، مسلّمة وبسيطة، وحدث أن كان في يدي بالفعل سكّين ورقيّة.

- حسنًا، كل ما عليك فعله هو أن تغطي وجهك بهذا المنديل.

كان القسّ يئنّ بصوت رفيع تحت المنديل. لكنني لم أشرع في العمليّة، بل ضغطت زرًّا في الجدار.

أزحت المنديل عن وجهه. إنه ميّت. تحسّست يده؛ إنها باردة برودة الحجر. ثم نظرت إلى ساعتي محدثًا نفسي:

- لقد مات منذ قرابة السّاعتين.

نهضت السيّدة غرغوريوس عن الأرغن، حيث كانت تعزف، وجاءت نحوي. كانت نظرتها قلقة حزينة، ومدّت إليّ بباقة ورد داكن اللون. حينها فقط لاحظت أنها كانت تبتسم بغموض، وأنها عارية.

بسطتُ ذراعي لأجذبها نحوي، لكنها راوغتني، وفجأة رأيت كلاس ريكّه واقفًا في الباب المفتوح.

وجّهَ الكلام إليّ:

- دكتور كَلاس، استنادًا إلى صلاحيّاتي المؤقتة كمسؤول القسم، أعلن القبض عليك.

قلت له:

- تأخَرت كثيرًا. ألا يلفت نظرك أيّ شيء هنا؟
ثم أشرت نحو النافذة. بريق أحمر ينبثق من كلتا نافذتي الغرفة؛ وفجأة اتسع ضوء النهار في الخارج، وتناهى إلينا صوت امرأة قادم من غرفة أخرى، تنوح صائحة: العالم يحترق، العالم يحترق!
ثم أفقت.
شمس الصباح تسطع مباشرة في الغرفة. عندما عدت البارحة إلى البيت نسيت أن أغلق الستائر.
غريب. خلال الأيام الأخيرة الماضية لم أكن أستدعي على الإطلاق سيرة الرجل القبيح وزوجته الجميلة. لم أرغب بالتفكير فيهما.
وعلى كلّ حال، فإن غرغوريوس رحل إلى بورلا.

* * *

لا أدوّن أفكاري كلّها.
أكتب فقط الفكرة التي تطرق ذهني أوّلًا. ثم أنتظر لأرى إن كانت ستعاود الظهور أم لا.

* * *

7 يوليو

إنها تمطر في الخارج. وأنا أجلس هنا تراودني أفكارٌ تعِسة.
لماذا نهرتُ هانس فاهلن عندما أتاني الخريف الماضي، طالبًا اقتراض خمسين كرونة؟ صحيح أنني بالكاد أعرفه. لكنه بعد أسبوع شقّ بلعومه منتحرًا.
ولماذا لم أتعلم اللغة اليونانية في المدرسة؟ ينتابني

غثيان جرّاء ذلك، وانزعاج. درستها لأربع سنوات. لكنني لم أتمكّن من تعلّمها حقًّا. أكان ذلك بسبب أنّ والدي أجبرني على تعلَمها بدل اللغة الإنجليزية فانغلق ذهني عن تشرّبها؟ يا للحدّ الذي يمكن لبهيميّة المرء أن تبلغه! ألم أتعلم كل شيء آخر بما في ذلك ما يُدعى المنطق؟ درست اليونانيّة لأربع سنوات لكنني لا أتحدث اليونانيّة.

لم تكن جريرة أستاذي بالطبع. لأنه بمضيّ السنوات صار وزيرًا للدولة.

عليّ انتشال كتبي المدرسيّة من جديد، لأرى إن كان بإمكاني تعلّم أيّ شيء الآن؛ ربما لم يفُت الأوان بعد.

* * *

أتساءل: كيف هو وقع الجريمة على ضمير الإنسان؟

* * *

أتساءل ما إذا كان المسيحيون سيقيمون "عشاءهم" قريبًا؟

* * *

تُرجرج الرّيح أشجار فناء الكنيسة، والمطر يشخب من مزاريب السقوف. وشيطانٌ فقيرٌ يحمل في جيبه زجاجة كحول، وجدَ في سقف الكنيسة ملاذًا له، منزويًا في ركن دعَامة المدخل. يقف مستندًا إلى الحائط الأحمر، ويرسل نظرته، زرقاء خاشعة، تطارد الغيوم السيّارة. يقطر المطر من الشجرتين المائلتين عند ضريح بيلمان[19]. وعبر فناء الكنيسة من هذه الجهة، منزويًا

غير بعيد، يقف بيت ذو سمعة سيئة؛ فتاة بثيابها الداخلية استندت إلى النافذة ثم أطبقت الستائر.

لكن هناك، بين الأضرحة، وفوق الطين، يرسم راعي الأبرشيّة طريقه بحذر، مرتديًا حذاءً مطاطيًا، مندسًا تحت مظلّته، والآن هو ينحني دالفًا عبر الباب الصغير إلى حجرة الاجتماعات الخارجية المتاخمة لمبنى الكنيسة.

* * *

بالمناسبة، لماذا يدخل رجال الدين إلى معابدهم، دومًا، من أبوابها الجانبيّة؟

* * *

9 يوليو

ما تزال تمطر. أيام مثل هذه يربطها نسَبٌ وثيق بأمراضي، فهي تُطلق سموم روحي حرّة في بدني.

للتوّ، عائدًا إلى المنزل بعد زيارة بعض المرضى، تبادلت التحيّة مع رجل لا أحبّ مقابلته، كان يقف في ركن من أركان الشارع. لقد أهانني مرّة بعمق، لكن بأدب، وفي ظروف لم أجد مخرجًا منها لمجازاته.

تلك أمور لا أحبذ تذكّرها، فهي تضرّ بصحّتي فورًا.

* * *

أجلس إلى طاولتي فاتحًا أدراجها، الواحد تلو الآخر، مقلّبًا الأوراق القديمة والأغراض المدسوسة. وقعت يدي على قصاصة صفراء من عدد صحيفةٍ قديم الصدور:

هل هناك حياة بعد الموت؟ يُجيبكم إتش. كريمر

دكتوراه في اللاهوت. السّعر: 20 أوره.

اعترافات جون بونيان. بحث عن الحياة القادمة: نعيم الجنة وأهوال الجحيم. السّعر: 75 أوره.

☜قـوّة الإنـسـان الـذاتـيّـة☜

الطريق القويم إلى التفوّق والثراء لمؤلّفه إس. سمايلس. السّعر 3 كرونات و05 أوره، والنسخة الفاخرة بالغلاف المذهّب بـ 4 كرونات و52 أوره.

لماذا أخفيت هذه الإعلانات العتيقة؟ أتذكر متى قصصتها؛ كنت في الرابعة عشرة من عمري، العام نفسه الذي التهمَت فيه النيران أموال والدي. وبما جمعته من مصروفي ابتعت كتاب السيّد سمايلس، النسخة الأرخص. وفور انتهائي من قراءته بعته لتاجر الكتب المستعملة؛ فقد وجدت أن الكتاب تمّ تضخيمه ومدحه بغباء لا حدّ له.

لكنني ما زلت محتفظًا بالإعلان. وإنه لأثمن من الكتاب نفسه.

وها هي ذي صورة قديمة: المنزل الريفي الذي امتلكناه لعدة سنوات. دعوناه ماريبو تيمّنًا بوالدتي.

اصفرّت الصورة وبهتت. هناك غلالة ضبابية تُرى معلّقة أمام المنزل، وغابة أشجار الصنوبر تمتد خلفه. وهذا ما بدا عليه المنزل حقًّا أيّام المطر الرماديّة.

لسبب ما، لم أستمتع بالوقت الذي قضيته هناك. لطالما انهال أبي عليّ بالضرب أيّام الصيف. قالوا إنني كنت صبيًّا عنيدًا ومشاكسًا. ففي الصيف، تلك الأيام، لا وجود

لحصص مدرسيّة أزجي وقتي فيها وطاقتي.

ضربني مرّة ظلمًا. وهذه إحدى أجمل ذكريات طفولتي. لقد آذى جلدي بطبيعة الحال، لكنه شفى روحي. عندما ذهبت إلى البحيرة بعدها، خطوتُ فيها مواجهًا هبوب ريحٍ نصف عاصفة، فراح الزّبد يرتفع صافعًا وجهي. لست أكيدًا من أنني غرقت مرة أخرى، خلال حياتي، في مثل ذلك السَيل اللذيذ من مشاعر النُبل التي شعرت بها في البحيرة. لقد سامحت أبي؛ إنه سريع الغضب، وكان وقتها شديد القلق بشأن أعماله.

لطالما صعُب عليّ أن أغفر له تقريعه لي، وضربي، في كل المرّات التي كان الحقّ فيها معه. لست واثقًا من أنني أسامحه الآن بعد مضيّ السنين. أتذكّر تلك المرّة التي غدت فيها إلى قضم أظافري رغم تحذيراته الشديدة، وكيف ضربني! ذهبت بعدها أتجوّل لساعات تحت المطر في غابة أشجار الصنوبر تلك، دامعًا نائحًا.

ما من شيء مُسالم في ما يتعلّق بوالدي، إنه قليل البشاشة، وإذا وجدته غير باشّ فإنه يفسد بشاشة الآخرين من حوله. لكنه يحبّ الحفلات: لقد كان بصحبة مجموعة مبذّرين بائسة. إنه الغنيّ الذي مات فقيرًا. حتى يومنا هذا لا أعرف هل كان نزيهًا كلّ النزاهة أم لا، فلقد كان شريكًا في إجراء حوالات ماليّة كبيرة. لا أعرف كيف حدث وتمعّنت صغيرًا في مزحةٍ أسقطها على شريك له في أعماله: "لا بأس يا عزيزي جوزيف، ليس سهلًا على المرء التشبّث بالنزاهة عندما يجني هذا

الكمّ الهائل من المال الذي نجنيه..". لكنه كان صارمًا حادًّا يحمل أفكارًا واضحة ومثاليّة عن الثقة وأداء الواجب، وهي أمور تشغل بال زملائه؛ فالرجل بالنسبة لهم يتبدّل وفقًا للمعطيات ويتغيّر.

والأشدّ سوءًا بالنسبة لي هو شعوري الدائم بالاشمئزاز من جسده. كم كان عذابي جارفًا في طفولتي عندما رحنا نستحمّ معًا في حمّام واحد وقت أن أراد تعليمي كيف أستحم؛ كنت أتملّص من كفّيه مثل سمكة صغيرة، واعتقدتُ المرّة تلو الأخرى أنني سأغرق وأموت، وقد بلغ خوفي من الاحتكاك بجسده العاري خوفي من الموت نفسه. بالتأكيد لم يكن ليخطر على باله كيف أن هذا التلامس وحده، الباعث على الاشمئزاز في كياني كله، هو ما كان يؤلمني بالتحديد في ضربه لي. والأقسى من ذلك هو السفر برفقته لأيّ شأن؛ كم كان ضيقي بالغًا حدّ التلف عندما أنام وإيّاه في غرفة واحدة.

لكن أجدني مأخوذًا به رغم كل شيء. ربما لأنه كان يباهي بذكائي، ويظهر دومًا في لباس أنيق. كرهته لفترة. إنه يضرب أمي. لكنها مرضت لاحقًا فماتت. انتبهت وقتها إلى أنه انتحب وبكى عليها أكثر مما فعلت أنا، كنت في الخامسة عشرة من عمري، فلم أقوَ على كرهه بعدها.

والآن رحل كلاهما إلى السماء. بل جميعهم ذهبوا- كل من كان يسير بين قطع الأثاث في بيت طفولتي. بالطّبع

لم يفنوا جميعًا، لقد مات فقط من يعنون لي شيئًا؛ أخي إيرنست، الذي كان قويًا وغبيًا ولطيفًا في الوقت نفسه؛ فهو المُعين والحامي من الأخطار في كل المغامرات التي خاضها طفل المدرسة الذي كنته- وقد ابتعد. ارتحل إلى أستراليا، ولا يعرف أحد أكان حيًا أم ميتًا. ثم تأتي ابنة عمي الجميلة آليس، التي اعتادت الوقوف أمام البيانو شاحبة، مستقيمة الظهر، مغنيةً بأعين السّائر في نومه أغنيةً بصوت ملتاع متحرّق؛ غنّت حتى ارتجفتُ وانهزّت أوصالي واقفًا إلى الركن من البلكونة الزجاجيّة الداخليّة، غنّت حتى أنني لم أسمع غناءً كغنائها لا من قبل ولا من بعد. ما الذي جرى عليها؟ تزوَجت الفقر نفسه، اقترنت بأحد المعلّمين في مدرسة بلدةٍ صغيرة، وكانت كبيرة وعليلة ومتعبة. دخلَت في غيبوبة من البكاء فجأة عندما قابلتُها في ليلة الكريسماس الماضية في منزل والدتها، وقد تأثّرتُ، ورحنا نبكي معًا... ثم أختها آن، حارّة الوجنتين، التي تشتعل النيران في جسدها من الرقص كما تشتعل في صوت أختها من الغناء. هربَت من زوجها النذل مع آخر حقير هجرها في النهاية. تعتاش الآن من بيع جسدها -كما يقولون- في شيكاغو. ووالدهم، عمّي ألريك، بهيّ الطلعة خفيف الظلّ، والذي لطالما قالوا إنني أشبهه، وأعتقد بصحّة ذلك، غير أنّني صورته الأقبح، لقد غادرَنا جرّاء الانهيار الماليّ نفسه الذي أطاح بوالدي، ومثله مات فقيرًا... ما هذا الطاعون الذي مزّقهم خلال سنوات

بسيطة ورماهم، بعضهم في المقابر، وآخرين في ظلال النكبات. كلهم رحلوا، كلهم، حتى أولئك الأصدقاء الذين كانوا يحتشدون في غرفنا أيَام المناسبات.

الله يعلم ما حلَ بهم. لكنهم غادروا.

أمّا ماريبو، منزلنا الريفيّ، فإنه يُدعى الآن، كما تناهى إليّ، صوفيلوند.

***

10 يوليو

جالسًا إلى طاولة الكتابة.

تراودني فكرة أن أضغط النابض، كي أفتح دُرج أسراري الصَغير وأُطلق مكنوناته. وبالطبع أعرف ما ينتظرني فيه: صندوق مستدير يحوي بضعة أقراص. لا أريدها أن تستلقي أمامي في خزانة الأدوية، فقد تلتبس عليّ الحبوب يومًا، وهذا جدُ خطير. لقد صنعت الأقراص بنفسي قبل سنوات، ومن محتوياتها مقدار قليل من سيانيد البوتاسيوم[20]. وقتها، عندما مزجتها، لم أكن أفكر بإنهاء حياتي. لكن أحببت فكرة أن الرجل الحكيم عليه أن يكون مستعدًا على الدوام.

لو شربتَ سيانيد البوتاسيوم، مُذابًا في كأس نبيذ أو ما شابه، فموتك فوريَ لا محالة؛ ينزلق الكأس من قبضة أصابعك ويتهاوى نحو الأرضيَة؛ ويبدو جليًا للجميع بأن هناك مَن أقدم على الانتحار. وهذا أمر غير مرغوب به على الدوام. لكن لو أنك رميت أحد أقراصي في كأس ماء، ستمرّ دقيقة أو دقيقتان قبل أن يذوب فيبدأ

مفعوله؛ لديك حينها من الوقت ما يكفي لتعيد الكأس بهدوء إلى الصينيّة، ثم تسترخي مجدّدًا في الأريكة الوثيرة، ملتقطًا صحيفة أفتونبلادت لتفردها أمامك. ثم تتهاوى فجأة دون إنذار. والطبيب سيعلن أنها سكتة قلبيّة. وبالطبع لو تمّ تشريح الجثّة فسيظهر السمّ في التحاليل. لكن عندما لا يكون هناك أيّ شكّ أو رِيبة في حَيثيّات الموت من وجهة نظر طبيّة، فالتشريح لا ضرورة له. ولا وجود لحيثيّات مريبة تحيط بشخص كان يقرأ صحيفة أفتونبلادت ويأخذ أنفاسًا من سيجارة ما بعد العشاء!

لذا يطمئنني أن هذا الطّحين المغلّف على شكل كور صغيرة تشبه الطلقات، يقبع هنا في الدرج، منتظرًا يومًا يُدعى فيه لأداء الواجب. تندفن فيه قوّة شيطانية كارهة، البشر وأحياء البسيطة كلهم أعداءٌ لها منذ البداية. قوّة لا تُطلق حرّة إلّا إذا صارت هي الرغبة الواحدة الوحيدة هربًا ممّا هو أسوأ.

ما الذي شغل بالي كثيرًا وأنا أخلط هذه الحبوب السوداء الصغيرة لنفسي؟ الانتحار بعد حبّ فاشل؟ هذا أمر لم أجرّبه قط طوال حياتي. ربما الفقر؟ من بين كل المصائب التي تسمّى "خارجيّة،" حتمًا يبزغ الفقر كأعمق ما يجرح الدواخل ويستنزفها. لكنه لا يشكّل خطرًا عليّ. فأنا أعتبر نفسي من بين أكثر العاملين أجرًا. سيعتبرني علماء الاجتماع ثريًا. حسنًا، ما كان يشغل بالي وقتها، إذن، هو المرض لا غير؛ فلقد عاينت أمراضًا

كثيرة كالسرطان، والعمى، والشلل. ما أكثر البؤساء الذين كنت مستعدًا لتزويدهم بهذه الأقراص دون تردَد أو ندم، لولا اعتبارات القانون. لكنني أسمع في داخلي، كما يسمع غيري من الأمناء، صوت الالتزام بالقانون، واحترامه، يصدح عاليًا، أعلى من صوت الرّحمة والضمير. في المقابل، كم أهملت من المرضى الذين رأيتهم أمامي وكأنهم حُطام بشر، منهارين يائسين؛ ولم أساعدهم ملتزمًا بجدولي الطبيّ وواجباته- ثم أذهب لقبض أتعابي دون أن يحمرّ وجهي خجلًا. هذا هو المعتاد، وهذا هو ما يجري؛ فإزاء الأمور التي لا تخصّنا، نتصرَف التصرّف الصحيح. ولماذا أقدّم نفسي قربانًا في سبيل صحّة وجهة نظر ستصير لاحقًا وجهة نظر كل المتمدّنين، بينما تُعتبر اليوم جُرمًا لا يُغتفر؟

سيأتي ذلك اليوم، ولا بدّ أن يأتي، عندما يصير حقّ الموت مكفولًا للفرد، وأكثر أهميّة من حق التصويت، أي إلقاء بطاقة في صندوق. وعندما يأتي الوقت وتحين الساعة الناضجة، فإن كل مريض لا تُمكن معالجته - وكل "مجرم" أيضًا- سيكون له الحق في سؤال الدكتور أن يحرّره من آلامه.

هناك ما هو فاتنٌ بشأن الكأس المسموم الذين سمح الأثينيون للطبيب بتقديمه لسقراط عندما آمنوا بأنه يشكّل خطرًا يتهدّد الدولة. في أيّامنا هذه، لو كان لنا أن نحكم على سقراط بالموت، لسحلناه وثبّتناه ذليلًا إلى سقّالة، ثم سفحناه ضربًا بالفأس.

* * *

عِمتِ مساءً، أيتها القوّة الشريرة. نامي جيّدًا في صندوقك الدائري الصغير. نامي حتى أناديك. فيجب أن لا أوقظك حتى تحين ساعتك. اليوم ماطر، لكن الشمس قد تشرق في الغد. وليس لي، قبل بزوغ فجر ذاك اليوم، حين تبدو الشمس نفسها معتلّة وتبشّر بآفات مديدة، أن أوقظك أنتِ، كي أنام.

* * *

11 يوليو

جالسًا إلى طاولة الكتابة، في هذا اليوم الماطر الرماديّ.
وجدت للتوّ، في أحد الأدراج، قصاصة ورق تحمل بعض الكلمات المكتوبة بخطّ يدي، الخطّ الذي كان قبل سنوات عدّة- لأن لكلّ امرئٍ خطّ يدٍ يتغيّر شكلُه دون توقّف؛ جزء ضئيل جدًا كل عام، لا يلاحظه المرء، لكنه مختلف ولا شكّ، كما يختلف الوجه عن الوجه بمضيّ العُمر، كما تختلف الوقفة عن الوقفة، والحركة عن الحركة، والروح عن الروح.
الكلمات هي: "لا شيء يدمّر الإنسان ويقضي عليه كإدراكه أنّ أحدًا لا يحبّه"
متى كتبت هذا؟ هل انسكبت الكلمات من داخلي، هل أتحدث عن نفسي؟ أم أنها اقتباس دوّنته وحسب؟
لا أذكر.

* * *

أفهم الطموح. عليّ وحسب ان أجلس في ركن دار

الأوبرا وأصيخ السمع إلى موسيقى «مسيرة التتويج» في «النبي[21]» حتى أصير ساخنًا متوهَجًا برغبة حُكم البشر جميعًا، وأن أتوّج بذلك في كاتدرائيّة قديمة.

لكنني لا أرغب في تتويجي بالمُلك إلا أثناء حياتي؛ فما بعد ذلك هو صمتٌ مطبق من ناحيتي. لست أفهم إطلاقًا أولئك السّاعين وراء خلود أسمائهم. إن الذاكرة الإنسانية غير عادلة، تنسى وتسهو، ولقد غاب عنّا بالفعل فاعلو الخير الإنساني الأوائل. نُسب ابتكار العربة اليدوية الصغيرة ذات الدولاب الواحد إلى باسكال، أمّا قاطرة النقل ذات المحرّك البخاري فنُسبت إلى فولتن، لكن من الذي اخترع العربة ذات الدواليب؟ لا أحد يعرف على وجه الدقّة. وفي المقابل، حفظ لنا التاريخ اسم سائق عربة الملك خشايار الأوّل[22]: باتيرامفس ابن أوتانس. قائد عربة الملك العظيم. كذلك المعتوه الذي أضرم النيران في هيكل أرتميس[23] ودافعه في ذلك هو ألّا ينسى الناس والتاريخ اسمه، ولقد نجح في مشروعه! تستطيع الرجوع إلى موسوعة بروكهاوس[24] لمعرفة المزيد عنه.

* * *

نحتاج أن نُحَب. ولو فشلنا في نيل الحب، فإن حاجتنا تتوجّه إلى نيل الاحترام. ولو فشلنا في ذلك فإن حاجتنا تكون في زرع الرّهبة منّا في الآخرين. ولو لم نُرهَب الجناب، فسنجد أنفسنا راغبين في أن نُكرَه ونُزدرى. نريد بأيّ ثمن أن نضرم في نفوس الآخرين أي

مشاعر نحونا. أرواحنا تمُجّ الفراغ. إنها تسعى للتواصل بأيّ شكل كان.

* * *

13 يوليو

مرزت بأيّام رماديّة ولحظات سوداء. لست سعيدًا. ولا أعرف أحدًا يرضيني أن أبادله أيّامي؛ ينقبض قلبي لفكرة أن أكون هذا الشخص أو ذاك من بين زملائي. لا، لا أريد أن أكون أحدًا آخر.

عانيت أكثر ما عانيت في شبابي المبكّر من سوء سحنتي وشكلي. وفي أوج احتراقي للتودّد إلى الفاتنات، كنت أعرف أنني الوحش، سيّد القُبح. الآن -بالطبع- أعي أنني أبدو مثل كثيرين من حولي؛ ولا يشكّل لي معرفة ذلك سببًا للبهجة.

لست مهووسًا بنفسي؛ لا بقشرتي ولا أحشائي. لكنني لا أريد أن أكون أحدًا آخر غيري، أحدًا آخر،أيًا كان هذا الأحد.

* * *

14 يوليو

شمسٌ رحيمة، تحمل من العزيمة ما يجعلها تلاحقنا في كل مكان دون كلل، حتى هناك في الأسفل، داخل القبور وتحت الأشجار...

لكنها غابت. الآن يعمّ الظلام. عدت إلى المنزل بعد نزهتي الليليّة. تستلقي البلدة متمدّدة وكأنها على بركة من زهور. وفوق المرتفعات الغربية يتدلّى غبار زهريّ

خفيف.

جلستُ لوهلة إلى طاولة على رصيف الجراند أوتيل، أحتسي شراب ليمون دافئ، فإذا بالآنسة مارتنز تعبر أمامي. نهضتُ وحيّيتها، وفاجأني أنها توقّفت عن السير، مدّت نحوي يدها مصافحة، وتبادلت معي أحاديث قصيرة قبل أن تستأنف سبيلها؛ بضع كلمات عن مرض أمها والمساء الرائق. أثناء حديثها معي انتابها خجل خفيف احمرّت منه وجنتاها، وكأن وقوفها معي أمرٌ لا يجدر بها فعله، فهو مفتوح لكل احتمالات الفهم.

أمّا أنا، على الأقل، فإنني لم أُسئ فهمها. لطالما لاحظت كم هي ودودة مع الجميع ولطيفة دون أن تعطي اعتبارًا كبيرًا للأعراف والرسميّات؛ وسرّني ذلك منها دومًا.

لكن كان هناك غير ذلك- بدت لي نديّة مُزهرة! أتكون واقعة في الحبّ؟

عانت عائلتها، وعوائل كثيرة أيضًا، من انهيار والدي المالي. أتردّد في السنوات القليلة الماضية على والدتها، زوجة عقيد الجيش المتقاعد، لتدهور صحّتها. لم أقبل أن آخذ منهم أيّ مقابل لأتعابي، وأكيدٌ أنهم يفهمون لِمَ.

إنها تركب الخيل أيضًا، مثلي. رأيتها مؤخّرًا عدّة مرّات خلال جولاتي الصباحيّة على حصاني، كان آخرها بالأمس. عبرَت إلى جواري منطلقة بسرعة، قالت "صباح الخير" وحسب، وعندما ابتعدَت رأيتها عبر المسافة تُبطئ من حصانها عند المنعطف، ثم ترجّلت لتسير قليلًا، بعدها اعتلته وراحت تخبّ به بهدوء مُرخيةً

لجامه وكأنها في حلم... لكنني، أنا... أبقيت على سرعتي. هكذا، لكي يمرّ أحدنا بالآخر أكثر من مرّة خلال جولتنا الصباحيّة.

* * *

إنها ليست فاتنة، إذا توخّينا الدقّة، لكن أجد فيها ما خِلته لسنوات طويلة، وحتى وقت قريب، صورة حُلمي عن المرأة. إنها أمور لا تُشرَح. نجحتُ مرّة وبعد عناء طويل - قبل سنتين أو ثلاث- في تدبّر أمر حضوري حفلة كانت تقيمها إحدى الأسر المقرّبة منها، فقط كي أراها. وبالطبع قابلتها هناك. لكنها، في تلك المناسبة، انتبهت لوجودي الغريب بينهم، فلم تبادلني الحديث طويلًا.

وها هي الآن: تبدو لي كما بدت حينها، أعرفها عن ظهر قلب. لكنّها نفسي التي لم أعد أعرف.

* * *

17 يوليو

كلّا، أحيانًا تكشف لنا الحياة عن وجهها القذر. عدت للتوّ من مُباشرة حالة مستعجلة في منتصف الليل. أيقظني رنين الهاتف، لُقّنت اسمًا وعنوانًا- المسافة إلى المكان قصيرة- وتنويهًا عن الوضع؛ سقط طفلٌ صريع المرض فجأة، قد يكون مُلتهب الحنجرة، في منزل فلان الفلانيّ تاجر الجُفْلة. غيمةٌ من طيور الليل السّكرانة، والعاهرات، تحوم حول ذيل معطفي. أسرعت قاطعًا الشوارع. يقع المكان في الطابق الرابع من منزل مُنزوٍ في شارع

جانبي. بدا مألوفًا لي هذا الوجه؛ تحمله صاحبة الصوت الذي كلّمني عبر الهاتف، والتي أراها أمامي عند الباب الآن. لكني لا أعرف أين رأيتها من قبل. استقبلتني الزوجة بثوب نومها- نعم! إنها السيدة التي التقيتها في مطعم يورغاردسبرن، نفسها التي تعود ذكراها إلى سنوات خلت. ولذا ظننت أن المصاب هو ولدها الصغير اللطيف! قادتني عبر غرفة طعام ضيّقة، فرواق بائس أضيء -فور دخولي- بمصباح مطبخ زيتيّ وُضع في ركن أحد الأرففُ، وأخيرًا دخلت الغرفة. من البدهيّ أن ربّ المنزل غائب. قالت الزوجة: "المريض هو ابننا الأكبر" ثم قادتني إلى سريره. لم أر الطفل الجميل يستلقي أمامي، بل فوجئت بوحش؛ ما أضخمه، عظام وجنتيه بارزة، تشبه تلك التي يحملها الغوريلا؛ وقحفة رأسه مسطّحة؛ وعيناه صغيرتان شيطانيّتان ببلاهة. تعرف من نظرة واحدة أنه: أحمق.

حسنًا- هذا هو مولودها الأوّل! إنه هو من كانت تحمل همّه في قلبها ذلك الوقت. إنه البذرة التي سقطت على ركبتيها أمامي راجيةً تخليصها منها؛ فأجبتها وقتها بمحاضرة أداء الواجب. أيتها الحياة، لستُ أفهمك!

والآن، أراد الموت أن يرحمه ويرحمهم، أراد أن يأخذه عن حياةٍ ما كان عليه أن يدخلها. لكن لن يحدث ذلك، فعلى الرغم من أنه لا وجود في حياتهم لشيء يسعون للتخلّص منه أكثر من هذا الولد، فإن قلوبهم الجبانة تدفعهم لاستدعائي، أنا الطبيب، لكي أرسم للموت طريق

خروج، وأبقي على هذا الوحش حيًا. وأنا، الأكثر جبنًا منهم، أقوم بواجبي- أنجزه الآن كما أنجزته سابقًا.

بالطبع، لم يعبر ذهني حشد الأفكار هذا كلّه مرّة واحدة، أثناء وقوفي بكامل يقظتي على رأسه في تلك الغرفة، أمام سرير المريض. اتّبعت نداء الواجب كالعادة، ولم أفكّر بشيء- مكثت هناك من الوقت ما كان ضروريًا وحسب، أدّيت ما كان عليّ أداؤه، ثم غادرت. وفي الرواق قابلت الزّوج الأب، عائدًا لتوّه إلى المنزل لنفس السبب الذي استدعيت أنا لأجله.

سيعيش الولد الغوريلا- لسنوات مديدة ربما. الوجه المقرف البهيميّ، بعينيه البلهاوين الشّيطانيّتين اللتين تعقّبتاني إلى منزلي، وفي هاتين العينين أقرأ قصّته كاملة.

لقد أعطي العينين اللتين نظر الناس من خلالهما إلى أمّه، عندما انتفخ بطنها به قبل الزواج. بتلك العينين أجبرَ الناسُ والدته على النظر –باحتقار- إلى ما اقترفَته: إليه.

والآن ها هي الثمرة- ما أحلاها من ثمرة!

ضرْبُ الأب البدائيّ، ولطْمُ الأم المثقل رأسها بكل ما قد يقوله الأهل والأصدقاء، والخدَم الذين سيرمقونها بارتياب، متشفّين بها، متهامسين: إن هؤلاء "الأفاضل" الرؤساء ليسوا بأفضل حالًا من مرؤوسيهم، والعمّات والأعمام والأخوال والخالات الذين يعاملونها بجفاء وسخط وأخلاق ناقصة، والقسّ الذي لم يقصّر كثيرًا في

تحضيراته لمراسم الزواج المُخزي، وقد انتابه خجل لكونه سيعظ الزوجين باسم الرّب أن يجتنبوا اقتراف ما اقترفوه بالفعل- الجميع، قدّم الجميع آراءهم النقديّة، يحمل كل واحد وِزره في ما جرى. ولا يُستثنى الطبيب، حتى الطبيب- الذي كان أنا.

أمَا كان بمقدوري مساعدتها في أضيق ساعات حياتها وأكثرها عوزًا، عندما وقعت على ركبتيها تتوسّلني في هذه الغرفة؟ وبدلًا من ذلك، رحت ألقي عليها محاضرة الواجب والالتزام، الواجب الذي لم أؤمن به قط.

لكنني في حالتها هذه قمت بما أشعر أنه صحيح بثقة كاملة. إذ حتى لو لم أكن مؤمنًا "بالواجب،" فإنني لم أؤمن أيضًا بأنه أسمى القوانين وأعظمها شأوًا، بحيث يرتبط وجودي بعدم اختراقه- ولهذا فإنني في هذه الحالة رأيت أن أتّبع الرأي الحصيف، العاقل، الذي يُطلق عليه غيري "الواجب" في حالات مشابهة. لم أتردّد في القيام به.

أيّتها الحياة، لست أفهمك.

* * *

«مصيرُ الطفل الذي يولَد مشوّهًا هو أن يُغْرَق حتى الموت»

(سينيكا).[25]

* * *

رعاية كلّ معتوه في بيت أوجيني.[26] تكلّف من المال سنويًا أكثر ممّا يجنيه عاملٌ فتيٌ نَشِط كادح خلال

الفترة نفسها.

***

---

(12). الأرخبيل هو أحد أشكال سطح الأرض والذي يرمز لأي مجموعة متقاربة ومتجاورة من الجزر. م.

(13). لأن ستوكهولم تقع عاليًا في خط الشمال، فإن لساعات النهار فيها مدى واسع، يصل إلى 18 ساعة في اليوم أثناء منتصف الصيف، وحتى 6 ساعات في آخر السنة. م.

(14). الكرونة هي العملة الرسميّة في السويد. الكرونة السويدية الواحدة مقسمّة إلى مئة ايري. م.

(15). الأفعى الملتهمة لذنبها هي رمز قديم يعود إلى الديانات المصريّة، يصوّر ثعبانًا أو تنينًا يبتلع ذنبه. إنها ترمز غالبا إلى النقصان الدائم وعدم الاكتمال، وإلى أن الشيء الواحد يحمل نقيضه في داخله ولذا لا بدّ من تواليهما. م.

(16). أوغست ستريندبيري. روائي وكاتب مسرحي سويدي. عاش حياة حافلة بالإنتاج الغزير والأحداث المثيرة العجيبة، وهو من معاصري أبسن وتشيكوف، وبه يكتمل الثلاثي الرائد الذي قاد حركة المسرح الحديث منذ أواخر القرن الماضي إلى مطالع القرن العشرين. م.

(17). غي دو موباسان، كاتب وروائي فرنسي

وأحد آباء القصة القصيرة الحديثة. قابل جوستاف فلوبير عن طريق صلات أسرته ليصبح فيما بعد تلميذه المخلص، وقد قدم فلوبير لتلميذه نظرية النجاح الأدبي، وتتكون من ثلاثة أجزاء: لاحظ، ولاحظ، ثم لاحظ. موباسان هو الرسّام الأكبر للعبوس البشري، ودوما ما كان يصاب بصداع، فيتلوّى لساعات من الألم حتى أصيب بالجنون سنة 1891 ومات في إحدى المصحات. م.

(18) هانس كريستيان أندرسن؛ كاتب وشاعر دنماركي يُعد واحداً من الكتاب البارزين في مجال كتابة الحكاية الخرافية. ومن أشهر قصصه: (عقلة الأصبع) و(الأميرة وحبة البازلاء) و(ملابس الملك الجديدة). م.

(19) كارل مايكل بيلمان (1740 - 1795) شاعر وملحن ومغنٍ سويدي. وهو فنان محوري في تاريخ الغناء السويدي وله تأثير قوي في الموسيقى السويدية، وكذلك في الأدب الاسكندنافي، حتى يومنا هذا. م.

(20) سيانيد البوتاسيوم هو مركب بلوري عديم الرائحة، ذو انحلالية عالية، عالي السميّة، ويستخدمه علماء الحشرات بشكل واسع في القضاء على الحشرات. م.

(21) النبيّ هي مسرحية أوبرالية من خمسة مقاطع تقع أحداثها أثناء الحروب الدينية في

أوروبا في القرن السادس عشر. وقد أبدعها الألماني جاكومو مايربر الذي تعتبر مسرحياته الأوبرالية أكثر المسرحيات أداءً في المسارح خلال القرن التاسع عشر. م.

(22) خشايار ملك فارسي حكم بين 485 ق.م - 465 ق.م. م.

(23) هيكل آرتميس هو معبد الإلهة اليونانية آرتميس (أو من كانت تدعى ديانا في الميثولوجيا الرومانية). تم الانتهاء من بنائه حوالي 550 ق.م في إفسوس (حاليا تقع في تركيا) ولا يوجد شيء من بقاياه الآن، ويعتبر واحدا من عجائب الدنيا السبع. م.

(24) موسوعة ألمانية شاملة صدرت طبعتها الأولى عام 1796. م.

(25) سينيكا، فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني. ويلقب بسينيكا الفيلسوف، أو الأصغر، تمييزاً له عن والده الخطيب الشهير. م.

(26) الأميرة أوجيني، أميرة السويد والنرويج (1830-1889) عضو البيت الحاكم، مهتمَة بالفنون والأعمال الخيريَة. أنشأت عام 1879 جمعية لإغاثة المعاقين والفقراء والمرضى الميؤوس من شفائهم والأطفال المشرّدين، وشيّدت لإنجاز ذلك بيتًا سُمّي لاحقًا ببيت أوجيني. م.

14 يوليو

عادت الحرارة الأفريقية الكاتمة من جديد؛ لقد قبعَت فوق البلدة دون حراك، طوال النهار، مثل سُحُب من دخان ذهبيّ. لم يفلح في اختراقها سوى الغروب: تنسّمنا برادًا أراحنا.

أتواجد لبعض الوقت، كل ليلة، في رصيف أوتيل الجراند؛ مرتشفًا عصير الليمون بقصبة الشرب. أجد نفسي مهووسًا بتلك الساعة التي تبدأ فيها أنوار المنعطفات، من جهة رصيف الميناء، بالإضاءة متمهّلة نعسانة. إنها أفضل ساعات يومي، وعادتي هي الجلوس هنا وحدي ومراقبتها، لكن بالأمس كان برفقتي بريك وماركل.

شرع ماركل بالقول:

- الحمدلله! لقد استأنفوا عادَة إنارة الشوارع. لم أكن أميّز حتى وجهي في عتمتها المنطفئة خلال ليالي الصيف هذه، وقد أطلنا التجوال فيها هذا العام. أعرف أن هذه التنظيمات قد شُرّعت لأسباب اقتصادية بحتة، وهو دافع جدير بالاحترام. لكنني لا أستطيع التلذّذ بهذه الذائقة المبتذلة التي أوجدتها من أجل السيّاح وشكّلتها وفقًا لأمزجتهم. من أجل السيّاح يُطلق على مدينتنا "أرض الشمس المسائيّة!" - فلتذهبوا إلى العدم.

وافقه بريك:

- أجل، قد يكتفون بإطفائها لليلتين أو ثلاث في منتصف الصّيف، عندما يُشعّ الليل حقًّا بضوء النهار.

هذه الليالي النهاريّة التي يلتقي فيها الشفق بالغسق، تطول هناك في الأرياف وتبدو ساحرة خلّابة، لكنها لا تأتينا هنا في المدينة، لا تنتمي إلينا. مصابيح الشوارع عنصر رئيسي في كل بلدة. لم يبلغ شعوري قط بالسعادة والفخر كابن مدينة ما بلغه في طفولتي عندما دخلت البلدة في مساء خريفي ورأيت المصابيح مشتعلة على طول رصيف الميناء. فكّرت في نفسي حينها: لا بدّ أن أولئك المساكين في الأرياف مجبورون الآن على المكوث في منازلهم إن أرادوا ألّا يمشوا بتثاقل في الظّلمة، واطئين على القذارات.

ثم تابع:

- على أنّ الرّيف محفوف بنوع آخر من السّماوات المرصّعة بالنجوم، غير سماوات المدن التي -بسبب هذه المصابيح الغازيّة- تستسلم نجومها وتنطفئ. إنها مأساة.

أضاف ماركل:

- النجوم، ببساطة، ليس من مهامّها إضاءة مواضع أقدامنا في العتمات. من المحزن أن تشهد كيف فقد الإنسان الاهتمام بها عمليًا. النجوم! لقد تحكّمت بحياة البشريّة يومًا ما، ولو فتحتَ الآن حوليّة أكاديميّة العلوم[27]، الرّخيصة تلك، لظننت أن للنجوم مكانتها السابقة! سيصعب عليك إيجاد دليل على ثبات العادات وتخشّبها أقوى من هذه الحوليّات الممتلئة بتفاصيل أمور غير علميّة ولا تهمّ البشر الأحياء قيد أنملة. تلك العلامات الفلكيّة التي كان أفقر الفلاحين قبل مئتي عام

على علمٍ بها، وقد تعلّمها صادقًا لإيمانه بأن وجوده كلّه مرهون بها، لا تهمّ الآن أغلب المتعلّمين، وهي غامضة عليهم تمامًا. لو كان لأكاديمية العلوم أدنى حسّ بالدعابة لراحت تخلط بين ما يَرِد تحت برج الأسد والسرطان والعذراء، في حركة تشبه خلط أوراق اليانصيب في القبعة، ولن تكون الجموع أكثر حكمة من أكاديميّة العلوم، فلن تنتبه لشيء! النجوم غارقة اليوم، وتبدو السّماء قطعة للزّينة وحسب.

ارتشف من كأس الويسكي ثم تابع:

- كلّا، لن تبارك النجوم لنفسها تمتّعها بالشّعبية التي حظيَت بها في عصور خلت، عندما كان الناس يؤمنون بأن أقدارهم معلقة بها، فيخشونها، ويحبونها، ويدينون لها بالعبادة. بالطّبع، أحببناها في طفولتنا حُبّ الطفولة. تخيّلناها ثقوبًا مضيئة صغيرة يُشعلها الله لنا ليلًا كي يبهجنا. ظننّا أنها كانت ترمش، وتغمز لنا. لكننا الآن نعرف أكثر من ذلك؛ نعرف أنها مجرّد تذكير مستمرّ، ومؤلم، ومُهين، بتفاهتنا وزُهد الكون فينا، لن تسعد النجوم بانتشار هذه الفكرة عنها. تخيّل أن يأخذ أحدهم نزهته نازلًا شارع الملكة، فتأسره الأفكار، أفكار رفيعة سامية، قد يغيّر بها وجه الحضارة كاملًا، أفكار يعتقد بأن لا بشر على وجه البسيطة يمتلك الشجاعة لكي تطرأ عليه، ولا الفتوّة ليُقدم عليها. حينها لا بدّ من الاعتراف بأن هناك في أعماقنا، ولا وعينا، تجوس خبرة السنوات الماضية، هامسةً دون أدنى ظلال من شكٍ، بأنّ

غدًا صباحًا سوف ننسى هذه الأفكار، ولن تجرؤ أعيننا على النظر إلى مبالغاتها ووزنها ودوْرها في تغيير العصر. هكذا استيقظَت النجوم الآن، ووزنت المبالغات الدائرة حولها. لكن ما دامت طرائق تفكير الناس بشأنها لم تتغيّر، فلا أحد يستطيع استلاب نقطة واحدة من سعادتهم. غير أن لحظةً ستأتي، يرفع فيها المرء رأسه إلى السماء، وينظر إلى نجمة صغيرة تطلّ من بين مدخنتين صفيحيّتين، ترمش وتلمع، فيعي حينها بأنه يستطيع المضي في الحياة ناسيًا تلك النجوم والأبراج.

أو تخيّل أيضًا أن تتمشّى طافحًا بالخمر، ثمِلًا، مرسلًا عينيك نحو قناة الماء، وتفكّر إن كان هناك أمرٌ أفضل تزجي به الوقت. وفجأة تقف- كما حدث لي صدقًا في ليلة ما- محدّقًا في نقطة بعيدة تلمع في ماء القناة. ثم تنتبه إلى أنها انعكاس لنجمة. ولأكون دقيقًا، كانت «ذنب الدجاجة[28]» وتكتشف فجأة كم هو سخيف سؤالك عن إزجاء الوقت، وأنت سكران، مقابل هذه الأبديّة المتقادمة من السّكون النجميّ.

ثم سمحتُ لنفسي بالتعليق:

- حسن، بإمكانك القول أنك توصّلت إلى تفاهة الوقت بالتفكير من زاوية الخلود. لكن يصعب علينا تصديق ذلك أثناء الصحو. فمزاج التفكير السكران يصعب استدعاؤه للاستعمال اليوميّ. لو امتلك ذنب الدجاجة القدرة على النظر إلى نفسه من زاوية الخلود، لو أنه يسكر مثلًا، لربما فهم أنه زائد على العالم وغير مهم،

ولن يستمر في عناء أن يتلألأ بعد ذلك. لكن الأمور باقية كما هي، وها هو في صحوه الأبدي لم يبرح جالسًا هناك منذ شهدناه، مخلصًا لمكانه، ويتلألأ بألق مشعّ، واثقًا يتمرأى ليس فقط في محيطات كواكب لم نتعرّفها بعد وتعتبره شمسها، بل في قناتنا المائية من هذه الأرض الضيّقة المعتمة. أحذو حذوه يا أصحابي! أعني: في كل شأن من شؤونكم، تلألأوا.

ثم ألقى بريك ملاحظته:

- يبالغ ماركل بالمدى الذي يستطيع بلوغه بأفكاره لو ظنّ نفسه قادرًا على النظر من زاوية الأبديّة إلى كل شيء، حتى مشروباته الرديئة من الويسكي والصودا. هذه قُدرة ليست له. لم يخرج الخالق لنا يومًا ليخبرنا بذلك! أذكر أنني قرأت شيئًا عن هذا الموضوع وأن تلك القدرة هي امتياز للخالق وحده، ولهذا فهو لم يعد موجودًا، لأن وَصفَة التغلّب على الأبديّة ونقض الخلود ثقيلة الوزن، ولا بدّ أنها كانت كذلك عليه!

لم يُجب ماركل. بدا عليه العبوس والحزن. هذا ما ظهر لي على الأقل من خلال العتمة، تحت مظلّة البارسول الواسعة المقلّمة بالأحمر. وأثناء قدحه عودَ ثقاب كي يشعل سيجاره من جديد، في الوهلة بين انبثاق النار وانطفائها، لمحت وجهه، وخيّل إليّ أنه شاخ. قلت لنفسي إنه سيموت في عُمر بين الأربعين والخمسين. أمّا صاحبنا الآخر، فقد تخطّى الأربعين بسنوات.

وفجأة قال بريك، الذي كان يجلس جلسة تمكّن نظره

من عبور الرصيف نحو الساحات وما يحدث فيها:

- أنظروا، ها هي السيّدة غرغوريوس قادمة. المرأة المتزوجة من ذاك الرجل المتديّن المقرف. الله وحده يعلم كيف علقت به. رؤيتهما معًا تدفع المرء إلى الإشاحة بوجهه بعيدًا، إن أبسط واجبات الجيرة تحتّم عليه فعل ذلك.

سألته:

- هل القسّ برفقتها؟

- لا، إنها وحدها...

إذًا لم يزل زوجها في بورلا..

قال بريك:

- تبدو لي شبيهةً بدليلة[29] لكن شقراء.

ماركل: لنأمل أنها تملك من الحصافة ما يجعلها لا تخون هذا الناذر نفسه للرّب.

بريك: يصعب عليّ التفكير بهذا. إنها كما يبدو متديّنة. لا شيء آخر يمكن أن يفسّر هذا الزواج.

ماركل: على العكس، وفقًا لملاحظاتي، سيكون من غير المفهوم بعد قضائها فترة معقولة من الزواج بالقسّ المبجّل غرغوريوس أن تبقى قطرة واحدة من التديّن في قلبها- وعلى أي حال، لن تكون أكثر تديّنًا من مدام دو مانتينون[30]، إن الإيمان الحقيقي ليس عونًا صادقًا في ورطات الحياة، ولم يقُم مرّة بإعاقة توالي المآزق.

صمتنا أثناء عبورها أمامنا باتجاه المتحف، مرتديةً فستانًا أسود بسيطًا. لم تكن في سيرها سريعة ولا

بطيئة، ولم تلتفت يمنة ولا يسرة.

أثناء عبورها أمامي، بغير إرادة مني، أغمضت عينيّ. إن لها مشية الذاهب إلى مصيره. عبرَت وقد أحنت رأسها إلى الأمام قليلًا، فبزغ ظهر رقبتها مشرقًا بالبياض تحت شُقرة شعرها. هل ابتسمت؟ لست جازمًا. لكنني تذكرت حلمي تلك الليلة. تلك الابتسامة التي رسمتها في ذلك الحلم المريع. لم أرها تبتسم في الحقيقة كما في المنام، ولا أتمنى ذلك أبدًا.

عندما فتحت عينيّ، ورفعت رأسي مجددًا، رأيت كلاس ريكّه سائرًا في الاتجاه نفسه. بينما يسير أمامنا أومأ نحو بليك وماركل، وربما أنا، يصعب عليّ تأكيد هذا. أشار له ماركل يدعوه للجلوس معنا، لكنه أكمل سيره مدّعيًا عدم ملاحظته له. كان يتبع خطاها. وخيّل إليّ أنني رأيت يدًا تمسك بهما معًا، خيطًا يجرّهما معًا إلى نفس الوجهة، وسألت نفسي: إلى أين يقودها هذا الأمر، وإلى أين يأخذه؟ لكن ما شأني أنا! إنها تذهب في سبيل كانت ستذهبه دوني. كل ما فعلته هو أنني أزحت الحصاة الصغيرة الأكثر حدّة من أمام قدميها الصغيرتين. غير أنها اختارت طريقًا قاسيًا. إنه كذلك. لا يرأف العالم بمن يحب. وفي النهاية يلقي بهم في الظلام، يرميهم ويرمينا معهم.

عقّب ماركل:

- بات من الصعب سرقة ساعة من وقت ريكّه هذه الأيام. أنا متأكّد أن هذا الوغد يخفي أمرًا ما. سمعت أنه

يحاول قنص فتاة صغيرة ثريّة. لا شك، لا شك، وهذا ما سيحدث في النهاية، ستكلّفه ديونًا تساوي ديون الأمير وليّ العهد نفسه. ثم ستتلقفه أيدي مقرضي المال.

سألته بظِلال من جِدّة لا مبرر لها:

- وكيف تعرف ذلك؟

فأجاب ببراءة:

- لا أعرف حقّ المعرفة. لكنني أستنتج. الأذهان الملوّثة لها طريقة في تقييم الرجل من خلال وزنه الماليّ. لكنني أذهب مذهبًا معاكسًا: إنني أقيّم الوزن المالي من خلال تمحيص الرجل نفسه. الأمر على هذا النحو أكثر منطقيّة عندي. فأنا أعرف ريكّه جيّدًا.

فتدخّل بريك:

- لا تشرب مزيدًا من الويسكي يا ماركل.

لكن ماركل سكب في كأسه المزيد من الويسكي وأضاف منه إلى كأس بريك الذي جلس محدّقًا في الهواء، مدّعيًا رؤية لا شيء ممّا يفعله ماركل. أمّا أنا فبالكاد لمست كأسي، فنظر نحوه ماركل مرتابًا وممتعضًا. وفجأة التفت بريك إليّ سائلًا:

- أخبرني، هل تبحث عن السعادة؟

فأجبته:

- أظن ذلك! التعريف الوحيد للسعادة بالنسبة لي هو: تلبية المرء لرغبات نفسه. ولذا فمن البدَهي القول إن جميع الناس باحثون عن السعادة.

بريك: تمامًا، إن كان الأمر كما تقوله فإن تلك الإجابة

بدَهيّة. إن إجابتك تذكّرني للمرة المائة بأن الفلسفة تعيش حياتها وتتغذّى على الألفاظ الغامضة. مقابل "فطيرة السعادة" التي يسعى إليها عوام الناس، يأتي شخص ليضع "كعكة الحريّة" وآخر رافعًا "عملًا فنيًا" وينكران على بعضهما معرفة السبيل للعثور على السعادة. يا لها من مواهب يُحسد عليها المرء عندما يستطيع أن يضلّل نفسه بالكلمات. ألا ننزع جميعًا إلى رؤية هويّاتنا وأعمالنا تحت ضوء مثاليّة ما؟ ربما نكتشف هناك، في مأوانا الأخير، أن سعادتنا العميقة تكمن حقًّا في التوقف عن الرغبة في السعادة.

ماركل: لا يطارد الإنسان السعادة، بل اللذة. يقول القورينائيون(31): "قد تستعصي اللذة على مجموعة من البشر، وذاك لأنهم تالفو الذكاء، فاسدو القدرة على النظر والحُكم".

ثم تابع:

- عندما يقول الفلاسفة إن الإنسان يبحث عن السعادة، أو "الخلاص،" أو "الإبداع،" فهم يفكرون في أنفسهم وحسب، أو في أناس يتمتعون بقدر جيّد من التعليم. ففي إحدى قصصه القصيرة، يذكر بير هالستروم(32) أنه في صغره كان يدعو قائلًا: "يضيء الفانوس، ويُظلم الفانوس، لكن من يبقى مع الله يبقى الفانوس معه"(33). بالطبع، في عمره الغض ذاك، لم يكن يفهم ما معنى "السعادة"، ولهذا دون وعي منه استبدل هذا الشيء غير المفهوم بما يجده جميلًا سهلًا، وهو "الفانوس". لكن ما

تعرفه خلايا أجسادنا عن "السعادة" أو "الخلاص" أو "الإبداع" قليل جدًا، كمعرفة خلايا الرُضع. غير أن تلك الخلايا نفسها هي من تقود كفاحنا وتحدّده. كل ما يوجد في هذا العالم ويصنَف تحت اسم "الحياة العضوية" يعيش هاربًا من الألم ساعيًا نحو اللذة. لا يفكر الفلاسفة إلا تفكيرًا ذهنيًا بحثًا يجهدون أنفسهم فيه، إن جهودهم متخيّلة وحسب. لكن الجزء غير الواعي من وجودنا ينطوي على ألف طيّةٍ أبهى وأعظم من طيّة الوعي الواحدة البسيطة؛ وإنه اللاوعي من له الكلمة الفضل.

بريك: إنّ كلّ ما صارعتَ لقوله، يؤكد إيماني بما تفوّهتْ به منذ قليل؛ إن كنّا سنتحدث فلسفيًا عن أيّ شأن، فلا بدّ من هدم اللغة الفلسفيّة وإعادة إنشائها مرّة أخرى من الأساس.

ماركل: حسن، يا إلهي، فلتأخذ سعادتك هذه، أمّا أنا فسأستبقي اللذة. آه! لكن حتى لو وافقتك على طريقة لعبك بالكلام، ما زلت أعتقد أنّه ليس كل البشر ساعين وراء السعادة. فهنالك منهم من لا يملك القدرة على مطاردتها، وهم يعرفون ذلك بألم عميق لا يرحم. هؤلاء يبحثون عن السعادة فقط ليدركوا شكلًا ما لتعاستهم وصورةً لها.

ثم فجأة ودون مقدمات قال:

- إن گلاس واحد منهم.

ملاحظته هذه صعقتني. جلست لا أملك سوى الصّمت

إجابة. إذ أنني، حتى اللحظة التي نطق فيها اسمي، ما ظننته يتحدث عن أحد سوى نفسه. وما زلت أظنّ ذلك. وفي محاولته تمويه هذا، رمى الأمر برمّته عليّ. رانَ سكونٌ ثقيل. أرسلتُ عينيّ هناك، إلى التماعات مياه النهر. اخترق نور القمر حُجُب السّحاب المتكدّس أعلى مبنى الحكومة روسنباد، وأنوارًا فضيّة شاحبة تسّاقط على أعمدة مدخل القصر القديم لعائلة بوند. وفوق بحيرة مالارين، تطفو غيمة بنفسجيّة محمرّة، ساعية في طريق عزلتها، منشقّةً عن البقيّة.

***

25 يوليو

هيلغا غرغوريوس، إنها دائمًا بين عينيّ. أراها كما بدت لي في حلمي: عارية وتمدّ يدها نحوي بورود داكنة. حمراء ربما، لكنها جدُّ داكنة. الأحمر، على أي حال، ينصبُّ داكنًا في الشفق.

لا أذهب إلى سرير نومي إلا وآمل أن تأتي مرّة أخرى في منامي.

وتلك الابتسامة المريبة التي محتها مخيّلتي شيئًا فشيئًا، لم أعد أرها.

***

ليته يعود. أعني القسّ. حينها ستضطرّ إلى المجيء إليّ. أريد رؤيتها، أشتاق لصوتها. أحبّ قُربها مني.

***

26 يوليو

وجه رجل الدّين يضطهد وجودي كلّه أنا أيضًا. يكفي ذلك التعبير الذي ارتسم عليه في الزيارة الأخيرة، عندما شرعنا في الحديث عن الأمور الجنسيّة. كيف لي وصف وجهه حينها؟ كأنَ أحدًا يشُمَ رائحةً نتنة، لكنه يُسِرّ متعةً منها.

* * *

2 أغسطس

القمر في بهائه، ونوافذي كلها مشرعة. زيت المصباح الواقف على طاولتي يحترق، وبقيّةٌ من أنسام الليل تهبّ بنعومة على الستائر، جاعلةً منها أشرعة. أقطع الغرفة طولًا وعرضًا، متوقفًا بين لحظة وأخرى عند طاولتي، مدوّنًا بعض الأسطر. أطلت الوقوف إلى إحدى النوافذ المفتوحة في غرفة الجلوس، محدقًا في الخارج، منصتًا إلى كل الأصوات الغريبة القادمة من الليل. لكن السكون يرزح ثقيلًا هناك بين الأشجار الداكنة في كنف العتمة. رأيت فقط امرأة وحيدة، قضت وقتًا طويلًا جالسةً على كرسيّ الحديقة، وكان القمر في بهائه.

* * *

عندما دخلت المنزل اليوم، كان وقت العشاء قد حلّ، ورأيت كتابًا يستلقي على منضدة الكتابة. فتحته، فسقطت منه بطاقة دعوة، من إيفا مارتنز.
أذكر أنها حدّثتني عن هذا الكتاب في أحد الأيام، فقلت لها قاصدًا لا شيء: سيكون من الممتع أن أطّلع عليه.

قلت ذلك من باب الدماثة، كي لا أكون مذنبًا في حقّها بالفظاظة، أو ازدراء ما يثير اهتمامها. ولم أفكر بالأمر بعد ذلك حتى الآن.

أمّا هي فقد فكّرت.

ألن أكون أحمق لو ظننت أنها وقعت في حبّي، ولو بمقدار رمْلة؟ إني أرى ذلك مكتوبًا في بطاقتها. لكن لو كانت تعشق رجلًا آخر، فما الذي يدفعها لحمل بعض المشاعر لي؟

لها عينان بريئتان مُخلصتان، وشعرٌ بنيٌّ غزير. أنفها ليس مستقيم الجانبين. فمها- لا أذكر فمها. بلى أذكره، أوه، إنه أحمر واسع. لكنني لا أتمثّله أمامي بوضوح الآن. في الحقيقة، لا يعرف المرء إلا الفم الذي قبّله، أو اشتهى بنهمٍ لاذع تقبيله، وإنني أعرف فمًا كهذا.

أجلس متأمّلًا بطاقة الدعوة الصغيرة البسيطة، واسمها مطبوع وباهت بعض الشيء. لكني أرى أبعد من اسمها. هناك شكلٌ للكتابة لا يُرى إلا بالنظر الدافئ الحميم. لا أعرف إن كنت أسِرّ بعض الدفء نحوها. لكنني أستطيع قراءة الأسطر غير المرئيّة: "قبّلني، كُن بعلي، هب لي عيالًا، أطلقني في الحب. أشتاق لاندفاعي في العشق".

"ما أكثر العذراوات هنا، لم يلمسهن رجل قط، ولن يُزهرن إن بقين ينمن وحدهن. فتيات مثلهن يستأهلن رجالًا طيّبين".

هكذا، بشكل أو بآخر، تكلّم زرادشت الحقيقي، القديم؛ لا الغلام حامل السّوط!

هل أنا "رجل طيّب"؟ هل أصير رجلها الطيّب؟
أفكّر بالصورة المحتملة التي رسمَتها عنّي. ففي قلبها الشفّاف، والذي لا بَد وأن يحوي بعض الأفكار اللطيفة الصادقة عن أولئك القريبين منها، وربما القليل فقط من الأفكار السيئة عنهم، أقول إن في قلبها تشكّلت صورة تحمل بعض صفاتي الخارجيّة، لكنها بالتأكيد ليست أنا. وتلك الصورة لا بدّ وأنها ترضيها- الله يعلم لِمَ، ربما لأنني بشكل أساسي أعزب. لكن لو أنها حقًا تعرفني، لو أنها صدفةً وبطريقةً ما قرأت ما أكتبه في هذه الأوراق المتناثرة، إذاً، أجل، ستتجنّب حتى الطريق التي أسلكها. أعتقد بأن الشقّ الفاصل بين روحَينا واسع جدًا. لكن من يدري؟ ربما من حسن الحظ أن يكون ذاك الشقّ بهذه السّعة، أعني لو تزوّجنا، لأنه لو كان أضيق من ذلك لاستدرجتني فكرة أن أملأه، وعندها سيحدث ما لا يُحمد عقباه! وعلى أي حال، كيف أحيا معها جنبًا إلى جنب دون أن أعطيها المفاتيح للدخول ورؤية ما هو حقًا أنا وينتمي إليّ- هل يستطيع أحد أن يعيش مع امرأة هكذا؟ دعها تعانق أحدًا آخر مؤمنة بأنه أنا- هل مسموح لي فعل ذلك؟
بالطبع، بالطبع، يمكن للمرء أن يقوم بذلك! ففي الحقيقة، هذا ما يحدث بالتأكيد وعلى الدوام: ما أقل ما نعرف عن بعضنا. فنحن نعانق ظلًا ونحب حلمًا. وعلى أي حال، ما الذي أعرفه حقًا عنها؟
لكنني الآن وحيد، والقمر في بهائه، وأشتهي امرأة. قد

أندفع ذاهبًا إلى النافذة صائحًا لها، تلك الجالسة في الأسفل، الوحيدة على كرسيَ بين الأشجار، منتظرةً أحدًا لا يأتي. إن لديَ نبيذَ بورت، وويسكي، وبيرة، وطعامًا طيّبًا، والفراش معدَ لنا.

ألن تجد جثتها معي هنا؟

***

أجلس مفكّرًا في كلمات ماركل، تلك الليلة، عن السّعادة وعنّي. لا ريب، قد يغويني الزواج فأقدم عليه، وأبيت سعيدًا سعادة طفل يلعب برمال الشاطئ؛ ذاك فقط لأغيظ ماركل.

***

3 أغسطس

أجل، إنه القمر. ها هو مرّة أخرى.

أتذكّر أقمارًا كثيرة، أقدمها ذاك الذي حطّ مرارًا على بساط أبيض مديد، خلف زجاج نوافذ طفولتي، في ليالي الشتاء. مرّة قرأت أمي علينا بصوت عالٍ "عفريت عيد الميلاد"، قصّة فيكتور رايدبيري(34)، وميّزتُ فورًا أن القمر الذي تصفه القصّة هو نفسه الذي في سمائنا. لم يكن حينها يحمل من الملامح ما يحمله الآن؛ لم يكن جامحًا ولا رومانسيًا، ولا باردًا ولا مريعًا. كان كبيرًا لامعًا وحسب. كان ينتمي إلى النافذة، والنافذة تنتمي إلى الغرفة. كان يعيش في منزلنا.

ثم كبُرت قليلًا. لاحظَ أهلي ولعي بالموسيقى، فسمحوا لي بالانضمام إلى دروس العزف على البيانو، وتقدّمت

فيها حتى عزفت جزءً من مقطوعة لشوبان[35]، ثم تغيّر القمر عليّ. كنت في الثانية عشرة من عمري عندما استلقيت أرِقًا في إحدى الليالي، لا تنطبق أجفاني لأن مقطوعة الليلة الثانية عشرة من ليالي شوبان تدور في رأسي دون توقف؛ ولأن القمر يُنير السماء. كنا للتوّ قد انتقلنا إلى بيتنا الريفيّ، نوافذ غرفتي ما زالت دون ستائر. انسكبت أنوار القمر حُرّةً لبَنِيّةً في غرفتي، على فراشي ووسائدي. جلستُ مستقيم الظّهر على سريري، ورحت أغنّي. كان لا بدّ لي من غناء ذلك اللحن الخلّاب الخالي من الكلام، والذي يرفض الابتعاد عني؛ ذاب اللحن في نور القمر، وبات في القمر ونوره وعدّ بشيء مهول، شيء سيخصّني يومًا ما؛ لم أستجلِه بوضوح؛ هل هي سعادة مدنّسة؟ أم تعاسة ثقيلة أثمن من سعادة العالم أجمع.. شيء يحرق ويضيء ويؤسّس، شيء ينتظرني. غنّيت حتى وقف أبي عند الباب صائحًا بي كي أخلد للنوم.

كان ذاك قمر شوبان. وهو القمر نفسه الذي ارتعش لاحقًا، وأحرقته الرّغبة فوق مياه أغسطس ولياليه، عندما تغنّي ابنة عمي آليس. لكم أحببتها.

بعدها، بالطبع، أذكر قمر أوبسالا. لم أرَ في حياتي قمرًا مثله، باردًا مقلوب الوجه. تتمتّع أوبسالا بطقس يختلف عن ستوكهولم؛ فهواء اليابسة أنقى وأكثر جفافًا. في إحدى الشتاءات كنت أسير جيئة وذهابًا رفقة صديق قديم، في الشوارع التي بيّضها الثّلج بين البيوت

الرماديّة والظّلال السوداء. تحدثنا عن الفلسفة. لم أقطع من العمر وقتها سوى سبعة عشر عامًا؛ كنت ضعيف الإيمان بالله، فدفعني عنادي إلى الداروينيّة[36] التي جعلت من كل شيء يبدو دون معنى، فارغًا وجديرًا بالازدراء. دخلنا تحت قوس أسود، ثم صعدنا أدراجًا حتى وقفنا قريبًا من جدران الكاتدرائية؛ نحن وسط سقّالة جعلها عامل البناء تبدو وكأنها عظام وحش مجهول طالعة من أعماق طبقات الأرض الميّتة. تحدّث صاحبي عن قرابتنا بإخوتنا الحيوانات؛ صاح وجادل، وأثبت بصوت أجشّ جاهل تتصادى لكنته الريفيّة بين الجدران. لم أقل كثيرًا في حديثي معه، لكنني قلت لنفسي: أنت مخطئ، غير أنني لم أدرس بعد ولم أفكّر بما يكفي لأدحض مزاعمك. لكن انتظر، انتظر سنةً واحدة وحسب، وسأعود إلى هذه البقعة نفسها معك، في نور القمر كما هو الآن، وسأثبت لك خطأك وكم أنت أحمق؛ لأن ما تقوله لا يمكن له، ولا يُفترض به بأيّ حال من الأحوال، أن يكون صحيحًا. ولو كان كذلك فسأقطع علاقتي بكل الأشياء، لا شأن لي بهذا العالم. لكن صاحبي استمرّ في الحديث، ولوّح بكتاب ألمانيّ كان يمسكه في يده، ومنه يستقي أفكاره. ثم فجأة توقف تحت قطعة من النور القمريّ المكتمل، وفتح الكتاب على رسومات موضحة لبعض الكلام الوارد فيه، وسلّمني الكتاب. كان القمر نيّرًا إلى درجة أنني رأيت الرسومات وشفّت من خلالها الأسطر المطبوعة خلف

الصفحة، فقرأتها. كانت صورة لثلاثة أقحاف عظميّة متشابهة: جماجم قردة الأورانجوتان أستراليّة المنشأ، في كتاب إيمانويل كانت[37]. استولى عليّ الاشمئزاز فرميت الكتاب. انتاب صاحبي غضب أعمى فهاجمني، ورحنا نتصارع تحت نور القمر، لكنه كان أقوى مني، فرزح فوقي وعفّر وجهي بالثلج، كما يفعل عادة أطفال المدارس.

جرت السنوات، وبعدها سنوات. لكنني لم أشعر قط بأنني مساوٍ له وأستطيع دحض حججه؛ وجدت أنها مَهمَة من الأجدى نسيانها. وعلى الرغم من أنني إلى الآن لا أعرف ما شأني بهذا العالم، فإنني بقيت فيه.

قابلت أقمارًا كثيرة بعدها؛ قمرًا لطيفًا رومانسيًا بين غصنين فضيّين من أشجار البحيرة، وقمرًا يهرول في ضباب البحر، وقمرًا هاربًا يتسحّب بعيدًا عبر غيوم الخريف الرثّة، وقمر العشّاق الذي يتلألأ في حديقة غريتشن[38] وشُرفة جولييت. أخبرتني امرأة غادرها الشباب وأرادت الزواج إنها لا تستطيع الامتناع عن البكاء كلما رأت القمر مشعًا فوق كوخ خشبيّ في غابة. وقال شاعر إن القمر حميمٌ ومرغوب لذاته. وحاول آخر أن يجد معنىً يبيّت فيه صورًا أخلاقيّة دينيّة لأنواره؛ حيث يشبّهها بخيوط يحوكها المولى شبكةً يصطاد بها الأرواح التائهة. أمّا للشباب، فيتبدّى القمر وعدًا لكل الأمور الرائعة التي يريدون حدوثها. ويظهر للمسنّين تذكارًا بأن الوعد لم يتحقّق، وإشارةً إلى كل ما تفتّت

إلى قطع راحت هباء.

وما هو حقًا نور القمر؟

إنه انعكاس لضوء الشمس. تدليس. خدعة مُحكمة.

* * *

القمر يحبو الآن طالعًا من وراء برج الكنيسة، وعلى وجهه نُذُر شؤم. بدت لي ملامحه ممسوخة، منهتكة، منهكة من معاناة لا تسمَّى. أيّها الرّجل الشقيّ الجالس في الأعالي، مَن مسخك؟ هل أنت ملعون؟ هل أنت مخادع، هل دنّست أشعَة الشّمس؟

في الحقيقة، ليست تلك بالجريمة البشعة، يا رجل الأعالي، لو ضَمِنَ المرء أنه لن يقترفها أبدًا!

* * *

7 أغسطس

ضوء!

...نهضتُ جالسًا في فراشي، وأضأت مصباح السرير إلى جواري. كنت أنام غارقًا في عرق بارد جعل شعري يلتصق بجبهتي من غزارة البلل. ما الحلم الذي كنت أراه؟

إنه يتكرّر. دائمًا الحلم نفسه. قتلت رجل الدّين. كان عليه أن يموت لأنه يفوح برائحة المدافن؛ وشعرت أن من واجبي القيام بالمهمة، أن أقتله.. لكنني وجدت الأمر عسيرًا ولا يبعث على الراحة، فأنا لم أجرّب ذلك في حياتي المهنيّة قط؛ لكنني استشرت زميلًا بكلّ سرور! فلم أكن لأحتمل وحدي وزر أمور المقابر هذه... لكن

هناك في الرّكن، كانت السيّدة غرغوريوس تقف عارية في ظُلمة نصف معتمة، وتحاول أن تستر نفسها بحجاب أسود قصير، وعندما سمعَتني أقول "زميلًا" بزغ من نظراتها يأس ورعب أفهماني أن المَهمّة لا بدّ وأن تُنجز الآن. وإلّا، بشكل من الأشكال لم أستوعبه، سيُقضى عليها؛ لذا عليّ القيام بذلك وحدي، وبطريقة لن يكشفها أحد من العالمين أبدًا. هكذا، حوّلت نظرتي عنها، وفعلتها. كيف؟ لا أعلم. كل ما أذكره هو أنني أمسكت أنفي وأدرت رأسي صائحًا لنفسي: هناك، أنظر هناك، لقد انتهى كل شيء. لن تنبعث منه بعد الآن روائح الشيخوخة الكريهة. وأردت أن أشرح للسيّدة غرغوريوس أنها حالة نادرة وغريبة: فالناس تنبعث منهم روائح كريهة فقط عند مماتهم، فيُدفنون. لكن إن كانت تلك الروائح تفوح من امرئٍ ما في حياته، فإنه لا بدّ من قتله، إن العلم الحديث لم يتوصّل إلى حلٍّ آخر... غير أن السيّدة غرغوريوس اختفت، ولم يعد حولي سوى فراغ يتعاظم فيبدو كل شيء فيه يبتعد عني، ينأى ويتجنّبني.

... ارتفعت الظلمة، واهبةً طريقًا لأنوار القمر الرماديّة. وكنت أجلس مثل المسمار ثابتًا على سريري، كامل الصحو، منصتًا إلى صوتي وما يهرف به...

نهضت. ارتديت بعض الملابس. وأشعلت مصابيح الغرف كلّها. سرت جيئة وذهابًا برتابة عقارب الساعة، ولوقت لم أقدّره. بعدها وقفت أمام مرآة غرفة

الجلوس، وحدّقت في صورتي الشاحبة المجنونة وكأنني أحدّق في غريب. لكني، وقد ذعرت من الرغبة الجارفة التي انتابتني فجأة في تهشيم المرآة، المرآة التي شهدت طفولتي وحياتي برقتها وكثيرًا مما حدث قبلها، ابتعدت للوقوف أمام النافذة المفتوحة. لم يعد القمر يتلألأ، والسماء تمطر مطرًا رمت الرّيح منه نفحةً على وجهي، فانتعشت.

"تجري الأحلام كالجداول..." حكمة الشّيب المتداولة. إني أعرفها جيدًا. فأغلب الأحلام لا تستحق الوقوف عندها، أو لا يمكن الوقوف عندها؛ فهي أضغاث تجارب سابقة، أغباها وأسخفها، شظايا لتلك الأمور التي حكم الوعي بعدم جدوى الاحتفاظ بها، لكنها راحت وحدها تحيى حياة الظّلال في قبو الذاكرة وحجرات صناديقها المهملة. غير أن هناك أحلامًا أخرى مختلفة. أذكر في صباي أنني قضيت نهارًا كاملًا أكدّ لحلّ معادلة هندسيّة ما، حتى كان عليّ الذهاب للنوم وهي عالقة في رأسي: استمرّ عقلي في العمل وحده أثناء نومي، ورأيت حلمًا وهبني الجواب. وكان الجواب صحيحًا. تشبه الأحلام أحيانًا فقاعات تصعد من أعماق سحيقة. والآن أستجلي الأمر بوضوح؛ لطالما علّمتني الأحلام أمرًا كنت أجهله عن نفسي، تكشف لي عن أمنيات لم أكن لأتمناها، وأهواء لم أرغب في رؤيتها هكذا خارج الليل، في ضوء النهار. هذه الأماني، هذه الأحلام، وزنتها لاحقًا واختبرتها تحت ضوء الشمس. واكتشفت أنها نادرًا ما

تصمد في ضوء النهار، وكثيرًا ما قمت بقذفها بعيدًا إلى الأعماق الفاسدة التي تنتمي إليها. قد تعاود هجومها في الليل. لكنني أتعرّف عليها في الحال فأضحك منها حدّ السخرية، حتى وإن جاءت في الأحلام، أزدريها حتى تتخلّى عن كل ادعاءاتها، وتحيا في الواقع تحت ضوء النهار.

غير أن حلم القتل هذا أمر آخر ومختلف تمامًا. وأريد أن أعرف ما هو، أن أزنه وأقيّمه. إن إحدى غرائزي الوجوديّة هي ألّا أجعل دواخلي تعاني من أمر نصف غامض، نصف مجهول، فإذا كان بإمكاني القبض عليه ورفعه أمام ضوء الشمس، فسأفعل لأرى ما هو.

لأفكّر إذًا:

التمست مساعدتي امرأة في ذروة حاجتها، فوعدتها بتلبيّة رغبتها. أساعدها إذًا، أجل... لكن كلينا لم يفهم ولم يفكّر حتى في ماهيّة هذه المساعدة، أو ما الذي ستؤول إليه. إن ما طلبته مني في المُجمل بسيط وسهل، ولم يكلّفني جهدًا ولا تأنيب ضمير. بل إنه في الحقيقة أمتعني. لقد قدّمت لهذه المرأة الودودة خدمةً حسّاسة، ونصبت في الوقت نفسه فخًا لعينًا لذاك القسّ الكريه، فما فعله ما يزال يتقطّر في غضبي الكثيف الأسود، فأرى المشهد مثل شعلة زهريّة قادمة من عالم منغلق عنّي... لكن بالنسبة لها، ألم يعنِ ما قمت به كلّ السعادة والحياة؟ السعادة كما تراها هي وكما دفعتني لرؤيتها؟ لقد وعدتها بالمساعدة وهذا ما فعلت... ما كان

يجب حدوثه قد حدث.

ولمّا راح الأمر برمّته يتّجه تدريجيًا وجهة أخرى، فإن عليّ إذًا أن أهتم بالبحث عن لُبّ المشكلة قبل الشروع بالمساعدة.

وعدتها بالمساعدة؛ لكنني لا أحب القيام بأنصاف الحلول. والآن، بالطبع، أعرف ما عرفته منذ فترة طويلة: هذه امرأة لا يمكن مساعدتها إلا بإطلاقها حرّة، تمام الحريّة.

خلال يومين أو ثلاثة سيعود القسّ من رحلته، وستُعاد الحكاية القديمة من جديد. فأنا أذرى به الآن من ذي قبل. لكن ليس هذا وحسب؛ ففي النهاية سيترتّب عليها بأيّة حال التغلّب على مشكلتها وحدها، مهما كانت صعبة، حتى لو تطلّب الأمر تمزيق حياتها إلى قطع وقطع. لكن هناك صوت يخبرني، وكأن شخصًا قال ذلك وهو يعبر أمامي، أنها قريبًا ستحمل جنينًا في أحشائها. ففي عشقها الغارقة فيه الآن، يصعب تفادي حدوث ذلك. وربما إنها لا تريد تفاديه أصلًا. حينها: عندما يحدث هذا- متى ما حدث- ما الذي سيجري...؟

عليها أن تُسقط الجنين فورًا.. فورًا.

صحيح: عندما يحدث ذلك فالاحتمال المرجح هو أنها ستأتي إليّ وتطلب مني أن "أساعدها" المساعدة نفسها التي طلبتها مني، عبثًا، نساء كثيرات، ولو جاءت حقًا وقامت بذلك، ربما سأمضي في مساعدتها؛ لأنني لا أرى كيف أحجم عن تنفيذ رغباتها. لكن حينها ستكون هذه

النقطة هي آخر ما تصل إليه الأمور وفقًا لظنوني.
سيكون قد طفح كيلي.
غير أني أشعر، أشعر وأعرف، أن الأمور لن تأخذ هذا المنحى. إنها ليست كالأخريات، لن تطلب مني هذا النوع من المساعدات.
لذا على رجل الدّين أن يرحل.
قلّب الأمر وابحثه كما فعلت، لن ترى حلًا آخر. أدفعُه لرؤية الأمور بالمنطق؟ أجعلُه يرى أنه لا يملك الحقّ في تدنيس حياتها، وأن عليه إطلاقها حرّة؟ غير معقول. إنها زوجته؛ وهو زوجها. كل شيء يقف معه وفي جهته: العالم؛ الله؛ وضميره. من الطبيعيّ أن الحبّ بالنسبة له يعني كما عنى لمارتن لوثر: أمر تحتاجه الطبيعة الأم، وهو أمر سمح الله له بتلبيتها مرّة وإلى الأبد مع امرأته التي تزوّجها. أن تلبّي شهواته بشيء من الكراهية والنفور لا يعني أبدًا أن يشكّ في أمر "حقوقه". على أي حال، أعتقد أنه يظنها تشعر سرًا في لحظات الجنس بنفس الرضى والمتعة التي يشعر بها هو، لكن على المرأة المسيحية -خاصة وإن كانت زوجة قسّ- ألّا تعترف بذلك صراحة، حتى لنفسها. حتى هو، لا يحب أن يطلق على "كلّ" ما يشعر به وقتها "بالمتعة"؛ سيفضّل تسميته "بالواجب" أو "مشيئة الرّب".. لا، فليرحل بعيدًا هذا المخلوق، ليبتعد، ليختفِ!
لأفكر إذًا: كنت أبحث عن عملٍ بُطوليّ أقوم به، أليس كذلك؟ تمنّيته بيأس. هل يُعقل أن يكون هذا عملًا

بطوليًا، عملي البطوليَ؟ المَهمَة التي لا بدّ من إنجازها، والتي لا يرى أحد سواي ضرورة القيام بها، والتي لا يستطيع أحد حملها، أو يملك الشجاعة لذلك، غيري أنا؟

قد يقول قائل إن المهمَة مريبة بعض الشيء. لكن هذا ليس سببًا، ولا يقف ضدّ ما أسعى إليه، ولا معه. إن كلمات من قَبيل "عظمة" الأمر و"جماله" هي ما يتفوّه به الناس جرّاء تأثرَهم. غير أنه من صميم تواضعي، ونواياي العفويّة، أن أُبقي الجماهير بكل شكل من الأشكال خارج هذه المسألة، ولهذا فإن هذه الصفات الخارجيّة يجب أن لا تؤخذ بعين الاعتبار. أريد أن أتفحّص النّدبات التي قد يخلّفها فِعْلي هذا عليَ؛ أريد رؤية ما قد تبدو عليه من الداخل.

أوّل التساؤلات وأهمّها: هل أريد حقًا قتل القسّ؟

"أريد".. حسنًا، وماذا يعني ذلك؟ إن إرادة الإنسان ليست وِحدة متماسكة؛ بل هي توليفة لمئات النبضات المتناقضة المتعاكسة. التوليفة تلك هي ضربٌ من الخيال، والإرادة أيضًا من صنع الخيال. لكننا بحاجة إلى الخيال، ولا وهم أشد ضرورةً من الإرادة. حسنًا إذاً: هل تريد حقًا قتل القسّ؟

أريد، ولا أريد.

أسمع أصواتًا متضاربة. لا بدّ من استجوابها. عليَ معرفة لِمَ يقول الصوت الأوّل: أريد قتله، والصوت الثاني: لا أريد قتله.

أنت أوّلًا، أيها الصوت القائل "أريد قتله" لماذا تريد ذلك؟

أجب!

- أريد أن أتحرّك. الحياة حركة، عندما أشهد أمرًا يجعلني ناقمًا، أريد أن أتدخَل. وعندما لا أتدخَل لرؤية حشرة عالقة في شبكة عنكبوت؛ فذاك لأن عالم العناكب والحشرات ليس بعالمي، فعلى المرء أن يضع حدودًا لنفسه؛ لا، لا أستسيغ الحشرات. غير أنني لو رأيت حشرة صغيرة جميلة ذات أجنحة ذهبيّة لمَاعة عالقة في شبكة، فسأمزّق الشبكة وأقتل العنكبوت لو تطلّب الأمر ذلك. فلست أؤمن بأن قتل العناكب حرام. أذهب ماشيًا في الغابة، أسمع بكاءً موجوعًا يائسًا، أركض نحوه وأرى رجلًا يحاول اغتصاب امرأة. أهرع تلقائيًا إلى تحرير المرأة بما أمكنني القيام به، حتى لو كلَفني ذلك قتل الرجل. على الرغم من أن القانون لا يعطيني حقّ القيام بذلك. يعطيني القانون الحقّ في القتل فقط دفاعًا عن النفس. والدفاع عن الذات يعني في القانون أن تكون غُرضة لاستلاب حياتك بشكل مباشر. لا يسمح لي القانون بقتل أحد آخر لإنقاذ حياة والدي أو ابني أو أعزّ أصدقائي، أو لأحمي حبيبتي من أذى واغتصاب. بكلمة واحدة، القانون أحمق؛ ولا وجود لأحد يحترم ذاته يسمح للقانون بالتحكّم في أفعاله، أو أن يرشده في تصرفاته.

- لكن ماذا عن القانون غير المكتوب، الأخلاق...؟

- صديقي العزيز، أنت تعرف كما أعرف أن القانون في حالة من السيلان الدائم. فقد طرأت عليه تغييرات عدّة

حتى في هذه اللحظات العابرة من تاريخ العالم التي عايشناها معًا. أمّا الأخلاق فهي تلك الدائرة الطباشيريّة التي تُرسم حول دجاجة ما، فلا تتخطاها؛ إنها تُلزم المؤمنين بها. الأخلاق هي وجهة نظر الآخرين لما هو صحيح. لكن موضع التساؤل هنا هو وجهة نظري أنا. صحيح أنه في أحيان كثيرة، أو في أغلبها وفي القضايا المتواترة الحدوث، تتطابق رؤيتي لما هو مقبول مع رؤية الآخرين، مع "الأخلاق"؛ وفي أحيان أخرى كثيرة، عندما يبدو أن الانقسام في الرؤى بيني وبين الأخلاق لا يستحق المخاطر المناطة بإعلان ذلك، فإنني أسلّم بالأمر الواقع. ولذلك غدت الأخلاق بالنسبة لي، بشكل واعٍ، ما هي عليه عند الآخرين فعليًا بشكل لا يعيه أغلبهم: ليست قانونًا يقيّد الجميع، بل طريقة لقضاء الحياة اليوميّة، تلك الحياة التي لا تتوقف خلالها الحرب الدائرة بين النّفس والعالم. أعرف وأعترف بأن الأخلاق الحاليّة، في فهمها العام، كما هو القانون البرجوازي، تعبّر عن مفهوم الصّواب والخطأ: فاكهة العصور التي سُلّمت من يد إلى يد، جيلًا بعد جيل، ناميةً ببطء ومتغيّرة وفقًا لتلك الظروف الأهمّ بالنسبة للوجود الاجتماعيّ للبشريّة. أعتقد أيضًا أنه لا بدّ من احترامها لكي تكون الحياة هنا على الأرض قابلة للعيش، على الأقل بالنسبة لمخلوقات هي نحن؛ مخلوقات لا يمكن استحضار وجودها في إطار غير إطارنا الاجتماعيّ الذي يُسقى بكل حقوقه المتغيّرة،

ويتغذى على شتى مفاصل حياتنا من مكتبات، ومتاحف، وشرطة، وشبكات مياه، وأضواء شوارع، وعمليّات التخلّص من المزابل ليلًا، وتغيير الحرَس، ومواعظ، وأوبرا، ورقصات باليه، وغيرها. وأعرف أيضًا أن مَن يُمعن التفكير في القوانين فإنّه لن يتحذلق في فهمها، فهي صارمة، بعكس الأخلاق. إن مكان الأخلاق هو بين أثاث البيوت، بيننا، لا بين الآلهة، متعالية علينا؛ أي أنها هنا لخدمتنا، لا للتحكّم بنا. لذلك لا بدّ من تطبيقها بشيء من التمييز! "بقبضة صغيرة من الملح"؛ لأنه من الحِكمة أن نتبنّى دومًا عادات المكان الذي نأتي إليه، ومن السذاجة بالطبع تبنّيها كلها بعماء أو من باب العطف. لذلك أنا مترحّل في هذا العالم؛ أتفحّص عادات الشعوب وأتبنّى منها المُجدي والنافع. فالأخلاق مُستقاة من العادات، إنها تعتمد دومًا عليها، ولا تعرف أرضًا غيرها، ولست بحاجة لأن يُقال لي إنني بقتلي ذاك الرَجل أقترف أمرًا يناقض المتعارف عليه! أيتها الأخلاق: هل تمزحين؟

- أعترف بأنني طرحت التساؤل بشكل عام كي أسائل النموذج؛ حيثما يكون موضوع الأخلاق محطّ نقاش فإنني أعتقد أننا متفاهمان ونلتقي عينًا لعَين. على الرغم من ذلك فإنني لن أتركك تذهب. ففي البدء، لم يكن السؤال الذي نناقشه هو ما إذا كنت تتحلّى بالشجاعة في وجه العادات والتقاليد لتنفّذ ما تريد، بل السؤال هو لماذا تريد ذلك؟ وقد أجبت بحكاية الغاصب

الذي انفرد بامرأة في غابة. يا للمقارنة! في اليد الأولى مجرم صريح، وفي الأخرى رجل دِين مسنّ لا يُلام وهو أهل للاحترام!

- أجل، أعترف أن مقارنتي عرجاء بعض الشيء. لقد أحلتك إلى رجل مجهول وامرأة مجهولة وبينهما علاقة غير محدّدة. لست أعرف ما إذا كانت المرأة المجهولة تلك تستحق أن أقترف جريمة من أجلها. ولست متأكدًا من أن هذا الرجل المجهول الذي يتهاوى شهوةً لامرأة شابّة في أعماق غابة، يستحق الموت لذاك السبب.

في النهاية، لست بواثق من أن الخطر الحقيقي، الذي يشكّله الرجل، يهدّد المرأة حقًّا بما يدعوني للتدخّل بهذا الشكل. المرأة تصرخ لأنها مرعوبة؛ ولأنّه يؤذيها؛ لكن لا يمكن القول إن الضّرر الحاصل يقاس بصرخاتها. ربما ينتهي الأمر إلى أن يكونا صديقين قبل أن يفترقا. كثيرٌ من حالات الزواج في الريف تبدأ من حوادث اغتصاب، ليمضي الزواج ليس أقل سوءً من بقيّة الزّيجات. وفي يوم من الأيام كان اختطاف النساء قسرًا هو السبيل الطبيعي للاقتران والزواج. ولذلك، في مثالي هذا، لو قتلت الرجل لتحرير المرأة، وهو الصّنيع الذي يخيّل لي أن كلّ من يحمل رؤى أخلاقية، بمعزل عن القُضاة، سيُطريه ويُثني عليه، والذي سيقودني أمام المحاكم الأمريكيّة أو الفرنسيّة إلى براءة مثيرة للجدل، وتصفيق عارم من الجماهير- فأنا أتصرف عفوَ قلبي، دون تعمّق؛ ولذلك قد تصدر مني أفعال غبيّة. غير أن قضيتي لها

ترتيبات مختلفة تمامًا. ليس السؤال هنا عن محاولة اغتصاب واحدة في مكان ناءٍ ومنعزل، بل نتحدث هنا عن علاقة، أي شأن من شؤون الحياة والموت؛ لأن الاغتصاب يحدث بتكرار أبديّ. ولهذا فإن المسألة هنا لا تخصّ رجلًا مجهولًا، ذا قيمة مجهولة، بل رجلًا تعرفه حقّ المعرفة! القسّ المبجّل غرغوريوس. المسألة هنا تأخذ منحى النّجدة والإنقاذ، لا بخصوص امرأة مجهولة، بل حبيبتك السريّة...

- لا، لا! هذا كثير! لا تنبس بكلمة أخرى!

- هل يستطيع رجل أن يترك حبيبته تُهان، وتُسحق، وتُنهب كرامتها أمام عينيه، ويسكت؟

- اخرس! إنها تحب رجلًا آخر. وذاك شأنه لا شأني.

- أنت تعرف أنك تحبها. ولهذا فهو شأنك.

- قلت اخرس!.. أنا طبيب. وتريد أن تشوّشني وتبلبل ذهني كي أقتل رجلًا مسنًا جاء إليّ طلبًا للمعونة!

- أنت طبيب. كم مرّة تفوهت بهذه العبارة: "واجبي كطبيب يحتّم عليّ...". هيّا الآن، ها هي الفرصة أمامك ناصعة كما أظن. واجبك كطبيب يحتّم عليك مساعدة الشّخص الذي تُمكن مساعدته، وتجب مساعدته، وإزالة قطعة اللحم الفاسدة التي تُفسد اللحم الصالح من حولها. وبالطبع لن تصيب عظَمةً ترجوها من وراء ذلك، ولا شُهرة، فلا يمكنك أن تدع أحدًا يعلم بالأمر، وإلّا ستقبع في سجن لنغولمن، أو مستشفى مجانين كونرادزبيري.

لاحقًا، هبّت ريحٌ مفاجئة دفعت السَتارة نحو المصباح. أتذكّر كيف التقط طرف السَتارة النار، وكيف نهضتُ بسرعة وخنقت الشعلة الزرقاء الصغيرة بكفّي، ثم أغلقت النافذة. فعلت ذلك كلّه تلقائيًا، دون وعي تقريبًا. التطم المطر بزجاج النافذة. المصابيح تشتعل بثبات واستقامة. وعلى أحدها عثّة ليل، رماديّة هشّة.

جلست محدقًا في الشعلات الناهضة للمصابيح، وكأني لم أكن هناك. خُيّل لي أني غصت في شكلٍ من أشكال الغيبوبة. ربما نمت للحظة. لكنني فجأة استيقظت، وكأنني أفيق من صدمة عنيفة، وتذكّرت كل شيء: السؤل الذي لا بدّ من الإجابة عليه، والقرار الذي يجب أن يُتّخذ، قبل أن أستطيع الخلود للراحة.

حسنًا إذًا، أنت تقول "لا أريد قتله،" حان دورك الآن، لماذا؟

- أنا مرعوب. وأكثر ما أخشاه هو أن يُكشف الأمر، فيُقبض عليّ وأنال "العقاب". أنا لا أستخفّ بحكمتك، ولا دهائك، وأؤمن بأنك سترتّب كل شيء حتى ينتهي الأمر كما يرضينا. لكنني أضع احتمالًا وحسب. إنها مجازفة، ولا بدّ أن هناك خطرًا ما، قد يحدث ما لم نتوقعه.. لا أحد يعرف على وجه الدقّة كيف ستجري الأمور.

- على المرء أن يخاطر بشيء في هذا العالم. ثم إنك أردت أن تجازف. هل نسيت ما كتبته هنا، في دفتر اليوميّات هذا، قبل أسابيع، قبل أن نعرف أيّ شيء ممّا

حدث بعدها؟ المكانة، الاحترام، المستقبل؛ وكل تلك الأشياء التي كنت مستعدًا لقذفها على ظهر أوّل سفينة تأتي مبحرة بمحاذاتنا.. هل نسيت؟ هل أقلب الصفحات؟

- لا، لم أنس. لكن لم أكن صادقًا! كنت أثرثر وحسب. أمّا الآن، والسّفينة قادمة حقًّا، تنتابني أحاسيس مختلفة. وبالطبع تستطيع فهم أنني لم أتخيّل السّفينة هكذا؛ شيطانيّة وتسكنها الأشباح! لقد كنت أتبجّح وحسب. أقول لك. لقد كذبت. لا أحد يسمعنا الآن؛ أستطيع أن أصدقك القول. حياتي فارغة، شقيّة، لا أجد فيها أيّ معنى؛ لكنني أتشبّث بها؛ أحب أن أسير تحت ضوء الشمس وأراقب الجموع. لا أريد أن يكون عندي ما أخفيه عنهم وما أخاف الجهر به عاليًا. أتركني بسلام!

- السلام! لا لن تعيش بسلام على أي حال. هل تريد أن ترى المرأة التي تحب غارقةً في الوحل، عندما تستطيع بحركة واحدة أن تنقذها؟ هل سأحظى بأيّ سلام إذًا، في أيّ وقت، إن أدرت لها ظهري، وانطلقت تحت أشعّة الشمس محدّقًا في الجموع؟ هل سيكون هذا سلامًا؟

- أنا خائف. ليس فقط من احتمال أن ينفضح أمري؛ فلطالما حملت معي أقراصي المسمومة، وأستطيع إنهاء لعبة حياتي متى ما أردت. لكنني خائف من نفسي، إذ ما الذي أدركه منها؟ أنا مرتعب من أمر تدخّلي في شأن سأعلَق به إلى الأبد، وسيقيّدني، ولن يدعني أرحل. إنّ الذي تطلبه منّي لا يجد أمامه أي عقبة؛ إنه أمر سأوافق

عليه لو أن أحدًا آخر قام به، وِفق الخلفيَة والمعطيات التي أعرفها؛ لكن هذا ليس من اختصاصي. إنه يعارض ميولي وعاداتي وطِباعي وكل ما هو أنا. لم أخلق لهكذا أمور، صدّقني. هناك الآلاف من سارقي الأرواح السّريعين، الذين يقتلون أيّ رجل ببراعة قتلهم حشرةً طائرة. لِمَ لا يقوم أحدهم بالمهمَة؟ أنا خائف من أن يؤنّبني ضميري؛ لأنّ هذا ما يحدث لك عندما تحاول أن تنسلخ من جلدتك. أمّا عندما تتصرّف وفقًا لشخصيّتك، فأنت تعرف حدودك، وأنا أعرفها.

يقترف الناس، كلّ يوم، وبسهولة ناعمة، ما يصفعُ وجه قناعاتهم بقوّة ويعارض آراءهم، دون أن يتحرّك ضميرهم إلّا كما تتحرّك سمكة صغيرة في الماء. لكن اذهب وحاول أن تقوم بعكس بِنائك الداخليّ، ستسمع حينها لضميرك صراخًا ما أعلاه! ستسمع مُواءً يتصادى! أنت تقول أنّك لطالما تمنّيت القيام بأمر بطوليّ- لكن هذا مستحيل، إنه ببساطة غير صحيح، لا بدّ وأن هناك سوء فهم ما. من غير الوارد أنني تمنّيث أمنية مجنونة كهذه- أنا الذي وُلدت فى وضعيّة المراقب، وأردت الجلوس دومًا مرتاحًا في كرسيّ البلكونة خاصّتي، ناظرًا إلى الناس يتحركون على المسرح، ينحر بعضهم البعض الآخر دون أن أتدخّل. أريد أن أبقى في الخارج. أتركني بسلام!

- هراء! أنت حثالة!

- أنا خائف. هذا كابوس. ما لي وهؤلاء الناس وعلاقاتهم

القذرة! كم أبغض رجل الدّين حدّ أن أخافه، لا أريد لأقداره أن تختلط بأقداري. ما الذي أعرفه عنه؟ ما الذي أبغضه فيه ممّا ليس "فيه"، بل في "الصورة" التي صنعتُها عنه- لا بدّ وأنّه التقى مئات البشر، بل الآلاف منهم، دون أن يُثير فيهم من التقزّز ما أثاره فيّ. الصورة التي أودَعها في روحي لا تُمحى بمجرّد اختفائه، فكيف إذا كنت أنا تحديدًا سبب اختفائه! إن كان بالفعل يقلقني في حياته، فمن يدري ما سيقوم به في مماته؟ أعرف ذاك كله. لقد قرأت راسكولينوف[39]، وقرأت تيريز راكون[40]. لست مؤمنًا بالأشباح. لكنني لا أريد أن أوصل الأمور إلى منعطف يدفعني لإعادة التفكير بالأمر. ما علاقة ذلك كله بي؟ أريد أن أرحل. أريد أن أرى غابات وهضابًا وأنهارًا. أريد أن أتجوّل تحت أشجار هائلة الخُضرة، وفي جيبي دفتر أنيق صغير، مفكّرًا بالجمال، والحُسن، والخير، أفكارًا هادئة، أفكارًا يمكن للمرء أن يطلقها عاليًا، ويصبح مشهورًا جرّاءها. دعني أذهب، دعني أبتعد غدًا.

- هراء!

في الضوء الشاحب للفجر، كان زيت المصابيح يحترق بشعلة بُنيّة متّسخة، وعلى طاولة الكتابة تستلقي عثّة الليل بأجنحة صهباء.

رميت نفسي على الفراش.

***

---

[27] الحَوْلِيّات: هي مطبوعات تصدر سنويًا، فيها

موضوعات متعددة نوعيّة، وتقدّم فيها أحدث المعارف والحقائق والأحداث والإحصاءات في مختلف المجالات. م.

(28) ذنب الدجاجة (نجم) هو التاسع عشر من بين أكثر النُّجوم التي تراها العين المجردة سطوعًا. يصفه الفلكيون بالعملاق العظيم فائق الزُرقة، إذ يبلغ قطره نحو 200 ضعف قطر الشمس. م.

(29) دليلة هي فتاة فلستية من نبلاء القوم، جاء ذكرها في الكتاب المقدس في سفر القضاة. تمكّنت من القضاء على القاضي اليهودي شمشون بعد أن أحبها، حيث قصّت له شعره وهو سرّ قوّته، فنفّذ أول عملية انتحارية مدوّنة في التاريخ بتدمير المعبد على رؤوس المتواجدين فيه. م.

(30) مدام دو مانتينون (1635-1719) قضت معظم صباها في الدّير. وقد استرعت انتباه الملك لويس الرابع عشر الذي سرعان ما وقع في حبها. تزوجها سرًا بعد مضي سنتين على وفاة زوجته وبقيا معاً طوال حياة الملك. كان لها تأثير ونفوذ على الملك في الشؤون السياسية. م.

(31) إريستبوس القوريناني، فيلسوف إغريقي مثالي وتلميذ لسقراط، أسس في قورينا في شمال أفريقيا مدرسة فلسفية عُرفت بمدرسة اللذة. لقد ربط الحسيّة في نظرية المعرفة بمذهب اللذة في

فلسفة الأخلاق، واعتبر اللذة هي الغرض الأقصى للحياة، غير أنه نادى بضرورة ألا يكون الإنسان خاضعاً للّذة تمامًا بل عليه السّعي إلى المتعة العقليّة التي هي أكبر النعم، كما يعتقد. م.

(32). بير هالستروم (1866-1960) كاتب وقاصّ سويدي، عضو الأكاديمية السويدية ورئيس اللجنة المانحة لجائزة نوبل للآداب. اشتهر بمجموعاته القصصية التي تتميّز بحسّها العالي تجاه موضوعة الجمال. م.

(33). إحدى أناشيد الأطفال في السويد، لكن هالستروم استبدل الفانوس بالسعادة في قصّته. م.

(34). فيكتور رايدبيري (1828-1895) روائي سويدي. عضو الأكاديمية السويدية المانحة لجائزة نوبل منذ عام 1877 وحتى وفاته. يلقّبه النقّاد بآخر الرومانسيين في السويد، ويعتبر من كتّاب الصفّ الأوّل هناك. م.

(35). فردريك شوبان (1810 - 1849)، مؤلف موسيقى كلاسيكي بولندي. كانت موسيقاه سببا في تجديد أسلوب العزف على البيانو. تفوق على العازفين الذين سبقوه باستخدام أصابعه بطريقة حديثة مثل التفاوت في قوة الضرب واستعمال الإيقاع الحر حتى أنه لقّب بشاعر البيانو م.

(36) الداروينية هي مجموعة حركات ومفاهيم فلسفية واجتماعية مستمدّة من الباحث الإنجليزي شارلز داروين، الذي نشر في سنة 1859م كتابه «أصل الأنواع»، وقد ناقش فيه نظريته في النشوء والارتقاء (التطوّر والاصطفاء الطبيعي) التي تسببت في زعزعة بعض المفاهيم الدينية. م.

(37) إيمانويل كانت، فيلسوف ألماني (1724-1804). كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. أكثر أعماله شهرة هو كتابه "نقد العقل المجرد" الذي يبحث فيه محدوديّات العقل البشري. م.

(38) حبيبة فاوست، الشخصية الرئيسة في رائعة الأديب الألماني غوته. م.

(39) راسكولينوف بطل رواية (الجريمة والعقاب) للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي. يكشف الكاتب من خلال شخصيته ما يعتمل في نفس المجرم وهو يقدم على جريمته، ويصور مشاعره وردود أفعاله، كما يرصد المحرك الأول والأساس للجريمة. م.

(40) تيريز راكون هي عنوان رواية للكاتب الفرنسي إميل زولا. تحكي قصة امرأة شابة متزوجة من ابن عمها بترتيب من عمتها المستبدَة.

زوجها أنانيّ وسقيم، ولذلك عندما سنحت لها الفرصة دخلت في علاقة عاطفية جامحة مع أحد أصدقائه. م.

8 أغسطس

قضيت وقتي بين ركوب الخيل والاستحمام بحرارة الشمس. أجريت العمليّة الجراحيّة صباحًا وأدّيت زياراتي المعتادة لمرضاي. مرّة أخرى ينسدل الليل. أنا متعب.

يبدو برج الكنيسة القرميديّ شديد الحُمرة في شمس المساء. وخُضرة الأشجار تصير الآن داكنة ومهيبة، وما أعمقها تلك الزُّرقة في البُعد. إنها ليلة السّبت: أطفال رثّون يلعبون هناك في درب الحصى لعبة المربعات. من إحدى النوافذ يظهر رجل يرتدي قميصًا طويل الأكمام، وينفخ عازفًا بالنّاي. إنه يعزف الفاصل الموسيقي الثابت في أوبرا «كافاليريا راستيكانا[41]» غريب، كيف تنتشر الألحان! بالكاد مرّت عشر سنوات على انتظام هذا اللحن من فوضى تشويش أصوات كثيرة، تعشّش في رأس موسيقيّ إيطاليّ مُعدَم؛ ربما حدث ذلك في إحدى الليالي تحت انعكاسات الشفق، ربما في ليلة كليلتي هذه. باذرًا روحه، أثمرت ألحانًا أخرى، مقطوعات أخرى بالرّوح نفسها فأصاب منها شُهرةً عالميّة؛ وهبته حياة جديدة، سعادة جديدة، أحزانًا جديدة، وثروةً لتبذيرها على طاولات مونت كارلو. بينما اللّحن نفسه ينتشر مثل مرض يعمّ الأرض، مُحققًا مأثرَته القدريّة في اتّخاذ دورٍ ما في حياة الناس، أكان خيرًا أو شرًّا؛ دافعًا الحياء في الوجنات، وجاعلًا العيون تلمع؛ يحبّه ما لا يحصى من

الناس؛ وقد يكون أكثرهم أولئك الذين لم يُثر في نفوسهم عندما سمعوه لأوّل مرة سوى الانزعاج والضّيق. وبشراسة وعناد يقرع آذان أولئك الذين جفاهم النوم في الليالي الطويلة. ويُثير حنق رجل الأعمال الذي يجلس متضايقًا لأن الأسهم التي باعها الأسبوع الماضي ارتفع سعرها، ويشوّش على المفكّر الذي يحاول جمع أفكاره لتنتظم في قانون جديد، أو يتراقص حول نفسه في المساحات الفارغة من ذهن شخص غبيّ. وحين يكون مبدع اللحن قد شقي منه وانزعج حدّ المرض، يكون اللحن ما زال ينتزع تصفيق الجمهور الحار ليلة بعد ليلة في ملاهي العالم كلّه. وها هو الرجل هناك يجلس إلى نافذته المفتوحة ويعزفه على النّاي.

***

9 أغسطس

العناد يعني القدرة على الاختيار. أوه، ما أصعب الاختيار!

إنّه في أحد أوجهه انكسار للنفس. أوه، ما أقسى انكسار النفس!

حدث وأن كان هناك أمير صغير أراد الخروج في رحلة. سألوه: هل تحب سيادتك الذهاب على ظهر حصان، أم بالقارب؟ فأجاب: أريد اعتلاء ظهر الحصان والرحيل بالقارب!

نسعى إلى كل شيء، نريد أن نكون كل شيء. نريد تذوّق كل متع السعادة، وكل أعماق المعاناة. نريد انفعال الحركة وهدوء المُشاهد. نرغب بالاثنين، سكون الصحراء وعصف الميادين العامّة. نريد أن نكون في اللحظة نفسها أفكار المفكّر وصوت الجموع؛ نريد أن نكون الحرف والنّغمة في آن! في آن! كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث!

"أريد اعتلاء ظهر الحصان والرحيل بالقارب".

* * *

10 أغسطس

هناك ما هو فارغ ومسطّح في مرأى ساعة جيب سقطت منها عقاربها. إنها تذكارٌ لوجه رجل ميت. إني أجلس محدّقًا في ساعة كهذه. في الحقيقة هي ليست ساعة على الإطلاق، بل عُلبة مدوّرة فارغة لها وجه ساعة جميلة قديمة. للتوّ رأيتها في نافذة عرض دكّان السّاعاتيّ المحدّب، الواقع في الزقاق من حيث آتي إلى بيتي، تحت أضواء الغسق الأصفر الجهنميّ- غسق غريب؛ تخيّلت أن النهارات لا تنتهي هكذا إلّا في الصّحاري... كان قد أصلح لي ساعتي من قبل، فدخلت الدكّان وسألته ما هي تلك الساعة التي دون عقارب؟ رشقني بابتسامة المحدودب الذكيّة، وأراني العلبة الفضيّة القديمة الأنيقة؛ إنها عملٌ فنيّ بديع؛ لقد ابتاعها من مزاد، وهي في حالة رديئة ولا تعمل، وكان ينوي

إصلاحها وتركيب عقارب جديدة فيها. لكنني ابتعث الساعة كما هي.

نويث أن أضع فيها بعض أقراصي المسمومة لأحملها معي في جيب معطفي الأيمن كذَيل لساعتي الأساسيّة.

إنها تنويع فقط لحيلة ديموستينيس[(42)]: القلم المسموم. لا أبتدع جديدًا!

* * *

الآن يحلّ الليل؛ هناك نجمة تتلألأ خلال الزخرفة الخضراء الهائلة التي تصنعها أوراق شجرة الكستناء الضخمة. أشعر أنني سأنام جيّدًا الليلة؛ الطقس عليل، وهادئة دخيلة رأسي. لكنني بالكاد أستطيع جرّ ذهني بعيدًا عن الشجرة والنجمة.

الليل. يا للكلمة الجميلة! الليل أقدم من النهار، هذا ما قاله شعب بلاد الغال العتيق. لقد آمنوا بأن النهار العابر، المؤقّت، وُلد من الليل الأبديّ.

الليل العظيم، اللامتناهي.

حسنًا، هذا مجرّد كلام بالطبع...

ما الليل، ما هذا الذي ندعوه بالليل؟ إنّه الظلّ المخروطي النحيل لكوكبنا الضئيل. هذا الكُوز المسنّن قليلًا من العتمة وسط محيط من الضوء. وهذا المحيط من الضوء، ما هو؟ شرارة في الفضاء. السطوع المحدود حول نجمة صغيرة: الشمس.

آه، أي آفة هذه التي اجتاحت البشر، دافعةً إيّاهم

للسؤال عن ماهيّة كل شيء؟ أيّ نوع من السياط تسوطهم ليفرّوا خارج دائرة الكائنات، من إخوتهم في كوكب الأرض، مَن يزحف منهم ومَن يمشي أو يعدو أو يتسلّق أو يطير؛ ما الذي يقود الإنسان خارجها ليرى عالمه وحياته من عَلٍ، من الخارج، بعينين منسلختين باردتين، فيجدها ضئيلة، ولا تستحق العناء؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ متى سينتهي كل شيء؟ لا بدّ لي من التفكير في صوت المرأة الممتعض الذي سمعته في حلمي؛ ما زلت أسمعه يدوي في أذني. صوت امرأة عجوز أسَنّها النّحيب: العالم يحترق، العالم يحترق!

عليك أن تنظر إلى عالمك من زاوية نظرك الخاصة، لا من زاويةٍ ما متوهّمة في الفضاء. وحاول أن تُعاين مآزق الناس بتواضع ووفقًا لرأيك ومقاييسك التي تأخذ بها في ظروفك الخاصّة. حينها ستغدو متفهّمًا، وتتسع الحياة بما يكفي لتجد أنها مُهمّة؛ وترى الليل لا متناهٍ، وعميقًا.

* * *

12 أغسطس

هذا المساء، تنعكس أشعّة الشمس بألق على الديك المعدنيّ فوق قبّة الكنيسة.

أجدني مفتونًا بهذا الصّنيع الذكيّ الذي يدور دومًا باتجاه الريح. إنه بالنسبة لي تذكير مستمرّ لذلك الدّيك الذي يصيح ثلاثًا في المناسبات، وهو رمز بارع للكنيسة

التي لطالما أنكرت سيّدها الذّكر، وشهواته الفاجرة.
في باحة الكنيسة، يسير راعي الأبرشيّة جيئةً وذهابًا، مستندًا على ذراع زميل له أصغر عمرًا، متأمّلًا المساء الصيفيّ البهيّ. نافذتي مفتوحة، والعالم في الخارج هادئ جدًّا، حتى أن كلمة أو كلمتين ممّا يقولانه تناهت إلى سمعي هنا في الأعلى. إنهما يتحدثان عن انعقاد انتخابات وشيكة لأسقُف جديد[43]. وسمعت الرّاعي يقول: غرغوريوس. نطق الاسم دون حماس أو أدنى ذرّة من تعاطف. يُعتبر غرغوريوس من رجال الدين الذين لطالما اجتذبوا عامّة الناس إلى صفّهم، ولهذا فإن زملاءه أنفسهم يقفون ضده. فمن خلال نبرة صوته، عرفت أن الراعي قد أتى على ذكر اسمه لمامًا، بشكل عابر فقط ودون أن يمدحه أو يعترف بأن لديه فرصةً جيّدة للفوز في الانتخابات.
وهذه أيضًا وجهة نظري. فلا أظن أن لديه تلك الفرصة. وسيصعقني تمامًا أن يفوز بالأسقفيّة..
اليوم هو الثاني عشر من أغسطس؛ وكان قد ذهب إلى بولار في الخامس من يوليو لقضاء ستة أسابيع من النقاهة. لم يتبق كثيرًا من الأيام حتى يعود إلى هنا مرّة أخرى بصحّة ونشاط، بعد مكوثه قرب مسطّحات المياه.
* * *

13 أغسطس

كيف أقوم بذلك؟ لقد بتُّ أعرف الإجابة منذ مدّة. قامت

المصادفات بترتيب الأمور حتى صار الحلّ محبوكًا ببراعة: أعني أقراص سيانيد البوتاسيوم التي صنعتها مرّة لي، وحدي دون غيري، لا بدّ من استدعائها للخدمة الآن.

أمر واحد بدَهي: يستحيل أن أعطيها له كي يبتلعها في منزله. لا بدّ له أن يتناولها هنا، أمامي وفي مكاني. لن يكون مشهده سارًا للنظر. لكنني لا أجد خيارًا آخر، وأريد المضيّ في الأمر فورًا دون تأخير. إذا أخذ الأقراص معه إلى البيت، معتمدًا على وصفتي الطبيّة، فالخوف يكمن في احتمال أن تجد الشرطة علاقة بين الأمرين. والأسوأ من ذلك هو أن توجّه أصابع الاتهام إلى تلك التي أريد إنقاذها، فتدخل في معمعة لا نهاية لها؛ سيتلطخ اسمها أبد الدهر، وربما تُدان بقتله...

البديهة تقول باستبعاد كل ما يستدعي وجود الشرطة أو يثير ريبتهم. يجب ألا يعرف أحد بأن القسّ تناول أيّ دواء. لا مناص من أن يموت موتًا طبيعيًا؛ نتيجة سكتة قلبيّة. ولا أريدها، حتى هي، أن تشكّ في حدوث أمر مريب. بالطّبع إن موته في عيادتي يسيء إلى سمعتي كطبيب، وسيعطي زملائي الظرفاء فرصةً لبث التعليقات الكريهة حولي. لكن هذا لا يشكّل عندي أيّ فرق.

سيأتي لزيارتي يومًا ما. سيشكو من قلبه أو يتحدث عن أيّ أمر سخيف آخر، ويريدني أن أتأكد من أنّه بات في

وضع أفضل بعد استجمامه الطبيّ. لا أحد يسمع حديثنا: غرفة مكتبي العريضة تقع بين غرفة الانتظار وغرفة العمليّات. أنصت إلى قلبه، أنقر على صدره بسمّاعة القلب، أعلن حدوث تطوّر ملحوظ؛ لكن أُتبع كلامي بالقول إن هناك أمرًا واحدًا لست مطمئنًا بشأنه.. ثم أُخرج الأقراص وأشرح له أنها علاج جديد ضد بعض أمراض القلب (لا بدّ لي من اختراع أسماء معيّنة لهذه الأمراض،) ثم أنصحه بتناولها فورًا. سأقدّم له كأسًا من نبيذ بورت، هل يحتسي النبيذ؟ بالطّبع.. بالطّبع، لقد حكى لي عن مآثره في إحدى الاحتفالات بعُرس قانا[44].. سأعطيه القليل من النبيذ الجيّد. قنينة غرونستيد ذات الوسم الرماديّ ستفي بالأمر. كأنني أراه أمامي الآن: يرشف من كأس النبيذ رشفة بسيطة، ثم يضع القرص على لسانه ويزحلقه إلى جوفه بشُرب الكأس دفعة واحدة. تعكس عدستا نظارته النافذة وتخفيان نظرته... أشيح بعيدًا عنه، أسير نحو النافذة وأرسل نظري إلى باحة الكنيسة، أقف ناقرًا بأصابعي زجاج النافذة في إيقاع معيّن... يقول شيئًا ما، ربما أن النبيذ كان جيّدًا مثلًا، لكنه يصمت في منتصف العبارة... أسمع ارتطامًا، ثم أراه منبطحًا على الأرض...

لكن ماذا لو رفض أخذ القرص؟ أوه، بلى سيأخذه ولو من باب المجاملة والحرص، فهو مجنون بشأن الأدوية. لكن ماذا لو رفض؟ حسنًا، في هذه الحالة عليّ التخلّي

عن الأمر. ففي النهاية، لا أستطيع قتله بفأس.
...إنه ينبطح على الأرض. أزيح علبة الأقراص، وقنّينة النبيذ، والكأس. أقرع الجرس لتأتي كرستين: القسّ مريض، أُغمِيَ عليه فجأة، سوف يفيق بعد قليل... أستشعر نبضه، أنصت إلى قلبه، وأقول معلنًا النهاية:
- إنها سكتة قلبية. لقد مات.
أهاتف زميلًا لي. حسنٌ الآن، من سيكون الزميل الذي سأهاتفه حينها؟ لأفكّر. فلان؟ لا لن يفعلها؛ فقد كتب ورقةً قبل سبع سنوات تناولتُها بنقدٍ لاذع في إحدى المجلات الطبيّة. ماذا عن فلان، أو فلان، وفلان: رحلوا بعيدًا. وفلان؟ أجل، عليّ أن أختاره. أو ربما فلان؟ أو إذا كان الأمر حرجًا حقًّا، ففلان..
سأقف على عتبة باب غرفة الانتظار، شاحبًا شحوبًا لا ريب فيه ويساوي هَوْل ما حدث، وأعلن للمرضى بصوت خفيض ومتحكّم به بأن أمرًا طارئًا حدث، ولا بدّ لي من إلغاء ساعة الاستشارات اليوم.
يصل زميلي. أشرح له ما جرى. عانى القسّ لفترة طويلة من مشاكل قلبيّة جديّة. فيقوم بشكل ودود بمشاطرتي أساي لسوء حظّي، فلم يجد القسّ مكانًا يموت فيه سوى العيادة الطبيّة! ثم بطلبٍ منّي يكتب شهادة وفاة... لا، لن أقدّم للقسّ أيّ نبيذ؛ لربما يدلق بعضه على نفسه، أو أن الرائحة تكشف أنه كان يشرب، وسيكون أمرًا يصعب عليّ شرحه... عليه أن يقبل بكأس

من الماء. على أي حال، أنا من القائلين بأن النبيذ مُضِر.

لكن ماذا لو انتهوا إلى تشريح الجثّة؟ حسنٌ، وقتها سآخذ أنا نفسي قرصًا.

موهوم من يظن أنه قد يخوض أمرًا كهذا دون التعرّض للمخاطر، وما أكثر ما انكشف لي منها، حتى قبل أن أبدأ. لا بدَ أن أستعدَ لأيّ تطورات مضاعفة.

حصرًا، بالطبع، يتطلّب الوضع منّي أن أطلب تشريح الجثّة. لا أرى أحدًا آخر سيقوم بذلك، لكن لا يمكنني تأكيد هذا.. هل أقول لزميلي أنني أنوي طلب تشريح الجثة؟ أفترض أنه سيردّ قائلًا إن سبب الوفاة واضح؛ لكن لأجل التقرير الطبيَ سيكون التشريح هو الأمر الأكثر دقّة في تحديد السَبب في النهاية. وبعد وهلة، أهمل الأمر ولا أعود لذكره. لكن هنا يكمن خلل في الخطّة. عليّ تمحيص الأمر أكثر.

أما باقي الخطة فيستحيل ترتيب تفاصيله منذ الآن. وحتى لو قمت بذلك فإن المصادفات ستقوم بتغييراتها. على المرء أن يستند ولو قليلًا على قواه الارتجاليّة.

أمر آخر؛ اللعنة، وبئس المصير لي في جهنم! يا لغبائي! لماذا لا أفكّر إلا في مصيري وحدي؟ فهناك أناس آخرون. افترض أن الأمر انتهى بالتشريح، وبلعتُ قرصًا، واختفيت عبر بابي السرّي هذا مرافقًا غرغوريوس، عابرين نهر ستيكس[45]، أيّ تفسير سيجدونه لجريمة كهذه؟ ألن يدير الناس رؤوسهم باحثين عن تفسير عند

الطرف الحيّ من القضيّة؛ هي؟ يسحبونها في المحاكم، يستجوبونها، يرهبونها...إن لها عشيقًا ستصلهم رائحته ولا شك. إنها ولا بدّ أرادت موت رجل الدّين، رغبت في حدوث ذلك طويلًا، وهذا بدَهي إلى درجة أنها لن تكلّف نفسها إنكار ذلك. اسودَ كل شيء أمام عيني.. لا بدّ وأنني أنا مَن وضعك أمام هذا المعبر، أيتها الأجمل بين الأزهار وبين النساء!

أنهكتُ نفسي حتى عَميت، وشحبت.

لكن مهلًا؛ ربما ما تزال عندي فكرة ما، على ما يبدو. حين أتأكّد من أنه لا مفرّ من التشريح، فعليّ إذًا، وقبل تناول القرص بفترة معقولة، أن أظهر علامات الخبل. هذا أفضل- ففي الواقع، وجود الأوّل لا يُلغي حدوث الثاني- سأكتب رسالة وأتركها مفتوحة هنا في الغرفة على طاولة مكتبي حيث سأموت؛ ورقة كُتب عليها بانفعال وفوضى عبارات غاضبة ومبهمة تشير إلى شكل من أشكال التعرّض للاضطهاد، إلى هوس دينيّ أحاديّ وهذيان قسري وغير ذلك. اضطهدني رجل الدّين لسنوات طويلة. لكم سمّم روحي، ولذلك استحقّ الآن أن أسمّم بدنه. لقد تصرّفت بدافع الدفاع عن النّفس..الخ. بعض الاقتباسات من الكتاب المقدس قد تساعدني إذا مزجتها بكلامي، فهناك بعض الاقتباسات التي تتوافق وحديثي هنا. هكذا سيسلّط الضوء على علاقتي بالقسّ. كان المجرم مجنونًا. وهذا يفسّر بالقَذر

الكافي، فلا حاجة للنظر أبعد من ذلك. سوف أُدفن بالطقوس المسيحيّة، وستحظى مدبّرة منزلي، كريستين، على تأكيد لِمَا كانت تظنّه في سرّها لمدّة طويلة. حسنٌ، إنها لا تكتم ذلك دومًا. لقد أخبرتني أنني مختل عقليًا مئات المرات. لو احتاج الأمر، فيمكنها أن تشهد بذلك عليَ.

* * *

14 أغسطس

ليت عندي صديق أصارحه. أستشيره. ليس إلى جانبي أحد. وحتى لو كان عندي صديق، ففي النهاية هناك حدود لما قد يطلبه المرء من أصحابه.

لطالما فضّلت أن أكون منعزلًا. حملث وحدتي معي واخترقث الحشود، وهي تطلّ من داخلي مثل حلزونٍ في بيته. العزلة بالنسبة لبعض الأشخاص ليست حالة دخلوا فيها بعد تعرّضهم لأمر ما، بل هي سِمةٌ مُشكّلةٌ لشخصيّتهم. وأفترض أن هذا ما يزيد من عزلتي. فمهما آلت إليه الأمور، أكانت جيّدة أو سيّئة؛ "فالعقاب" بالنسبة لي هو أنني محكوم بالعزلة مدى الحياة.

* * *

17 أغسطس

أحمق! تافه! مختلّ!

لكن، ما فائدة الذمّ إن كان المرء لا يستطيع الفرار من أعصابه، والتغلّب على معدته؟

ساعة الاستشارة انتهت منذ مدّة. والمريض الأخير غادر للتوّ. كنت واقفًا بمحاذاة نافذة غرفة الانتظار، مفكّرًا في اللاشيء، عندما وقع نظري على غرغوريوس يسير في خطٍّ منحرفٍ قاطعًا فناء الكنيسة متجهًا مباشرة إلى مدخل بابي. انقلب العالم أمامي باهتًا وضبابيًا. لم أتوقع قدومه، لم أعلم بعودته. دُخت وشعرت بالغثيان والمرض وكل أعراض دوار البحر. لم تعبر ذهني سوى فكرة واحدة: ليس الآن، ليس الآن! في المرة القادمة، ليس الآن! إنه يصعد الدرج، إنه يقف وراء بابي، ماذا أفعل... رحت أصيح على كريستين: إذا جاء أحد يطلبني، أخبريه أنني خرجت... أدركت كم بدوتُ غريبًا من اتساع عينيها وفمها الفاغر. هرعت إلى غرفة نومي، وأغلقت الباب. وصلت إلى حوض الغسيل في الوقت المناسب: أفرغت معدتي.

* * *

إذًا كان خوفي في محله، لستُ أقوى على ذلك!

كان من المفترض أن يحدث ما عزمت عليه الآن. من أراد القيام بأمر ما، فإن عليه تحين الفرص. لا يعلم أحد إن كانت الفرصة ستعود مرة أخرى. لستُ أقوى على ذلك!

* * *

21 أغسطس

صادفتها هذا النهار، وتبادلنا الحديث.

ذهبت بعد الظهيرة إلى جزيرة شيبسهولمان القريبة. وفور عبوري الجسر، رأيت كلاس ريكّه؛ كان نازلًا من التلّة حيث الكنيسة؛ يسير ببطء، وعيناه في الأرض، تتدلّى شفته السفلى بعض الشيء، ويقرع بعصاه الحصى ليبعده عن طريقه. لا يبدو وقتها أنه سعيد بوجوده في العالم. ظننت أنه لن يراني؛ لكننا ما إن تحاذينا حتى رفع رأسه وأومأ لي إيماءةً وَدودة، لكنها مريبة، حتى أنها غيّرت تمامًا تعابير وجهه السّابقة، فأيقنت أن انطباعي عن وضعه التّعس صحيح. مضيت في طريقي. لكنني توقفت بعد بضع خطوات. لا يمكن لها أن تكون بعيدة عن هنا. ربما لم تزل هناك في الكنيسة أعلى التلّة. ربما كان عندهما ما يقولانه لبعضهما، فضربا موعدًا هناك في الأعلى حيث لا يذهب أحد؛ وكي لا تُرى برفقته، جعلته ينزل أوّلًا. جلستُ على أحد الكراسي المحيطة بشجرة الحَوَر، وانتظرت. أعتقد أنها أكبر شجرة في ستوكهولم. لطالما جلست تحتها طفلًا رفقة والدتي، في ليالي الربيع القديمة. أبي لم يأتِ هنا مرّة، لا يحبّ أن يأتي معنا في نزهاتنا على الأقدام.

لا، لم تأت. ظننت أنني سأراها نازلةً من التلّة. ربما أخذَت طريقًا أخرى غير هذه، أو أنها لم تكن هناك أصلًا. على أي حال، توجّهت إلى أعلى الهضبة سالكًا طريقًا فرعيّةً دائريّة، وها هي! تجلس جاثمةً على إحدى درجات باب الكنيسة، تنحني إلى الأمام، تسند ذقنها

براحة يدها. جلسَت محدّقة مباشرة في الشّمس التي بدأت للتوّ بالغروب. لهذا لم تميّزني فور وقوع عينيها عليّ.

أذكر أنني عندما رأيتها أوّل مرّة، ذُهلت كيف أنها لا تشبه أحدًا سواها. ليست فتاة من هذا العالم، ولا زوجة من الطبقة الوسطى، ولا امرأة من عامَة الناس. وإن كان ينطبق عليها الوصف الأخير، الآن تحديدًا، في جلستها تلك على درج الكنيسة، بينما شعرها مفلول وحُرّ لمتناول الشمس. إذ كانت قد خلعت قبّعتها وأراحتها إلى جوارها. بدت لي امرأةً من أساطير بعيدة، من عصور بدائيّة، أو من أزمان لم تعُد موجودة، حين لم يكن هناك ما يفرّق النّاس، بعكس حاضرنا الذي يعتبر "عامَة الناس" هم الطبقة الأدنى في المجتمع. إنها ابنة قبيلة حُرّة.

فجأة رأيتها تبكي. ليس انتحابًا، بل مجرّد دموع تهمي. تبكي مثل أحدٍ بكى كثيرًا ولم يكن يعي أنه فعل ذلك وما يزال يفعل.

أردت أن أدير ظهري وأبتعد. لكنني انتبهت في اللحظة نفسها إلى أنها رأتني. فحيّيتها بتردّد ملحوظ، وكأنني أعبُر صدفة من هنا. لكنها نهضت فورًا عن مكان جلوسها في آخر الدّرج، نهضت بخفّةٍ ونعومةِ النهوض عن كرسيّ، وسارت نحوي مادّة ذراعها. وعلى عجالة جفّفت دموعها، وارتدت القبعة مجددًا، ولفّت حول رأسها شالًا

رماديًا.

مكثنا واقفين في صمت لوهلة. ثم قلت أخيرًا:

- ما أحلى المكان هنا هذا المساء.

قالت:

- أجل، لطيف هذا المساء. ما ألطف هذا الصيف كلّه. وقريبًا سينتهي كل شيء. شرعت الأشجار بالاصفرار. انظر، عصفور!

عصفور وحيد حلّق بسرعة قريبًا منّا، حتى أنني شعرت برفّة هواء باردة على رموش عيني. انعطف بحدّة، خطّ طيرانه يبدو للعين مثل رأس سهم، ثم اختفى في الزُّرقة. قالت:

- جاءتنا الحرارة مبكّرة هذا العام. ممّا يعني أن الخريف سيبكّر في المجيء أيضًا.

سألتها:

- كيف حال القسّ؟

أجابت:

- شكرًا لك. إنه جيّد. لقد عاد إلى المنزل من بورلا قبل عدة أيام.

- وهل هو في حال أفضل بشكل عام؟

أشاحت وجهها بعض الشيء، مغمضةً عينيها قليلًا، وهي تُرسل نظراتها مباشرة نحو الشمس. ثم قالت بصوت خفيض:

- ليس فيما يتعلق بي. لا، إنه ليس كذلك.

فهمت. حدث ما تنبّأت حدوثه. حسنٌ، لم يكن تخمين ذلك صعبًا..

هناك امرأة مسنّة كانت تكنس وريقات الشجر. اقتربت منّا، اقتربت أكثر، وببطء ابتعدنا عن مسار خطاها، ثم ابتعدنا أكثر صعودًا نحو رأس التلّة. أمعنت التفكير في القسّ وأنا أسير. في البدء أخفته على صحّة زوجته؛ ولم يردعه ذلك سوى لأسبوعين فقط. ثم أخفته على صحته، بموت شرس؛ فردعه ذلك لستة أسابيع. ولم يكن هذا الحلّ لينفع طوال ذلك الوقت إلا لأنه مسافر، ولم يكن قربها. بدأت أقتنع بكلام ماركل ومدرسته القورينائيّة: الناس لا تهمّهم السعادة، بل يسعون وراء اللذّة. يبحثون عن اللذة حتى لو كانت ضد مصالحهم ومبادئهم، ضد آرائهم وإيمانهم، ضد سعادتهم نفسها... والمرأة اليافعة التي كانت تسير إلى جواري بعزّة وأنفة، على الرغم من عنقها المحاط بخصلات شعرها الحريرية، والغاطس في عمق القلق، قامت بالأمر نفسه: سعت وراء لذّتها، مهملةً أيّما إهمال أمر سعادتها. والآن، لأوّل مرّة، تصفعني فكرة أنها ورجل الدّين يتصرفان التصرّف نفسه، وفي حين أن ذلك يملؤني بالقرف منه، فإنه يبعث فيّ تعاطفًا أبديًا تجاه المرأة اللطيفة. أجل، أقول ذلك مطأطئًا رأسي خجلًا، وكأنني في حضرة الله. شعّت الشمس، بألق ضعيف، خلال غيمة الغبار الكثيفة المهوّمة فوق البلدة:

- أخبريني، سيّدة غرغوريوس، هل تأذنين لي بسؤالك؟
- أرجوك افعل.
- الرجل الذي تحبينه- والذي لا أعرف من هو- ما رأيه في هذا الموضوع، والوضع برمّته؟ ما الذي يريد فعله؟ ما الذي يسعى لنيله؟ لا يمكن بالطبع أن يكون راضيًا عن الأمور كما هي عليه؟
صمتٌ طويل. بدأت أظن أنني ألقيت سؤالًا غبيًا لم ترغب في الإجابة عنه. ثم قالت متنهّدة:
- إنه يريد أن يأخذني بعيدًا.
فقلت:
- وهل يمكنه ذلك؟ أعني، هل هو رجل غير مرتبط، ثقة، يعتمد على نفسه دون وظيفة حكوميّة أو مهنة، هل هو رجل يقوم بما يريده؟
- لا، وإلّا لرحلنا منذ زمن. إن مستقبله كلّه هنا. لكنه يريد أن يشقّ طريقًا جديدًا له في دولة أخرى، دولة بعيدة. ربما أمريكا.
كان عليّ أن أبتسم داخلي. كلاس ريكّه وأمريكا! لكنني عندما فكرت بأمريكا شعرت بالبرد. وفكّرت: شكرًا لكل مقدّراته التي تجعله يعيش هنا، فهناك سوف يهبط إلى القاع، وما الذي سوف يجري عليها حينها؟
سألت:
- وماذا عنك، هل تودّين الذهاب؟
قالت:

- أنا أريد أن أموت.

غرقت الشمس تدريجيًا في الضباب الرماديّ. ونسمة باردة عزفت حفيفها بين الأشجار.

- لا أريد إفساد حياته. لا أريد أن أكون عالة عليه. لِمَ عليه الذهاب بعيدًا؟ لا يوجد سبب لذلك سواي. إن حياته كلها هنا: مكانته، مستقبله، أصدقاؤه، كل شيء.

لم أجد شيئًا أجيبها به. إن ما قالته صحيح دون شك. ورحت أفكّر في ريكّه. اقتراح مثل هذا يأتي منه! إني أستغرب الأمر. لم أتوقع قط أن يتصرّف هكذا.

- أخبريني، سيّدة غرغوريوس، أنت تعتبرينني صديقًا لك، أليس كذلك؟ ولهذا سأكون عند حُسن ظنّك بي. هل تنفرين من الحديث معي في هذه الشؤون؟

ابتسمت لي من خلال دموعها ووشاحها، أجل، ابتسمت! قالت:

- إنّي أكنّ لك معزّة عميقة. لقد فعلت من أجلي ما لم يكن أحد ليفعله أو حتى يستطيع فعله. بإمكانك الحديث عمّا شئت. أحبّ كثيرًا أن أراك تتحدث.

- هل أراد منك الرّحيل معه، أعني صديقك، منذ وقت طويل؟ هل أصرّ على ذلك وأكثر من الحديث فيه؟

- لا، لم يذكر الأمر قبل هذا المساء. لقد التقينا هنا قبل وقت قصير على مجيئك. لم يكلّمني عن الرحيل قبلها قط.

بدأت أفهم. سألت:

- هل يعني هذا أن هناك أمرًا حدث مؤخّرًا.. كي يطرح هذه الفكرة الآن؟ أي شيء مريب؟

دنوتُ من رأسها، قالت:

- ربما.

مرّة أخرى اقتربت المرأة المسنّة من مكاننا بمكنستها، وراحت تجمع الأوراق المتهاوية قريبًا منّا؛ فسرنا عائدين نحو الكنيسة ببطء وصمت. وقفنا جوار الدرج الذي التقينا عنده بدءًا. كانت مُتعبة: فجلست مرّة أخرى على نفس الدرجة، وأسندت ذقنها إلى ذراعها، مرسلةً نظرتها إلى الغسق الرماديّ الهابط.

لم نتحدث لوقت بدا طويلًا. كل شيء من حولنا ساكن. لكن تعبر فوقنا الرّيح، خلال رؤوس الأشجار، مُصدرة حفيفًا أكثر حدّة من ذي قبل، ولم يعد أيّ دفء في الهواء.

ارتجفت قائلة:

- أريد أن أموت. أريد بشدّة أن أموت. أشعر أنني حظيت بكل ما هو لي، كل ما كان مكتوبًا لي أن أحظى به. لن أعود سعيدةً مرة أخرى كما كنت في الأسابيع القليلة الماضية. بالكاد مرّ يوم واحد دون أن أبكي. لكنني كنت سعيدة. لست نادمة على شيء. لكني أريد أن أموت. غير أن الأمر صعب. أعتقد أن الانتحار أمر بشع، وخاصّة انتحار النساء. إني أحتقر أيّ عُنف ضد الطبيعة. ولا أريد أن أهبه حزنًا آخر فوق ما يحمله.

أمسكت عن الكلام لأتيح لها الكلام كما تريد. ثم ضاقت عيناها:

- أجل، الانتحار بشع، لكن الاستمرار في الحياة أحيانًا أكثر بشاعة. كم مرّة على المرء أن يختار بين البشع والأبشع؟ لو أنني أستطيع ببساطة أن أموت!

- لست خائفة من الموت. حتى لو آمنت بأن هناك حياةً بعده، فإنني ما زلت غير خائفة منه. لا شيء ممّا قمت به، أكان خيرًا أو شرًا، أتمنى لو أنني أقوم به بشكل مختلف؛ لقد اتّبعت ما رأيته صوابًا في الأمور الكبيرة كما في الأمور الصغيرة. هل تذكر عندما حدثتك مرّة عن حبّي الأوّل، وقلت إنني نادمة لأنني لم أُسلم نفسي له؟ لست نادمة على ذلك الآن. لست نادمة على شيء. ولا حتى زواجي. لم يكن لشيء أن يسير في طريق أخرى غير التي سار بالفعل فيها.

- لكنني لا أؤمن بأن هناك شيئًا بعد الموت. لطالما تخيّلت الروح في طفولتي على شكل طير صغير. ففي كتاب يعرض تاريخ العالم بالرسومات، كتاب يعود إلى والدي، رأيت كيف أن المصريين القدماء أيضًا صوّروا الروح كطائر. لكن الطير لا يحلّق إلا حيث يتواجد الهواء، والهواء غير بعيد عنّا! فهو أيضًا جزء من الطبيعة. أخبرَنا مدرّس التاريخ الطبيعي في المدرسة بأنه لا شيء على وجه الأرض يمكنه مغادرتها..

لكنني قاطعتها:

- أعتقد بأن الأمر اختلط عليك.

- ممكن. على أي حال، لقد تخلّيت عن اعتقادي بطائر الروح. صارت الروح أكثر غموضًا بالنسبة لي. قبل بضعة سنوات، قرأت كل ما وقعت يدي عليه من كتب عن الدين، معه وضده. لقد ساعدَت ذهني على استجلاء بعض الأمور. لكنني لم أعرف قط ما أردت معرفته. هناك أناس يكتبون بشكل فوق طبيعي، وأؤمن بأنهم يستطيعون إثبات أي شيء. لطالما اعتقدت بأن صاحب الكتابة الأكثر جمالًا وألقًا هو الذي على حق. إني أكْبِر فيكتور رايدبيري. لكنني عرفت وفهمت: عندما يتعلّق الأمر بالحياة والموت، فلا أحد يعرف شيئًا.

اكتسى وجهها بحُمرة دافئة في الغسق:

- لكني عرفت عن نفسي في المدّة الأخيرة ما لم أعرفه في حياتي كلها. تعلَمت أن أشعر، وأفهم أن جسدي هو أنا. لا مُتعة، ولا حزن، ولا حياة إطلاقًا، إلا من خلاله. وجسدي يعرف جيّدًا أنه سيموت. إنه يشمّ هذا كما الحيوانات. وعليه، أعرف الآن أنه ليس هناك من شيء لي بعد الموت.

تعاظمت الظُّلمة. أزيز المدينة صار يتناهى إلينا ويصعد بشكل مريب، متسلّقًا الظلام. وهناك في الأسفل، على الجسور وأرصفة الميناء، راحت المصابيح تشتعل. قلت لها:

- أجل، يعرف جسدكِ جيّدًا أنه يومًا ما سينطفئ. لكنه لا

يريد أن يموت، بل يشتهي الحياة. لا يريد الموت قبل أن تنهكه الحياة وتثقل عليه السنوات؛ استنفذته المعاناة وأذوته اللذّات، حينها، حينها وحسب، يريد أن يموت. أنتِ تظنين أنك تريدين الموت الآن لأن الكآبة في كل مكان. لكنك لا تريدين لذلك أن يحدث، أنا أعرف أنك لا تريدين. تمهلي. خذي كلّ يوم كما يأتيك. وفي أسرع ممّا تظنّين، سوف يتغير كل شيء. أنتِ أيضًا ستتغيرين. إنك قويّة وفي أوج صحّتك؛ ويمكنك أن تصيري أكثر قوّة؛ إنك من أولئك الأشخاص القادرين على النموّ والتجدّد.

رعشةٌ عبرت جسدها وملامحها. نهضت:

- تأخّر الوقت. يجب عليّ الذهاب إلى البيت. لا يمكن لنا النزول مع بعضنا من هنا، سيشكّ في أمرنا من يرانا. خُذ هذا الطريق، وسأذهب أنا في الاتجاه ذاك. طابت ليلتك!

مدّت لي كفّها. قلت:

- أحبّ أن أقبّل وجنتك، هل لي؟

أزاحت وشاحها وقدّمت لي وجنتها. قبّلتُها.

قالت:

- وأنا أريد أن أقبّل جبينك، يبدو مُشرقًا.

عبثت النسمات بشعري الخفيف عندما رفعت عن رأسي القبعة. ثم أمسكت رأسي بين كفّيها الدافئين الناعمين، وقبّلت جبيني بمهابة؛ وكأننا نمارس شعيرة مقدسة.

* * *

22 أغسطس

يا له من صباح! في الهواء الشّفاف، الجليّ جلاء الزجاج، يمكن أن يلمس المرء بخفّة روح الخريف. هواء هادئ.

صادفت الآنسة مارتنز أثناء تجوالي الصباحيّ على الحصان، وتبادلنا بعض الكلمات المبهمة الاعتيادية أثناء عبورنا جوار بعضنا. تعجبني عيناها. أعتقد بأن فيهما عمقًا لا يراه المرء لأوّل وهلة. ويعجبني أيضًا شعرها.... ولا شيء غير ذلك ممّا يُضاف إلى قائمة شمائلها. أوه، أجل، إنها تتمتع بشخصيّة جذّابة ولا شك.

اليوم رحت أخبّ بالحصان حول جزيرة يورغاردن، مفكّرًا بها طوال الوقت.. أعني تلك التي جلست على درجة من أدراج الكنيسة، ناظرةً إلى الشمس، باكية، ترنو إلى الموت. وفي الحقيقة: إن لم يُنجدها أحد، إن لم يحدث شيء-إن لم يتحقق ما نويته وفكرت فيه- فإن أي محاولة لمساعدتها بالكلمات لن تكون سوى ثرثرة سخيفة؛ أنا نفسي شعرت بوضوح ذلك وأنا أحادثها. تكون مُحقّة، محقّة مئات المرات في تمنيها الموت. لا يمكنها الرحيل، ولا يمكنها البقاء. اذهبي بعيدًا، مع كلاس ريكّه؟ كُوني عالّة عليه، كُرة حديديّة معقودة بالسلاسل إلى ساقه! إني أباركها لأنها لا تريد ذلك. كلاهما سيغرق حينها. يقولون إنه حسَن الحال هنا، بقدم واحدة ثابتة في قسم الشؤون المدنيّة، والأخرى في الماليّة. حتى أنني سمعت أناسًا يقولون إن أمامه

مستقبلًا واعدًا. وإن كان مديونًا، حسنٌ، فأحواله ليست أسوأ من بقيّة "الرّجال ذوي المستقبل الواعد" قبل أن يحتلّوا مناصبهم الموعودة. إنه يمتلك من الموهبة القدر الكافي لدفع أيّ رجل إلى النجاح، في البيئة المناسبة بالطبع؛ فهو لا يتحلّى بالإرادة والشمائل الاستثنائية "ليشقّ طريقه بنفسه"...لا، ليست هذه طريقه. أمّا هي فلا يمكنها المضيّ في عيش حياتها الراهنة؛ سجينةً في حبس الأعداء؛ يكبر جنينها تحت سقف رجل لا تحبه، تضطرّ لمراءاته والكذب عليه وتشهد سعادته الأبويّة بقرف، تمضي معه وهو ربما موهوم، وقد تساوره الشكوك في أمرها دون أن يتحلّى بالشجاعة للتصريح بها، غير أنه سيفيد منها ليواصل تسميم حياتها. لا، إنها ببساطة لا تستطيع العيش معه أكثر. ولو حاولت فسينتهي كل شيء بحلول كارثة ما... لا بدّ أن تتحرّر. لا بدّ أن تمضي إلى سبيلها، طليقةً، لتقرّر مصيرها وطفلها كما تشاء. حينها ستنقلب الأمور إلى الأحسن بالنسبة لها؛ ستغدو الحياة ممكنة وجيّدة لتعيشها. لقد أقسمتُ على نفسي أيمانًا مغلّظة: لسوف تغدو حُرّة.

طوال ساعات الاستشارة في عيادتي اليوم، كنت منغمرًا في وضع مهول من القلق والتشنّج النفسيّ. ظننته آتٍ؛ اشتبه عليّ شعورٌ ما في عظامي... لكنه لم يأتِ. وعلى كل حال، إذا فاجأني بقدومه أو ضرب موعدًا مسبقًا، فليأتِ، سيّان هذا وذاك: لن يجدني إلا مستعدًا متى

جاء. فما حدث الخميس الماضي لن يتكرر.
الآن سأذهب لتناول العشاء. أودّ لو أصادف ماركل، فأدعوه لتناول الطعام معي في هاسلباكن. أرغب في الحديث، وشرب النبيذ، ورؤية الناس.
لكن كريستين حضّرت عشائي هنا سلفًا، وستغضب لو تناولته في الخارج، لكن لا فرق عندي، سيّان هذا وذاك.

* * *

(لاحقًا في اليوم نفسه)

قُضي الأمر. انتهى. برَزتُ بأيماني.
جرت الأحداث في طريق لم أتوقعها بتاتًا. غريبةٌ هي، تلك الصَدَف التي رتّبت كل شيء، فاستثارتني حدّ إغرائي بالإيمان بالعناية الإلهية.
أشعر بالخفّة، بالخواء، مثل بيضة أفرغت من محتواها.
منذ قليل، بينما أعبر غرفة الجلوس، نظرت إلى هيئتي في المرآة، فأصابتني تعابير وجهي بالهلع. هناك ما هو خاو، مسطّح، هناك ما لا أستطيع تعريفه، هناك ما يذكّرني بالسّاعة التي أحملها في جيب سترتي؛ ساعة دون عقارب. لكنني مُلزم بسؤال نفسي: ما الذي فعلتِه اليوم، هل كان ذلك كلّه ينحبس في داخلكِ، هل بقي شيء آخر؟
هراء.. سيزول هذا الإحساس لاحقًا؛ فرأسي متعبة الآن.
إنها السابعة والنصف، غرُبت الشمس للتو. كانت الساعة الرابعة والرّبع عندما خرجت من هنا. استغرقتُ إذًا

ثلاث ساعات... أو، أعني، ثلاث ساعات وبضع دقائق.

...حسنٌ، خرجت لتناول العشاء في مكان ما، سرت في خطٍّ مائل قاطعًا فناء الكنيسة، عبرت الزقاق الضيّق، ثم توقّفت للحظة أمام دكّان الساعاتي، فحيّاني الأحدب قابعًا في دكّانه بابتسامة متملّقة، فرددتها له، وقد ارتسمت على وجهي، كما أذكر، تلك الشفقة التي نابعها الشعور بأن في ظهري حدبة أيضًا كلّما رأيت ظهرًا محدّبًا. وتفسير ذاك هو أنه انعكاس لما كنّا نشعر به ونحن صغار من تعاطف بريء نحو أصحاب الحظّ العاثر في الحياة.. وعلى أي حال، أفضى بي الطريق إلى شارع دروتنينغ؛ توقفت عند دكّان هافانا وابتعت سيجارين من ماركة أوبمانا الكوبيّة، ثم أخذت منعطفًا أوصلني إلى شارع فريدز. دخلت ساحة غوستاف أدولف وألقيت نظرة عبر زجاج مطعم رايدبيري؛ فقط لأرى إن كان ماركل يجلس هناك ويحتسي شراب الأفسنتين[46] كالعادة. لكنني وجدت بريك وحده يحتسي شراب الليمون. مسكين؛ لم أشعر بأي دافع لتناول عشائي برفقته وحده، كثنائيّ حميم.

خارج مبنى صحيفة أفتونبلادت، ابتعت عددها الصادر اليوم ودسسته تحت معطفي؛ لربما حملَت خبرًا جديدًا فيما يخصّ قضية دريفوس[47]، فكّرت... لكن طوال الوقت، بينما أسير، كنت أتساءل أين أعثر على ماركل؟ لن يفيد الاتصال بمكتبه، فهو لم يكن قط هناك في مثل

هذا الوقت؛ لكنني، بينما أقول هذا لنفسي، حاذَيت دكّانًا لبيع الدخان بقصد مهاتفة مكتبه. كان للتوّ قد خرج... ثم سرت طويلًا حتى عبرت ساحة القديس يعقوب، وهناك صادفت القسّ المبجّل غرغوريوس قادمًا نحوي. أعددت نفسي لإلقاء التحيّة عليه حتى اكتشفت، مبهوتًا، أنه ليس هو. وحتى أن ذلك الشّخص، الذي اشتبه عليّ، لا تحمل هيئته ولا وجهه أي شبه بالقسّ.

قلت لنفسي:

- لا بأس إذًا، سأقابله قريبًا ولا شك.

وفقًا للمخيال الجمعيّ، والإيمان العام الذي وافق معتقداتي الخاصّة في هذه الحالة، فإنك إذا أخطأت شخصًا، كما حدث لي؛ فهذا يعني أنك على صلةٍ حميمة به وأنّه في مكان ما حولك. أذكر أنني قرأت في دوريّة للعلوم الزائفة عنوانها "أبحاث نفسيّة" قصّة رجل تطيّر، فانعطف بحدّة مغيّرًا طريق سيره إلى شارع جانبيّ، كي لا يصادف ما يعكّر صفوه، فوقع تمامًا بين يدي الشّخص الذي كان هاربًا منه... لكنني لا أؤمن بمثل هذه الخزعبلات، ولم يزل ذهني مشغولًا بالعثور على ماركل. خطر على بالي أنني قابلته، مرّة أو مرّتين، في مثل هذا الوقت من اليوم عند كشك شراب الليمون في السّوق. ولذا توجّهت إلى هناك. بالطبع لم أجده. وعلى أي حال، جلست على أحد الكراسي، تحت الأشجار الهائلة عند حائط الكنيسة؛ لأشرب كأسًا من ماء فيشي(48) بينما

أمرّ بعينيَ على الجريدة. وما كدت أفردها، وما كادت عيناي تعلقان في البنط العريض للعنوان الرئيس: قضيّة دريفوس- حتى سمعت قرع خطئ ثقيلة على الرّصيف، وإذا بالقسّ المبجّل غرغوريوس يقف أمامي:

- أوه، الآن، أهذا أنت أيها الطبيب! كيف حالك، كيف حالك؟ هل لي بمجالستك؟ كنت أهمّ بشرب كأس من مياه فيشي قبل العشاء. لا يمكن أن يضرّ هذا بالقلب، أليس كذلك؟

فأجبته:

- أجل، ثاني أكسيد الكربون ضارٌ بالتأكيد، لكن القليل منه في كأس، من حين إلى آخر، لن يؤذيك. أخبرني، كيف هي صحتك بعد استجمامك عند حمّامات المياه؟

- إني في أبهى صحّة. فذاك حقًّا ما كنت أحتاجه. لقد زرتك قبل أيام، يوم الخميس الماضي تحديدًا. لكنني وصلت متأخرًا جدًا. لقد رحلتَ حينها.

أجبته بأنني غالبًا ما أتواجد لنصف ساعة أو نحوها بعد انتهاء ساعة الاستشارة؛ وفي ذلك اليوم تحديدًا كان لزامًا عليّ أن أخرج مبكّرًا بعض الشيء عن وقتي المعتاد. ثم سألته أن يأتي غدًا. لم يكن واثقًا من أن لديه الوقت الكافي، لكنه وعد أن يحاول.

قال:

- ما أجمل قضاء الوقت هناك، في بورلا.

(الطبيعة قبيحة في بورلا. لكن غرغوريوس، رجل

المدينة هذا، يجد بحكم العادة أن "الرّيف" ساحر دومًا، مهما كان شكله. والأدهى من ذلك أنه دفع المال ليصل إلى هناك، وقد استمتع حتى آخر قطرة من تكلفة الرحلة التي دفعها. ولهذا وجدها ساحرة).

أجبته:

- أجل، إن الإقامة في بورلا لطيفة، رغم أنها أقل جمالًا من بقيّة المناطق.

فاعترف:

- ربما كانت رونيبي أكثر جمالًا. لكن الرحلة إلى هناك طويلة ومُكلفة.

* * *

فتاةٌ لم تُزهر بعد، قدّمت لنا قنّينتين صغيرتين من مياه فيشي.

وفجأة نزل عليّ الإلهام: بما أنني صادفته الآن؛ فلِمَ لا أنهي الأمر هنا؟ نظرت حولي. لا أحد بالقرب منّا. ليس سوى ثلاثة رجال مسنّين جلسوا إلى طاولة بعيدة، أحدهم نقيب متقاعد من سلاح الفرسان، أعرفه؛ لكنهم يتحدثون بصوت عالٍ، مُلقين القصص، ضاحكين، ولذا لا يمكنهم سماع ما يدور بيننا هنا من كلام.

اقتربت منّا فتاة صغيرة، حافية، ومتّسخة، تتملّقنا لشراء بعض ما تحمله من أزهار، فأومأنا برأسينا رافضين، ثم اختفت بصمت. تنبسط أمامنا السّاحة، والأرصفة ما تزال خاوية في هذه الساعة المتأخرة من

النهار. ومن حين إلى آخر، يذهب أحد العابرين إلى زاوية الكنيسة ليأخذ طريقًا مختصرة تفضي إلى الجادة الثانية. شمس أواخر الصيف الدافئة تذهّب الواجهة القديمة والصفراء لمسرح الدراما بين أشجار الزيزفون. أرى على الرصيف مدير المسرح يقف متحدثًا إلى المنتج. إنهما على مسافةٍ مني جعلتهما في عينيَ أشبه بالمنمنمات الصغيرة، ولذا فإن هيئتهما والخطوط العريضة لملامحهما لن يميّزها إلا من كان يعرفهما مسبقًا، واعتاد على رؤيتهما مرارًا. فضح المنتجَ طربوشُه الأحمر، فقد كان يلمع متوهّجًا مثل شرارة صغيرة تحت الشمس. أمّا المدير فميّزتُه من خلال حركات يديه الدّقيقة، وكأنها تقول: تبًا، هناك جهتان لكل شيء! كنت واثقًا من أنه يقول شيئًا من هذا القبيل. رأيت الهزّة الخفيفة التي اجتاحت كتفيه، وحتى توهّمت أنني أسمع نبرة صوته. أسقطتُ تلك الكلمات على حالتي. نعم، هناك جهتان لكلّ شيء، لكن مهما فتحت عينيك واسعتين على كلا الجهتين، في النهاية أنت محكومٌ باختيار واحدة منهما وحسب. ولقد اخترت منذ زمن طويل.

أخرجتُ من جيب معطفي علبة السّاعة التي تضمّ الأقراص. التقطت قرصًا. أدرته بين سبابتي وإبهامي. أدرت جسدي قليلًا، موحيًا أنني أتناولها. ثم تجرّعت بعض الماء من كأسي، وكأنني أبلعها. فأثار ذلك فضول

رجل الدّين، فقال:

- أظنك تتناول علاجًا ما أيّها الطبيب؟

فأجبته:

- أجل. نعاني من قلوب ضعيفة، كلانا. ليس من المفترض لقلبي أن يصير هكذا! لكنه التدخين الثقيل! لو أنني أُقلع عن التدخين لما احتجت هذه الأقراص القذرة! إنها علاج جديد، نُصح بها في كثير من الدوريّات الطبيّة الألمانيّة. لكنني اعتقدتُ أنه يجب عليّ تجريبها بنفسي قبل أن أصفها لمرضاي. مضى شهر وأنا أتناولها بانتظام، إنها ممتازة. تأخذ قرصًا واحدًا قبل العشاء يوميًا؛ إنها تمنع "حمّى الطعام"، والعسر، وخفقان القلب الذي يتبع تناول الوجبات. هل تريد أن تجرّب؟

مددت له العلبة الصغيرة. غطاؤها مفتوح ومُدار بطريقة تُخفي وجه الساعة الأجرد، والذي سيشكّل أمرًا غير ضروري قد تدور حوله أسئلته وثرثرته.

قال:

- شكرًا، شكرًا.

فقلت:

- سأكتب لك وصفةً بها في الغد.

ودون أسئلة، تناول القرص بشربة ماء. ظننت قلبي سيقف. ثبّتت عيني مباشرة إلى الأمام. تستلقي الساحة خاوية أمامي، جافّة من البشر كصحراء. كان شرطي مهيب يسير على مقربة منّا؛ توقّف، نفض بعض الغبار

عن معطفه المكويّ بعناية، ثم تابع سيره بهدوء. لم تزل الشمس تلمع دافئة وصفراء على جدران مسرح الدراما، كالسّابق. والآن، أومأ مدير المسرح بإيماءة نادرًا ما يفعلها، إيماءة يهوديّة بكفّين مقلوبين؛ كأن رجل الأعمال يقول: قلبتها رأسًا على عقب، لست أخفي شيئًا، كشفت أوراقي كلها على الطاولة. أمّا صاحب الطربوش الأحمر فقد أومأ بتفهم مرتين.

قال القسّ:

- كشك عصير الليمون قديم جدًا، إنه الأقدم كما أظن في ستوكهولم قاطبة!

فأجبته دون أن أدير له وجهي:

- أجل. إنه عتيق.

قرعت أجراس كنيسة القديس يعقوب ثلاثًا. إنها الخامسة إلا ربع.

وبشكل آلي أخرجت ساعتي الحقيقيّة لأرى هل أنني أتابع جريان الوقت بشكل صحيح؛ لكنني ارتجفت، فارتعشت يدي وأسقطتها على الأرض، محطّمًا زجاجها. مِلت للأسفل كي ألتقطها، فرأيت قرصًا يستلقي على الأرض؛ إنه القرص الذي ادّعيت للتوّ أنني ابتلعته. حالما دهسته تحت قدمي، سمعت اضطراب القسّ وانهيار جسده على الصينيّة. لم أكن أريد النظر إليه بعد. لكنني شاهدت ذراعه تتهادى رخوةً نحو الأرض، ورأسه تستند إلى صدره، وعينيه اللتين غادرتهما الأحاسيس تبحلق

باتساع...

* * *

يا للحماقة، ها أنا أنهض للمرّة الثالثة، منذ عودتي إلى المنزل، كي أتأكد من أن الباب موصد. ممّ أخشى؟ لا شيء. ولا حتى أقل القليل! لقد أدّيت عملي كطبيب بدقّة وإتقان كما هو متوقّع منّي. الصّدفة أيضًا ساعدتني. لحسن حظي أنني رأيت ذاك القرص المنسيّ على الأرض فسحقته. ولو أنني لم أُوقع ساعتي لما عثرت عليه. ولهذا أقول إن الحظّ حليفي.

كتبت شهادة وفاته بنفسي: مات الرّجل بالسّكتة القلبيّة جرّاء حرارة الصيف اللاهبة؛ وانقطاع أنفاسه من السّير طويلًا؛ وقبل أن يُتيح لجسده الوقت الكافي ليرتاح، تهوّر وتناول كأسًا كبيرة من مياه فيشي. قلت ذلك لموظف الشّرطة المهيب الذي استدار وعاد نحونا؛ وأشهدت على ذلك النادل الصغير المرتعب، وبعض الأشخاص الفضوليين الذين تجمّعوا حولنا. قلت إنني نصحت القسّ بالانتظار بعض الوقت، قلت له أن يدع هسهسة الماء وفقاعاته تهدأ قبل أن يشربه، لكنه كان جدُّ عطش فلم يستمع إليّ. قال الشرطي: "أجل، لقد عبرت إلى جواركما للتوّ، ورأيت كيف شرب ذاك السيّد المُسنّ الماء بعطش هائل نهم. فقلت لنفسي: ليس من الجيّد أن يشربه هكذا..." وكان من بين العابرين الذين توقّفوا لاستطلاع الأمر، شاب في مرتبة مساعد قسّيس،

يعرف المرحوم، وقال إنه سيتولّى مهمّة تبليغ السيّدة غرغوريوس عن هذه المأساة بلطف بالغ.

لا شيء أخافه. علامَ إذًا أتأكّد من إيصاد الباب مرة تلو مرة؟ لأنني أستشعر أصوات العالمين، كاشفةً حقيقة ما جرى، تضغط الجوّ من حولي فتُثقله؛ أصوات الأحياء، والأموات، وغير المولودين بعد.. إنهم يجتمعون خلف الباب، سيُزدونه أرضًا في سبيل سحقي، في سبيل تسويتي بالتراب... لهذا أتأكد من إيصاد الباب.

* * *

أخيرًا، عندما نفذت بجلدي من الأمر برمّته دون شبهات، ركبت القطار، ذاهبًا في أوّل رحلة متاحة. أخذني بعيدًا عند البلدة، جهة كونسهولمان، ثم سرت إلى أقصى الشارع، حيث ينتهي إلى جسر ترانبيري. كنا قد عشنا في تلك النواحي مرّة، في أحد فصول الصيف، عندما كنت في الرابعة من عمري، أو الخامسة. هناك اصطدت أوّل سمكة في حياتي، بالطُعم المعقوف. أتذكر بالضبط البقعة التي وقفت عليها، وها أنا أقف عليها لبعض الوقت مرة أخرى، مستنشقًا الرائحة المألوفة للمياه الراكدة، والقطران الذي جفّفته الشمس. الآن، كما حدث منذ سنوات، تعبر بسرعة من هنا وهناك بعض الأسماك تحت الماء. تذكرت كيف كنت أنظر إليها بطمع يتعاظم، ومدى اشتعال رغبتي في القبض عليها. وعندما نجحت، في النهاية، وجدتها مجرّد سمكة صغيرة، صغيرة جدًا،

بالكاد يصل طولها إلى ثلاثة إنشات، وكانت تنتفض في صنّارتي، فصرخت فرحًا وركضت مباشرة إلى المنزل حيث الماما، بينما السمكة الصغيرة تنتفض بين كفَي المطبقتين… أردت أن نأكلها على العشاء، لكن الماما أطعمتها للقطّة. وما أمتع هذا أيضًا! أعني رؤية القطّة وكيف تلعب بالسمكة، والصوت الواهن الذي يتناهى إلى مسامعنا لتكسّر العظام بين أسنانها..

في طريق عودتي إلى المنزل توقّفت عند مطعم بايبرسكا مورين لتناول العشاء. لم أتوقع مصادفة أحد من معارفي. لكني رأيت ثلاثة أطباء يجلسون هناك وقد لوّحوا لي كي أنضمّ إليهم. احتسيت معهم كأس بيرة واحدة، ثم غادرت.

* * *

ما الذي عليّ فعله بما أكتبه هنا، بأوراق يوميّاتي هذه؟ عادتي، حتى اليوم، هي أن أضعها في درج الخزانة السريّ؛ لكنه مَخبأ سهل. فأيّ عين على قدر ولو ضئيل من الخبرة لا بدّ وأن تضع احتمالاً، ولو بسيطًا؛ بأن خزانة قديمة مثل هذه لا شكَ في أنها تحمل دُرجًا سريًا، وستجده بسهولة. لكن، رغم كل الاحتياطات، إذا حدث أمر خارج حسباني، أمر لم أتوقعه ولم أستعد لمواجهته، فإن مسألة تفتيش منزلي شبه مؤكدة، وسوف يقعون على الأوراق لا محالة.

إذًا كيف أتخلّص منها؟ أعرف: عندي كثير من الحافظات

الكرتونيّة على رفوف كتبي؛ إنها علب مصنوعة على شكل كتب، محشوّة بملاحظات طبيّة وقصاصات قديمة، ومرتبة بعناية، ومُعنْونة بملصقات على كعوبها. سوف أدس هذه الأوراق بين ملاحظاتي عن أمراض النساء. وأستطيع خلطها بأوراقي، فأنا أحتفظ بأوراق يومياتي القديمة؛ لم تكن يوميّاتي طويلة قط، ولا أكتبها بانتظام، بل على نَحو دوريّ.. الآن، على أي حال، سيّان عندي هذا وذاك، فسيتوفّر عندي من الوقت ما يكفي لحرقها لو اقتضى الأمر.

* * *

انتهى. أنا حرّ. عليّ الآن نسيان ما جرى، أريد الانشغال بأيّ شيء آخر. لكن..

أجل- لكن ماذا؟

أنا مُتعبٌ، وخاوٍ. أشعر بفراغ مطلق، مثل دمّلةٍ مفقوءة. الحقيقة البسيطة هي أنني أتضوّر جوعًا. لا بدّ لكريستين أن تسخّن عشائي فورًا، وتأتيني به.

* * *

---

(41) كافاليريا راستيكانا هي أوبرا ألّفها الإيطالي بييترو ماسكانيي (1863-1945) وتعتبر من أنجح الأوبرات المنتمية للمدرسة الواقعية. م.

(42) ديموسثينيس (384 ق.م. - 322 ق.م.) كان رجل دولة إغريقي، وخطيباً بارزاً في أثينا القديمة.

لأسباب سياسية، بعث خليفة الإسكندر الأكبر رجاله لتعقبه بغية قتله، فهرب. لكنه، ما إن عثروا عليه، طلب منهم أن يتركوه يكتب رسالة لأهله، لكنه في الحقيقة كان يخبّئ سُمًّا في قصبة الكتابة لينتحر، وقد فعل. م.

(43). الأسقُف هو أعلى الرتب الكهنوتية في الديانة المسيحية. يطلق على الأب المسؤول عن عدد من الكنائس داخل إقليم معين ويترأس القائمين عليها متخذًا الكنيسة الكبرى في الإقليم مقرا له، وتعرف في هذه الحالة بالكاتدرائية. م.

(44). عرس قانا الجليل هي أولى معجزات يسوع الناصري، كما بات مناسبة للاحتفال السنوي. وتحكي القصة دعوة يسوع ووالدته مريم إلى عرس في قرية قريبة من الناصرة. نفدت الخمرة خلال الحفل فطلبت مريم من ابنها حلاً ينقذ أهل العرس من الحرج، فأمر المسيح الخدم أن يحضروا له ستة أجران يملؤونها بالماء، قبل أن يحولها إلى خمرة. م.

(45). نهر في الميثولوجيا الإغريقية. يجري سبع مرات حول عالم الأموات، وفي الإلياذة هو النهر الوحيد في العالم السفلي. م.

(46). الأفسنتين هو من المشروبات الكحولية بنكهة اليانسون. م.

(47) قضية اتهام النقيب ألفريد دريفوس بالخيانة، وذلك بإرساله ملفات فرنسية سرية إلى ألمانيا، وقد أثبتت بعد ذلك براءة هذا النقيب. هزّت هذه القضية المجتمع الفرنسي خاصّة والأوروبي عامّة، وقسمته إلى فريقين: المؤيدين لدريفوس مقتنعين ببراءته (الدريفوسيين) والمعارضين له معتقدين أنه مذنب. م.

(48) فيشي (بالفرنسية Vichy) مدينة فرنسية تقع في إقليم أليي في محافظة أوفرن في وسط فرنسا. م.

23 أغسطس

الريح تعوي، والمطر لم ينقطع عن الهطول طوال الليل. إنها أوّل عاصفة يرسلها الخريف. استلقيت يقظًا، منصتًا لاصطفاق فرعين من شجرة الكستناء العملاقة، يحتكّان أمام نافذتي. أتذكر أنني نهضت، وجلست عند النافذة لبعض الوقت، مراقبًا الغيوم المتراصفة، بعضها يلاحق بعضًا عبر السماء. مصابيح الشوارع تلقي عليها ضوءها فتتوهَج بلونِ ناريّ متسخ، أشبه بالأحمر القرميديّ. بدا لي أن برج الكنيسة ينحني للعاصفة، وأخذت السّحب شكل شياطين قذرة تنفخ في مزامير، وتصفّر وتصرخ في مطاردات جامحة، يمزّق بعضها أسمال بعض بكل أشكال العهر. وأثناء جلوسي ومراقبتها، انفجرتُ ضاحكًا: ضحكتُ من العاصفة؛ لأنني اعتقدت لوهلة أن كل هذا الضجيج هو بسبب فعلتي! لكنني انتبهت إلى أنني أفكّر في ما حدث بجديّة مبالغ فيها. كنت أتصرف مثل اليهوديّ الذي ما إن قضم قطعة من لحم خنزير حتى دوّى الرّعد في السّحب فوق رأسه، فظنّ أن غضب السماء هذا سببه تناول لحم الخنزير. كنت أمعن التفكير في نفسي وأفعالي؛ ولهذا خُيّل لي أن العاصفة عصفت للسبب نفسه الذي دوّى لأجله رعد اليهوديّ. وبعد طول جلوس، استسلمت للنوم منهارًا على مقعدي. رعشة برد أيقظتني. ذهبت إلى الفراش، لكن لم أستطع النوم. وبعد وقت قصير نهض الفجر معلنًا يومًا جديدًا.

صباح ساكن رماديّ؛ لكنها تمطر وتمطر. وأصيب أنفي

ببردٍ حاد؛ ملأتُ حتى الآن ثلاثة مناديل بالمخاط.

فردت صحيفة اليوم فوق قهوتي الصباحيّة، وقرأت خبر موت القسّ المبجّل غرغوريوس؛ فاجأته سكتة قلبيّة.. عند كشك الليمون في الحديقة المركزيَة... وأحد الأطباء المعروفين كان بالصدفة هناك برفقته، ولم يستطع فعل شيء له سوى إعلان وفاته. إن الرّاحل من أكثر قساوسة العاصمة شهرةً... ينصت إلى الناس وينصتون إليه؛ حظي منهم بالقبول وحظوا بقلبه المفتوح... في عمر الثامنة والخمسين... تنتحب عليه زوجته وأمَه المُعمّرة.

أوه حسنٌ، من أجل الله، هذه هي الطريق التي سنسلكها جميعًا. ولا ننسَ أنه عاش بقلب ضعيف لزمن طويل.

لكن أمَه معمّرة! أليس كذلك؟ كنت أجهل هذا. لا بدّ أنها إذًا مُسنّة بشكل مريع!

* * *

هناك ما هو موحش ويضايقني بشأن هذه الغرفة، وعلى الأخص خلال الأيام الماطرة كهذه. كل شيء هنا قديم، ومظلم، وتسكنه العثّة؛ لكنني لا أستطيع تأثيث المكان من جديد؛ لأنني بذلك أهدم الحميميّة المنزلية التي ألفتها. لطالما شعرت بلزوم شراء ستائر جديدة للنوافذ؛ فالستائر الحاليّة كتيمة قاتمة، تحول دون مرور الضوء؛ وإحداها محروقة الجانب منذ تلك الليلة من الصيف الماضي، عندما أمسكَت بها نار مصباحي.

"تلك الليلة من الصيف الماضي..." لأفكّر، كم من الوقت

مضى مذّاك؟ أسبوعان. لكنها تبدو لي منذ الأزل.

من كان يظنّ أن أمّه ما تزال على قيد الحياة..

كم كان ليكون عمر والدتي الآن لو أنها حيّة؟ أوه، لن تكون طاعنةً في السنّ. بالكاد ستون عامًا.

لكان شعرها أبيضَ. ولكانت وجدت في ارتقاء الدرج والتلال صعوبة كبيرة. ولكانت عيناها الزرقاوان اللتان لا مثيل لصفائهما قد صارتا مع تقدم العمر أكثر صفاءً، ولبَدَتا مبتهجتين تحت غرّتها الشائبة. لكانت سعيدة لأن الأمور صارت إلى الأحسن بالنسبة لي، لكنها كانت ستنتحب أكثر على غياب أخي إيرنست؛ فقد رحل إلى أستراليا ولم يكتب لنا. لم تحمل في داخلها سوى الحزن والقلق تجاهه. ولهذا فضّلته علينا جميعًا، لكن من يدري، ربما لو بقيت حيّة لكانت تحوّلت إلى كائن آخر.

لقد ماتت صغيرة؛ أمي.

لكن، وفعلتي هذه، من الجيّد أنها ماتت.

* * *

(لاحقًا في اليوم نفسه)

للتوّ، بعد عودتي إلى المنزل في الغسق، وقفت عند عتبة غرفة الجلوس متحجّرًا. رأيت على المنضدة، مقابل المرآة، مزهريّة تحمل أزهارًا داكنة، والغسق يزحف في الجوّ. وقد ملأت الأزهار الغرفة بشذاها الثقيل.

لقد كانت ورودًا؛ ورودًا داكنة الحُمرة، بينهما اثنتان تلوّنتا بالأسود إلا قليلًا.

في غرفتي، مندمغًا بالغسق، وقفت وقفة المصعوق، ساكنًا، لم أتجرأ على الحركة، بالكاد أتنفّس. خيّل لي أنني أسير في حلم. الورود عند المرآة؛ هل هي حقًا الورود التي في حلمي نفسها؟

توجّست خيفة للحظة. فكّرت: هذه هلوسة؛ إنني أتهاوى، إنها بداية النهاية. لم أجرؤ على الذهاب واقتلاع الورود من المزهريّة كي لا ينكشف لي أنني أقبض على الهواء! بدلًا من ذلك توجهت إلى طاولتي وعليها وجدت رسالة. وبأصابع مرتعشة فضضت المظروف؛ ظانًا بأن لها علاقة بالورود، لكنها كانت مجرّد دعوة إلى العشاء. قرأتها وكتبتُ ردّي على البطاقة المرفقة لتدوين الجواب: "قادم". ثم خرجت من جديد إلى غرفة الجلوس، وكانت الورود ما تزال هناك. قرعت الجرس لكريستين، أردت سؤالها عن جالب الورود المجهول. لكن لم يُجِب الجرسَ أحد. خرجت كريستين. لم يكن في منزلي أحد غيري.

أخذ الصحو يختلط بالنوم. بات فصل الواقع عن الحلم أمرًا يجهدني. أعرف كل شيء عن ذلك، لقد قرأت عنه كتبًا ضخمة: إنها بداية النهاية. لكن النهاية قادمة يومًا ما ولا شيء هناك لأخشاه. حياتي تصير حلمًا أكثر فأكثر. وربما لم تكن على الدوام شيئًا آخر غير حلم. ربما كنت أحلم طوال الوقت؛ حلمت أنني طبيب، وأن اسمي گلاس، وأن هناك شخصًا يُدعى غرغوريوس. وقد أستيقظ في أي لحظة لأجد نفسي كانسَ شوارع، أو

أسقفًا، أو طالب مدرسة، أو كلبًا. كيف لي أن أعرف؟
ما هذا الهراء. عندما يتحقّق في الواقع ما رأيناه في أحلامنا وما قلناه في هواجسنا، فالطبّ النفسي يؤكّد أنها علامة لبداية انحلال نفسي. لكن الأمر هنا يتعلق بشخص متعلّم راقٍ ذي مستوى علميّ رفيع، وليس خادمة منزليّة بسيطة أو عجوزًا خرفة نمّامة، فكيف يشرح الطبّ ذلك؟ الشرح هو: إن المرء في أغلب الحالات التي يظن فيها أن أحلامه قد تحققت، هو أصلًا لم يحلم أحلامًا تشبه ما تحقق، بل يخيّل إليه أنّه حلم بها أو أنّه رآها من قبل تمامًا كما تحدث أمامه الآن، حتى أدقّ التفاصيل. لكن ماذا عن حلمي بالورود الداكنة الذي دوّنته! والورود نفسها ليست هلوسة، إنها تقف هناك، حيّة، أستطيع استنشاق شذاها.. لا بدّ وأن هناك أحدًا جاء بها إلى هنا.

لكن من؟ هناك شخص واحد فقط أستطيع تخمينه. هل هذا يعني أنّها فهمت؟ فهمت، وافقت، فأرسلت لي الورود علامةً على القبول والموافقة؟ لكن هذا جنون، مستحيل! أمر كهذا، ببساطة، غير وارد الحدوث، ولا يمكن السماح له بالحدوث أصلًا. سيكون أمرًا مريعًا لو حدث. أمر كهذا يجب ألا يُسمح له بالوقوع. هناك حدود للأمور التي يُسمح للمرأة فهمها! لو إن الأمر حدث كما أخمّن، فإنني لا أفهم أي شيء بعد الآن في هذه الحياة، ولا أريد أيّ دور آخر في هذه اللعبة. إلّا أنها تبقى ورودًا جميلة.

هل عليّ أن أضع المزهرية على طاولة الكتابة؟ لا. لتبقَ حيث هي. لا أريد لمسها. إني أخافها. أنا خائف.

* * *

24 أغسطس

تحوّل البرد الذي أصابني إلى إنفلونزا خفيفة. أوصدت أبوابي عن مرضاي، كي لا أعديهم، وبقيت بعيدًا عن التعرّض للهواء الخارجي، خلف الأبواب. رغم أنني لا أستطيع القيام بأيّ نشاط، ولا حتى القراءة، فإنني هاتفت آل روبنز وأخبرتهم إنني سألبّي دعوتهم لحضور حفل العشاء. للتوّ رحت ألعب السوليتير بورق اللعب الذي ورثته عن أبي. هناك أكثر من دزّينة من العلب القديمة لمجموعات من الأوراق، متناثرة هنا في درج طاولة اللعب المصنوعة من خشب الماهوغاني المُحمرّ اللامع. إنها قطعة أثاث يمكنها وحدها أن ترسلني إلى الإدمان والهلاك لو أنني أحمل أقل عطش للّعب أو هوسًا به.

عندما يفتح المرء تلك الطاولة، فسيراها مكسوّة بنسيج أخضر، وفي جوانبها ينحفر لكلّ لاعب أخدود طويل لوضع الأوراق والعلامات، وقد رُصّعت بأناقة.

وكان هذا كل ما تركه لي والدي العزيز.

مطر، مطر... وهي لا تمطر ماءً، لكن وسخًا. الفضاء لم يعد رماديًا بعد الآن، إنه بنّي. وعندما يهطل مطر خفيف من حين لآخر، يضيء الفضاء بصُفرة كَدِرة.

تنتشر فوق أوراق اللعب على الطاولة بتلات زهرة. لماذا

كنتُ أنتفها؟ لا أدري؛ ربما لأنني تذكّرت وقتها كيف كنا في طفولتنا ندقّ البتلات في المهراس، ثم نُديرها على شكل حُبيبات، ثم ننظمها في خيوط نُهديها للماما كقلائد في عيد ميلادها. ما أزكى عبيرها، تلك القلائد. لكنها بعد بضعة أيام تذوي وتذبل، مثل حبّات الزّبيب، ولا بد من رميها بعيدًا.
الزهور، أوه، أجل، إن لها قصّة أيضًا! فأوّل ما رأيته أثناء ذهابي إلى غرفة الجلوس، هذا الصباح، هي بطاقة زيارة موضوعة على منضدة المرآة، إلى جانب مزهريّة الورود، وقد كُتب عليها: إيفا مارتنز. لم أدرك، إلى هذه اللحظة، كيف لم ألاحظ البارحة وجود البطاقة. ولا أفهم كيف طرقت رأسها، من أقصى زوايا الجحيم، فكرة أن ترسل لي باقة ورد، أنا المذنب الجائر؟ لكنني، ببصيرتي الثاقبة، وإنكار حيائي، أستطيع بالطبع تخمين السبب العميق خلف ذلك؛ لكن ما الدافع الآنيّ؟ ما ذريعتها الآن؟ مهما قلّبت في الأمر لا أجد تفسيرًا سوى هذا: لقد قرأت أو سمعت أنني كنت متواجدًا في تلك الحادثة المأساوية لموت القسّ، فظنّت أنني مصدوم ومهزوز حتى الأعماق، وأرادت أن تعبّر عن تعاطفها بإرسال دليل على ذلك. لقد تصرّفت بعفويّة، بتلقائية وفق ما رأته مناسبًا وطبيعيًا لها. ما أطيب القلب الذي تحمله تلك المرأة..
لنفرض أنني لن أصدّها، بل سأتركها تحبّني، ما الذي سيحدث؟ فأنا شديد الوحدة. في الشتاء الماضي جلبث

إلى المنزل قطًّا له خطوط رماديّة، لكنه هرب بعيدًا ما إن دقّ الربيع على الأبواب. والآن، ما إن رقص على الحصيرة الحمراء وهجُ أوّل نار أشعلها للخريف، حتى تذكرته؛ هناك بالضبط، أمام الموقد، اعتاد على الاستلقاء وهو يهرهر من البرد. حاولت دون جدوى الفوز باهتمامه. لقد لعق من حليبي، ودفأ جسده بناري، لكن بقي قلبه باردًا. ما الذي جرى عليك، أيها الهرّ بوس؟ إنك تحمل دمًا ملوّثًا. خوفي أنك تُهلك نفسك، هذا إذا كنت حيًا على أي حال. في الليلة الماضية سمعت هرًّا يصيح في فناء الكنيسة، وكنت واثقًا من أنني تعرّفتُ صوته.

* * *

من الذي قال: "الحياة قصيرة، لكن الساعات طوال". يبدو أنه عالم رياضيات، مثل باسكال. لكن ألم يكن القائل الحقيقي هو فنلون(49)؟ يا للتعاسة، لم أكن أنا.

* * *

لماذا كنت ظمآنَ للاندفاع والحركة؟ أغلب الظن، ربما، كي أعالج سأمي. الضجر "مأساة كل من وُلد سليمًا" كما قالت مرّةً مارغريت، ملكة نَبرة(50). لكن مرّ وقت طويل على السَأم منذ كان محصورًا بنبلاء المنشأ والولادة. فبالحكم على نفسي وآخرين معروفين لي، يبدو أن السأم مع صعود التنوير والانتعاش الاقتصادي سينتشر ويعشّش في سكّان المعمورة أجمعين، نبلاء البشر وعوامّهم.

جاءني الاندفاع للحركة كغيمة مهولة غريبة، أطلقت

رعودها، وأكملت عبورها. وبقي السَأم.

على أي حال، نعيش في أكثر أجواء الإنفلونزا لعنة. يبدو لي، في أيّام كهذه، أن روائح الجثث تفوح من مقابر فناء الكنيسة، وتخترق طريقها خلال الجدران والنوافذ الموصدة. المطر يقطّر على أطُر النوافذ. أشعر وكأنها تتقطّر على قلبي، فاضحةً خواءه، مطلقةً صدىً يتردّد بين جدرانه. ذهني ليس على ما يرام؛ أكان ذلك علامة سيئة أو جيّدة؛ فإنه بالتأكيد ليس في صفائه، لكنني أعوّض ذلك بالتفكير في أن قلبي مطمئن في مكانه. والمطر يتقطّر وينقر إطار النافذة. ينقر- ينقر- ينقر. الأشجار المنتصبة عند ضريح بيلمان واهنة ورثّة؟ لا بدّ وأنها تموت. ربما مسمومة بالغاز. من المفترض أن تنام تحت أشجار هائلة الحفيف، أيها القديم، يا بيلمان. النوم، أجل- هل يُسمح لنا بالنوم يا بيلمان؟ الاستغراق فيه؟ لو أن الإنسان فقط يعرف الجواب- يتردّد في رأسي سطران من قصيدة معروفة تقول:

"ظلُّ شاعرٍ قديم منسيّ، يطوف على قناة الماء؛ وصوته يتردّد في وحشة، مثل همهمات أشباح مقرورة"

يا لحظّ بودلير، لم يكن عليه قط أن يسمع كيف يغدو ذلك الصوت هنا في السويد. يا لها من لغة ملعونة هذه التي نتحدّثها هنا؛ تسحق بعض الكلمات أصابع أقدام الكلمات التي تليها، وتتدافع محتكّة بعضها ببعض خارج الحنجرة. وكل ما يقال بها خشنٌ وملموس! لا نغمات ناعسة، ولا إلماحات هوائيّة أو انتقالات ناعمة. لغةٌ تبدو

وكأنها خُلقت لتناسب عادة الغوغاء المتأصّلة في قول الحقيقة بفجاجة وجهامة.

بات النهار أكثر عتمة، تتكثّف ظُلمته: عتمة ديسمبر في أغسطس. بتلات الورود الداكنة بدأت فعلًا بالذبول. لكن في خضم كل هذا الشحوب الرماديّ، تلمع أوراق اللعب على الطاولة، تضحك ألوانها بصفاقة لتذكّرني أنها ابتُكرت أصلًا من أجل هتك الحالة السوداويّة التي كان يعيشها أميرٌ مريض مجنون. لكن مجرّد التفكير في الأوراق تضمّن حركة يدي لجمعها، وقلبها على وجهها، وخلطها للبدء بلعبة سوليتير جديدة، ممّا دفعني للغضب، فلا قدرة لي إلا على الجلوس والتحديق فيها، بينما يتردّد في أذني القول: "أمير القلوب وملكة الجواريف، يتهامسان سرًّا عن حبهما الدفين(51)"، كما يقول بودلير.

أودّ الذهاب إلى ذلك الكوخ القديم القذر، تلك الحانة المشبوهة عند ناصية الشارع هناك، لأحتسي الجعَة مع الفتيات، وأدخّن تبغًا رديئًا بالغليون، ثم أبذل ما في وسعي لإرضاء سيّدة المكان، مُظهرًا اهتمامي بتقديم بعض النصائح لها عن الروماتيزم. تلك السّمينة المتورّدة، كانت هنا الأسبوع الماضي، تندب سمنتها، ترتدي تحت أقواس ذقنها الشحميّة المزدوجة دبّوسًا ذهبيًا ثقيلًا، ودفعت ثمن علاجها نقدًا بقطعة كاملة من خمس كرونات. لو زرتها من باب الاطمئنان عليها ستسعد أيّما سعادة.

قُرع جرس الباب الخارجي. الآن تفتحه كريستين.. من يكون؟ ألم أقل إنني لا أستقبل أحدًا اليوم.. أيكون محقّق شرطة يدّعي المرض، في لباس مريض عاديّ..؟ أدخل يا صاحبي، سأشفيك، وأهبك ما تريد.

لم تشرع كريستين بابي إلا بما يكفي لتدخل. وضعت رسالة ذات حوافٍ سوداء على طاولتي. بطاقة دعوة لحضور الجنازة..

***

- إنها مأثرتي العظيمة، أجل.... "إذا أراد السيّد أن تُصاغ مأثرته في عبارات قصصيّة بطوليّة، فسيكلفه ذلك ثمانية سكيلينات وحسب!".(52)

***

25 أغسطس

في الحلم رأيت صورًا من صباي. رأيتها، تلك التي قبّلتها في ليلة من ليالي منتصف الصيف منذ زمن بعيد، عندما كنت صغيرًا، ولم أقتل أحدًا بعد. فتيات أخريات رأيتهن أيضًا، وهن لا يزلن في محيطي هذه الأيام؛ إحداهن كانت مستعدّة لتثبيتها الكنسيّ(53) في السّنة التي دخلَت فيها اختبار الطلّاب التأهيلي، ولم تكن تحدثني إلا عن التديّن؛ وهناك فتاة أخرى، أكبر مني، أبدت استعدادًا للمكوث معي، واقفين، توشوش في أذني عند سياج الياسمين في حديقتنا، وفي السماء الغسق. وأخرى كانت تسخر منّي على الدوام، لكن عندما سخرت منها بدوري من باب التغيير انفجرت غاضبة،

ودخلت في نوبات من البكاء. شاحب... كنّ في الحلم يسرن في غسق شاحب، عيونهن مفتوحة على اتساعها ومرتعبة، تبادلن بعض الإشارات عندما رأينني أقترب منهن طالبًا الحديث إليهن، لكنهن استدرن بعيدًا ولم يجبنني. وفي حلمي فكّرت: هذا أمر طبيعي. لقد تغيّرتُ كثيرًا فلم يتعرّفنني. لكن، في الوقت نفسه، أدركت أني كنت أخدع نفسي، وأنهن عرفن من أنا بعمق.

استيقظت، وانفجرت بكاءً.

* * *

26 أغسطس

أقيمت الجنازة اليوم، في كنيسة القديس يعقوب.

ذهبت؛ أردت رؤيتها. أردت التقاط شرارة من عينيها النجميّتين خلف وشاحها. لكنها جلست شديدة الانحناء في ثوب حدادها وترمّلها، ولم ترفع رموشها.

تكلّم الواعظ الذي تولّى مهامّ القس المتوفى بكلمات سيراخ[54]: "بين الغداة إلى العشيّ، يتغيّر الزمان، وكل شيء سريع التحوّل أمام الرب"[55]. تشكّلت سُمعته بين الناس على أنه مُحب للدّنيا. وهذا صحيح، فلقد رأيت رأسه أكثر من مرّة يلمع بين مقاعد المسارح، ويديه البيضاوين تصفّقان برصانة. لكنه خطيب ضليع في الروحانيات، فقد نطق بتأثّر عارم وصادق تلك الكلمات القديمة التي ما برح يتناقلها البشر، جيلًا بعد جيل، ويرددونها في حوادث الموت المفاجئة، أو رؤية القبور الطازجة المحفورة للتوّ؛ فهي تعبّر تعبيرًا نابضًا عن

المشاعر المرعبة لبني البشر حين يدركون أنهم يقبعون تحت كفّ المجهول التي تلقي ظلالها على عالمهم، وتحيّرهم، فتبعث لهم من حيث لا يدرون النهار والليل، والحياة والموت. كان رجل الدين يقول: "الثبات والاستمرار في الدنيا ليس مقدّرًا لنا. ولن يكون خيرًا لنا. لا يمكننا ذلك، لا، ولا يمكننا حتى تحمّله لو كان ممكناً. قانون التغيير لا ينطبق على الموت وحسب، إنه وقبل كل شيء قانون الحياة. لكننا مرة أخرى، نقف هنا، متفاجئين وكأننا لا نعلم، مصعوقين وكأننا لا ندري، عندما نرى التغيير فجأة قام بواجبه، وبطريقة تختلف عن أي شيء عرفناه سابقًا... يجب أن لا يبقى الأمر على هذه الحال يا إخوتي. لا بدّ أن ينعكس علينا إيماننا: رأى الربّ ثمرته قد نضجت، حتى لو لم يظهر لنا ذلك، أو رأينا عكسه، وقد تركها تسقط في كفّه...". شعرت أن ندىً يتشكّل في عينيَ، فستزتُ مشاعري بقبَعتي. في تلك اللحظة ادّعيت أنني لا أعلم لماذا نضجت الثمرة بعجالة ثم سقطت... بل، لأكون أكثر دقة، شعرت في أعماقي بأنني لا أعرف عن الأمر أكثر مما يعرفه الآخرون. كل ما أعرفه هي تلك الأسباب والظروف المباشرة، لكن خلف ذلك ضاعت كل سلسلة الأسباب والأحداث في الظلام. شعرت بأن ما فعلته، "الحركة"، هي جزء وحسب، إنها موجة من حركة أكبر، من سلسلة حركات ودفقات ابتدأت قبل أن أشرع بالتفكير في حركتي، وحتى قبل اليوم الذي نظر فيه أبي بشهوة إلى

أمي. شعرت بقانون الضرورة؛ شعرت به بكثافة، عبرني مثل خضّة في النخاع والعظام. لم أشعر بالذنب بعدها. الرّعشة التي شعرت بها تشبه تلك التي تجتاحني جرّاء سماعي موسيقى عظيمة، أو استخلاصي لأفكار صافية نادرة وعالية.

لم أدخل أيّ كنيسة منذ سنين عديدة. أتذكر عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، أو الخامسة عشرة، كيف جلست على هذه المقاعد الخشبية الممتدة نفسها، أصرّ أسناني بعضها ببعض في غضب مشتعل من الوغد السّمين في ثيابه على المذبح، وأفكّر أنّ هذا الدّجل لن يعيش سوى عشرين سنة أخرى، أو على أعلى تقدير ثلاثين. مرّة، أثناء طقس مُملّ وطويل، قرّرت أن أصبح رجل دين. خيّل لي أن كل رجال الدين الذين رأيتهم وسمعتهم أغبياء غباءً مستفحلًا، لا يبرعون في أعمالهم، وأنني أستطيع القيام بكل مهامّهم بإتقان وحذق، وأفضل منهم جميعًا. سأرتقي المجد، أغدو أسقفًا، ثم رئيس أساقفة. وما إن أصير كذلك، حتى أُظهر أنني شبابيّ؛ وسيبدأ الناس في سماع مواعظ ممتعة منّي، فيحتشدون حول كاتدرائية أوبسالا! لكن قبل أن يصل رجل الدين إلى نهاية عظته "آمين" كانت قصتي قد انتهت بسبب عوائق كثيرة: لدي صديق مقرّب في المدرسة يعرف عنّي كل شيء؛ ثم إنني واقع في حب فتاة؛ وأيضًا هنالك أمي! أن أصير أسقفًا يعني أن أكذب عليهم كلّهم وأتظاهر أمامهم وأدّعي أنني لست أنا، وهذا

مستحيل. هناك قلّة من الناس، ما أقلّهم، وما أوجب حضورهم، لا بدّ للمرء أن يكون صادقًا معهم وحقيقيًا... آه، يا ربّي، يا لذاك الزّمن، ذاك الزّمن البريء...

ويا للغرابة، كيف يجلس المرء تاركًا أفكاره تقوده إلى مزاج قديم، وعالم ذهنيّ ينتمي إلى زمن باد. هكذا يشعر الإنسان بتحليق الزمن وعبوره السّريع. إنه قانون التغيير، هذا ما قاله الواعظ (وقد استلّه من إحدى مسرحيات إبسن[56] بالمناسبة). كأنك تتأمّل في صورة شخصيّة عتيقة. وفكّرت أيضًا: كم بقي لي من الوقت لأضيع، متجوّلًا بعشوائيّة، في هذا العالم من الأحاجي والأحلام والظواهر غير المفهومة والقابلة للتآويل؟ هل تبقّى عشرون عامًا؟ ربما، وربما أكثر! إنني أتساءل: لو كنت، برؤيا سحريّة، رأيت وأنا في السادسة عشرة من عمري ما ستؤول إليه حياتي كما هي الآن، كيف كنت لأشعر حيالها؟ أو عرفت مَن أنا بعد عشرين عامًا، أو حتى عشرة؟ ما الذي سأفكر فيه بشأنها؟ إنني، في هذه الأيام، أتوقع زيارة من الآلهات، ربّات الثّأر والانتقام. لم يظهرن بعد أمامي. لا أؤمن بأن مخلوقات كهذه موجودة. لكن، من يدري؛ ربما لسن على عجالة لكشف وجوههن. ربما ظننّ أن لديهن كثيرًا من الوقت. من يدري، بمرور السنوات، ما الذي يفعلنه بي؟ من أنا بعد عشر سنين؟

جرت طقوس الجنازة إلى منتهاها، وأفكاري مثل فراشات تترامى من حولي. أبواب الكنيسة مفتوحة

بالكامل، والمعزّون يتزاحمون خارجين، تحفّهم جلبة الأجراس، وعند البوّابة يتهادى النعش ويترنّح مثل سفينة في البحر، ونسمة هواء خريفيّة النقاء، بَليلة، هبّت على وجهي. في الخارج سماء رماديّة وشمس ناحلة شاحبة. أنا أيضًا شعرت أنني رماديّ، وناحل وشاحب، كما يكون المرء عادةً عندما يجلس مرصوصًا بين الناس داخل الكنيسة لوقت طويل، وبالتحديد أثناء جنازة أو مناسبة مقدّسة. قصدت بعدها بيت الاستحمام على شارع مالمتورغز كي أحظى بحمّام فنلنديّ معتبر.

ما إن خلعت ثيابي ودخلت الغرفة الحارّة، إذا بي أسمع صوتًا مألوفًا:

- يبلغ بي الجذل بالحرارة هنا ما قد يبلغه في مكتب إداريّ من مكاتب جهنم! يا ستينا! تجهّز لدعكي بعد ثلاث دقائق!

إنه ماركل. كان جالسًا على أحد الكراسي العلويّة، تحت السقف مباشرة، لامًّا أطرافه إليه، ويفشل في إخفاء عظام جسده الناتئة خلف عدد جديد من صحيفة أفتونبلادت.

ثم تابع قائلًا عندما ميّزني:

- لا تنظر إلي. رجال الدين والصحافيون يجب ألّا يُرَوا عُراة. هذا ما قاله الواعظ.

لففت منشفة مبلّلة حول رأسي، وتمددت على صفٍّ من الكراسي.

استرسل يحادثني:

- اجتمع القساوسة. أرى أن المبجّل غرغوريوس قد دُفن اليوم. لعلّك كنت في الكنيسة، أليس كذلك؟

- أجل، خرجت للتوّ من هناك.

- كنت في مناوبتي بمكتب الصحيفة عندما تلقّينا نبأ الوفاة. الفتى الذي جاءني بالخبر حضّرَ قصّة طويلة مثيرة للعواطف، حاشرًا اسمك في كل سطر منها. اعتقدت أنه لا داعي لذلك. أعرف أنك لا تسعى إلى الشّهرة. ولذلك أعدتُ كتابة الخبر شاطبًا أكثره. فكما تعرف؛ صحيفتنا تمثّل الشّطر المتنوّر من الرأي العام، ولا نريد أن نُظهر اهتمامًا كبيرًا بشأن رجل دين تعرّض لسكتة قلبيّة. لكن القليل من الكلمات الطيّبة يجب أن تقال ولا شك، وهي لا تكلّفني شيئًا يُذكر.. فجاءت شخصيّته في الخبر "مقبولة" بشكل طبيعي وعفوي، لكن ذلك لم يكن كافيًا. فطرأ على بالي أنه ربما كان يحمل قلبًا أثقلته شحوم السّمنة أو شيئًا من هذا القبيل، فقد مات بسكتة قلبيّة. وهكذا أنهيت البورتريه الذي رسمته له: شخص مقبول ومرح ويحمل قلبًا يسع الجميع!

قلت:

- صاحبي العزيز، يا لمهنتك الشّريفة!

فأجاب:

- أجل، إنها كذلك، فلا تسخر. ما الذي يدعو لضحكك هذا كلّه! دعني أوضح لك أمرًا: هنالك ثلاثة أجناس من الناس: المفكّرون، والكتَبَة، وقطيع البهائم. وأعترف أنني

في سرّي أضع كل المفكّرين والشعراء في خانة الكتَبَة، وأضع أغلب الكتبَة في خانة البهائم. لكن هذا ليس موضع حديثنا. إن شغل المفكّرين الشاغل هو البحث عن الحقيقة. لكن هناك سرٌّ عن "الحقيقة" والذي، يا للغرابة، قليل التداول، على الرغم من ظنّي أنّه واضح وضوح ضوء النهار، ألا وهو أن الحقيقة مثل الشمس؛ قيمتها تعتمد كليًا على أن نكون على مسافة صحيحة منها كي نراها. لو سُمح للمفكّرين أن يشكّلوا حياتنا كما يرون، لاقتربوا بنا كثيرًا من لهيب الشّمس فقادوا الكون برمّته إلى المحرقة، لصرنا رمادًا؛ ولهذا فإن أقل نشاط لهم من شأنه إثارة البهائم فيجمحون وترتفع أصواتهم لاقترابهم من النور: أطفئ الشّمس، بحقّ الشيطان، دعها! إنها مهمَة الكتبَة أن يحافظوا على مسافة صحيحة ومُرضية من الشّمس، لرؤية الحقيقة. الكاتب الجيّد -وما أقلّ أمثاله- يفهم مع المفكّر، ويشعر مع القطيع. إنها مهمَتنا أن نحمي المفكّر من غضب البهيم والبهيم من جرعات زائدة من الحقيقة. وأعترف أن المهمّة الأخيرة هي الأسهل، وهي التي نقوم بها على خير وجه في مواضيعنا اليومية في الصحيفة. وأعترف أيضًا أننا، في سبيل ذلك، نحظى بمساعدة لا تقدّر بثمن من عدد هائل من المفكرين الزائفين، وعدد أكبر من البهائم الحسّاسين أيضًا..!

فأجبته:

- عزيزي ماركل، إنك تقول كلامًا حكيمًا. وبعيدًا عن

شُبهة أنك لا تعدّني مفكرًا ولا كاتبًا، بل تضعني في الصّنف الثالث، فإنه من دواعي سروري دعوتك للعشاء. ففي ذلك اليوم البائس الذي قابلت فيه رجل الدّين المتوفى عند كشك الليمون، كنت أجول المدينة بحثًا عنك، وليس في رأسي سوى أن نتناول الطعام معًا. هل أنت مُتاح اليوم؟ إن كان كذلك فسنذهب إلى هاسلباكن...

فأجاب ماركل:

- فكرة رائعة! هذه الفكرة وحدها تكفي لتضعك في مصافّ المفكرين! فهناك مفكرون، نسيت أن أقول، هم من الصفاء والجودة بحيث يموّهون أنفسهم بين البهائم! إنهم الصّنف الأنبل طُرًّا، ولطالما وضعتك في هذه المرتبة! في أيّ ساعة نخرج؟ السادسة، حسنٌ، هذا مثاليّ.

ذهبت إلى المنزل كي أحرّر نفسي من البنطال الأسود والوشاح الأبيض، فوجدت هناك مفاجأة سرّتني: بدلتي الرماديّة الداكنة التي فصّلتها الأسبوع الماضي باتت جاهزة، وها هي ذي، مع صدريّة زرقاء مرقّطة بدوائر بيضاء. سيصعب عليّ لاحقًا تحقيق تجانس كهذا بين لباسي وعشاء هاسلباكن في يوم رقيق كهذا من أيام أواخر الصيف. وكنت قلقًا في المقابل بشأن هيئة ماركل. فهو من هذا الجانب لا يمكن توقّعه على الإطلاق، فقد يظهر يومًا في مظهر الدبلوماسيّ، ويظهر في اليوم التالي مثلَ متسكّع! إنه في النهاية يعرف

أناسًا من كل صنف، واعتاد التحرّك بينهم في الفضاء العام وكأنه يتحرّك في منزله وبين غرفه. قلقي هذا لا ينبع من خيلائي أو خوفي من الناس: أنا رجل معروف، لي سمعتي وموقعي؛ وأستطيع تناول الطعام في هاسلباكن مع سائق عربة مبتذل لو راق لي ذلك؛ وبالنسبة لماركل، فهو رجل تشرّفني رفقته دومًا دون التفكير في لباسه. لكن يجرح حسّي الجمالي رؤية امرئٍ رثّ الثياب يجلس إلى طاولة عامرة في مطعم راقٍ. قد يمحو ذلك نصف متعتي. هناك شخصيات مؤثّرة وذات مقام عالٍ يفضّلون التقليل من شأنهم بالخروج في ملابس رثّة مثل بائعي الخردة: وهذا لا يليق.

لقد ضربت موعدًا للقاء ماركل تحت ساعة تورنبيري. شعرت حينها بالبهجة والانطلاق، استعدت شبابي، تجدّدت، وكأنني شُفيت من علّة. بدت لي نسائم الخريف معطّرة بشذى من سنيّ شبابي. يمكن قصّ أثر هذا الشعور والخلوص إلى أن منبعه هو السيجارة التي كنت أدخنها. دخلت في حالة لطالما أمتعتني في سنوات خلت، فلم أدخّن منذ وقت طويل..

وجدت ماركل في هيئة مشرقة وبمزاج رائع للضحك. يرتدي وشاحًا يحاكي حراشف خضراء لجلد أفعى، يلفّه بطريقة تعطي انطباعًا عامًا بأن سليمان الملك بكلّ بهائه لا يضاهي ماركل بهاءً! ركبنا عربة أجرة، فقطع الحوذيّ فورًا ما كان يشغله، ثم لوّح بالسّوط وفرقع به شاحذًا همّته وهمّة الحصان، ثم انطلق بنا.

إن لماركل اعتبارًا في المكان أكثر مني. ولذا سألته أن يهاتف المطعم ويتأكد من أن طاولتنا تحاذي سور الشرفة. وبينما كنا نتحادث، داعبنا كؤوس الخمرة، ورحنا نتناول السّردين والزيتون المملّح: حساء الصيّادين وبعض أسماك موسى، ولحم السمّان، وفواكه، ونبيذ مانزانيلا الفرنسيّ الأبيض.

سألني ماركل:

- وإذًا، لم تحضر حفلة آل روبنز الخميس الماضي. إنني أؤكد لك أن الدّاعية، ربّة البيت، افتقدتك. فقد قالت إنك تتمتع بطريقة ساحرة في المكوث صامتًا.

- كنت مصابًا بالبرد. محال أن أخرج. مكثت في البيت ولعبت السوليتير طوال الصباح، وباقتراب موعد العشاء ذهبت إلى الفراش. من كان هناك؟

- أوه، حديقة وحوش! بريك كان أحدهم. لقد تدبّر أمر التخلّص من "دودته الشريطيّة"! حكى لنا روبن ما حدث. فقد وصل بريك قبل برهة إلى قرار احتفاليّ بأن يترك عمله في الخدمة المدنيّة إلى غير رجعة، وأن يكرّس نفسه للأدب. وعندما علمَت بذلك دودته الشريطيّة، أعني عشيقته، اتخذت هي الأخرى قرارًا حكيمًا: تركته لتعرض نفسها في سوق أخرى!

- جيّد، لكن هل كان بريك جادًّا بشأن قراره؟

- بالطبع لا! لقد أقنع نفسه من جديد بالاستمرار في العمل لمصلحة الضرائب. ويحاول الآن أن يجعل الأمر يبدو وكأنه حيلة حربيّة!

خيّل إليّ أنني لمحت طيفًا لوجه كلاس ريكّه على طاولة بعيدة. أجل، في الحقيقة إنه هو! في احتفال رباعيّ مع رجل آخر وسيّدتين. لا أعرف منهم أحدًا.

سألت ماركل:

- من هؤلاء الذي يجالسون ريكّه هناك؟

استدار لكن لم يستطع أن يرى أحدًا، لا ريكّه ولا مجالسيه. نمَت الضجّة من حولنا، ينافسون الأوركسترا التي كانت تعزف أوبرا «مشية الخبّاز». اسودّ وجه ماركل. إنه من أنصار دريفوس المتحمّسين! وخيّل له أنه سمع خلال العزف بعض العبارات ضد الدريفوسيّين! أطلقها بعض الملازمين العسكريين في المطعم.

ثم تابع الحديث:

- كلاس ريكّه؟ لا أستطيع رؤيته. لكن لا بدّ وأنه يتظاهر الآن ويمثّل أمام خطيبته وأهلها، أصهاره المستقبليين. سوف يرسو قريبًا على بر. إنها فتاة غنيّة مَن وقعت عيناها الخلّابتان عليه. وبمناسبة الأعين الخلّابة، لقد تناولت العشاء في حفلة آل روبنز إلى جانب فتاة تدعى بالآنسة مارتنز. صبيّة جميلة حقًّا، وساحرة. لم أرها هناك من قبل. ولا أعرف كيف جرت الأمور بالضبط، لكن حدث وأن ذكرت اسمك في حديثنا، وفور أن أدركت بأننا أصدقاء مقرّبون حتى لم يعد بإمكانها الكفّ عن الحديث عنك؛ سألتني أسئلةً من كل نوع حتى أنني لم أعرف إجابة كثير منها... ثم، فجأة، غاصَت في صمت رهيب واحمرّت شحمتا أذنيها. ومن خلال ما رأيته،

أعتقد أنها واقعة في حبّك.

اعترضت:

- أنت متسرّع بعض الشيء في الاستنتاج.

رحت أفكر بما قاله عن ريكّه. ولا أعرف هل أصدّقه أم لا. إن ماركل يطيل من الأحاديث الفارغة ويكثر منها. هذا عيبه الوحيد. ولم أرغب في سؤاله مرّة أخرى عن ريكّه. لكنه ما يزال يتحدّث عن الآنسة مارتنز، يتحدّث بحرارة حتى شعرت بوجوب ممازحته:

- من الواضح أنك واقع في حبها! إن سيرتها تحرق ثقبًا في معطفك جهة القلب! خذها يا عزيزي ماركل! لن أصبح ثائرًا يتهدّدك بالانتقام. تستطيع إبعادي من المنافسة.

هزّ رأسه آسفًا. كانت ملامحه جادّة وشاحبة. أجاب:

- أمّا أنا فقد خرجت من السباق.

لم أقل شيئًا، وغرقنا في صمت مطبق. قدّم لنا النادل كؤوس الشامبانيا بدماثة مساعد كاهن. وبدأت الأوركسترا بعزف أوبرا «مفاتحة لوهنغرين». الغيوم التي كانت مثقلة بالمطر فرطت نفسها في الفضاء إلى خيوط زهريّة تزحف من فوقنا الآن؛ بينما في البُعد أغوار سماويّة راحت تغوص وتغوص إلى أعماق لا نهائية من الزُرقة، زُرقة مثل هذه الموسيقى الزرقاء. إني أنصت إليها فأنسى نفسي. إن أفكار الأسابيع القليلة الماضية، وتأمّلاتها، والفعل الحركيّ الذي أفضت إليه، بدت لي كلّها تسبح مبتعدةً هناك في المدى الأزرق، مثل

شيء انتهى، شيء وهميّ بالفعل، شيء سرّي قد تحرّر، ولن يثقلني بعد الآن. أعرف أنني لن أودّ أبدًا القيام بأمر مماثل، ولن أقدر على حمل نفسي عليه. هل هذا يعني أن كل ما أقدمت عليه كان خطأ؟ لقد قمت بأفضل ما أمكنني القيام به: وزنت الأمور وامتحنتها، ما هو في صالحي وما هو ضدي، وسبرتها حتى قرارها. في هذه اللحظات كانت الأوركسترا تعزف اللازمة الموسيقية للأوبرا: "لا تسَل!". وأثناء هذا الدفق من النغمات الصوفيّة، خيّل لي أنني اختبرتُ فَيضًا مفاجئًا، ففهمت حكمةً سريّة تتكرر منذ الأزل: "لا تسَل!" لا تذهب إلى الأعماق، وإلّا غرقت. لا تسعَ وراء الحقيقة، لن تعثر عليها. دع نفسك وشأنها. "لا تسَل!" إن المقدار الضئيل الذي ينفعك من الحقيقة تناله موهوبًا لك دون مقابل ولا عناء؛ وحتى لو كان مخلوطًا ببعض الأكاذيب والأخطاء، فهذا أيضًا نافعٌ لك، من أجل صحّتك؛ إنها تخفّف من لزوجة الحقيقة، ولولا ذلك لمزّقت أمعاءك. لا تحاول تطهير روحك باختلاق الأكاذيب وتصديقها كحقائق؛ سيعقبها ما لا تعرفه ولا تتوقعه عندما تستيقظ بعد زمن؛ وسترى أنك لم تفقد شيئًا سوى نفسك وكل ما هو قريب منك. "لا تسَل!"

قال ماركل:

- عندما أردنا أن نؤمّن مساعدة ماليّة لصالح دار الأوبرا من الريكسداغ[57]، كان علينا أن نطرق رؤوسهم بفكرة أن للموسيقى "أثرًا نبيلًا". كتبت هراءً من هذا القبيل

ونشرته في الصفحة الأولى، العام الماضي. إن للموسيقى، بالطبع، أثرًا من ذاك القبيل، لكن لا بدّ من هذه الصياغة اللغوية الباردة كي يفهم أولئك المشرّعون البرلمانيون ما نقول. إن ما أردنا قوله هو هذا: الموسيقى تُسند المرء وتحثّه، إنها عالية كاشفة. لقد منع القديس أمبروسيوس[58] أتباع السلّم الكروماتيكي[59] في الكنائس منذ أن انتبه من خلال تجربته الخاصّة إلى أنه يُثير في الإنسان شهوات فاسقة. وفي ثلاثينيات القرن الثامن عشر رأى أحد رجال الدين من هالة[60] في موسيقى هاندل[61] بيانًا ناصعًا لإقرار أوغسبورغ[62] ما يزال الكتاب في حوزتي. ومن خلال الثيمة الموسيقيّة في أوبرا بارسيفال، يبني أحد الفاغنريين[63] رؤية شاملة للحياة! وصلنا في جلستنا إلى احتساء القهوة. فاتحًا علبة السجائر، عرضتها على ماركل. سحب سيجارًا وأمعن النظر فيه قائلًا:

- يكسو هذا السيجار ملامح جادّة! لا بدّ وأنه من النوع الفاخر. لقد كنت قلقًا بشأن التدخين معك، فأنت كطبيب تعلم ولا شكّ أن أفضل السجائر أكثرها احتواءً على السّموم! ولهذا كنت متخوّفًا من أن ما ستقدمه لي مجرّد نفاية سقيمة!

فأجبته:

- صاحبي الأعز ماركل، من وجهة نظر صحيّة، يمكنك السخرية من عشاءنا هذا كله! أمّا فيما يخص السيجار،

فإن صُنّاع التبغ يقصرونه على فئة معيّنة من الناس، يُرضي الذوّاقة.

بدأ الجمع من حولنا يخفّ ويتلاشى، والمصابيح الكهربائية اشتعلت في الخارج، فالليل بدأ بالهبوط.

قال ماركل فجأة:

- أجل. الآن أرى ريكَه. أراه منعكسًا على المرآة. وقد أصبتُ! إنه رفقة السيّدة التي خمّنتها. لكنني لم أتعرّف الآخرين.

- حسنٌ، من هي؟

- إنها الآنسة لوينسن. ابنة سمسار الأسهم الذي توفي قبل عام... ثروتها فاحشه، قد تبلغ النصف مليون.

- وهل تظن أنه سيتزوجها من أجل المال؟

- ولِمَ أظن ذلك؟ بالطبع لا! إن كلاس ريكَه رجلٌ نبيل المنشأ وحسّاس. اهدأ. تأكّد من أنه سيهيّئ كل السبل كي يشغف بها ويقع في حبها، ثم سيتزوجها لأنه نجح في ذلك. سوف يتدبّر أمره بحصافة، ثم سيركض المال إلى حضنه مثل مفاجأة!

- هل تعرفها؟

- صادفتها مرّة أو مرّتين. بدت لطيفة جدًا؛ أنفها حادّ بعض الشيء، تمامًا مثل بصيرتها. امرأة يافعة لا يشوب استقامتها شائبة، تُوازن أشرعة آرائها بين أمواج سبنسر[64] ونيتشة، ثم تقول: "في هذا وهذا هو مصيب، لكن في ذاك وذاك فإن الآخر قد أصاب الهدف بدقّة"- نسوة كهذه يقلبن كياني، تأثيرهن عليّ يضرّ

بي... هل قلتَ شيئًا؟

لم أفه بحرف. جلست شارد الذهن، ربما تحرّكت شفتاي بأفكاري، أقول ربما، ربما حدث ذلك دون علمي وهمهمت شفاهي شيئًا لي. رأيتها أمامي، تلك التي لا تغيب عن خيالي. رأيتها تمشي جيئةً وذهابًا في شارع خالٍ أثناء المغيب، منتظرةً أحدًا لم يأتِ بعد. فغمغمت لنفسي: أيتها الأحبَ إليَ، ها هو عشيقك. عليك أن تخوضي الأمر الآن وحدك. في هذه المرحلة لا أحد يستطيع لك عونًا، وحتى لو أمكنني ذلك، فإنني لا أريد. عليك هنا أن تكوني قوية. ثم تابعت الهمهمة: من الجيّد أنك أمسيتي حرَة وتملكين أمرك، ستجتازين محنتك الآن وحدك ودون كبير عائق.

قال ماركل:

- لا يا گلاس، لا نستطيع المضيَ هكذا بكل هذه الكآبة. كم تتخيل أننا سنقضي من الوقت هنا دون قطرة ويسكي؟

قرعت الجرس للنادل وطلبت الويسكي، ودثارين لأن الهواء بدأ يبرد. أمّا ريكّه ورفقته فقد نهضوا عن طاولتهم وعبروا بمحاذاتنا خارجين دون أن يرونا. وبالفعل هو لم يرَ شيئًا على الإطلاق. كان يمشي مشية رجل يرى هدفًا أمامه وعازم على الوصول إليه. كان هناك كرسيّ يعترض طريقه نوعًا ما. ودون أن يلاحظه، اصطدم به فأطاحه أرضًا. أقفر المطعم من حولنا بعد خروجهم، وتنهَدت ريح خريفيّة بين الأغصان. نما

الغسق رماديًا أكثر، ثقيلًا أكثر، فادلهمَ المكان. لبث كلّ منا في دثاره الأحمر المخرّم، ومكثنا لوقت طال، نتجاذب أطراف الحديث عن شتى الأمور المهمَة والسخيفة، وقد جاء ماركل على كثير من الأفكار الخلّابة والآراء الذكيّة التي صَعُب تدوينها على الورق حينها بإشارات واختصارات بُغية ملاحقتها، وقد نسيتها الآن.

* * *

27 أغسطس

انسلخ يومٌ آخر، وها أنا من جديد أجلس في الليل عند النافذة المفتوحة.

وحيدتي، حبيبتي:

هل عرفت كل شيء الآن؟ هل تعانين؟ هل تحملقين بعينين واسعتين في الظلمة؟ هل تتقلّبين قلقةً في فراشك؟

هل تنتحبين؟ أم أنك أتيت على آخر الدمع حتى جفَ؟

ربما سيغافلها حتى النهاية. إنه رجل على قدر من الكياسة. سيضع نصب عينيه أنها ما تزال في حداد على زوجها. وبالتأكيد لن يجعلها تشك في أي شيء. إنها تستغرق إذًا في نومها جاهلة.

غاليتي، تماسكي عندما يصلك الخبر. عليك أن تتغلّبي عليه. ما أكثر ما تخبئه لك الحياة في جعبتها، سترين. تماسكي.

* * *

4 سبتمبر

تدنو الأيام مني ثم تغيب، والواحد منها يشبه الآخر.
والفجور في الناس ما يزال يزدهر.
أذكر هنا، من باب الطرافة والتغيير، أن رجلًا، لا امرأة، مَن جاءني اليوم يطلب مساعدة عشيقته للخروج من ورطة. وراح يتحدث عن ذكريات قديمة مشتركة بيننا، وعن معلّمنا "سنوفي" في لادوغورشاندت.
لكني لم أهتز. وأعدت عليه محاضرتي المعتادة في المواقف المشابهة. وهذا ما خضّه وصدمه، فعرض عليّ مئتي كرونة نقدًا، ومثلها في صكّ نقدي، أحصل عليها مع صداقته الأبديّة مقابل مساعدته. كان الوضع مؤثراً؛ بدا لي شديد اليأس.
طردته.

* * *

7 سبتمبر

من الظّلمة إلى الظّلمة.
أيّتها الحياة، لست أفهمك. بتُّ أختبر مؤخّرًا دوارًا روحيًا، أسمع خلاله أصواتًا هامسة محذّرة، تغمغم بأنّي انحرفت عن الطريق القويمة. هذا ما أنا فيه الآن. أخرجتُ دفتر تحقيقات القضية: يوميّاتي التي، بتدوينها، أمتحن أصواتي الداخليّة المتعارضة: الصوت الذي حثّني، والصوت الذي ثبّطني. قرأتها مرّة تلو الأخرى، ولم أصل إلى نهاية مغايرة، فالصوت الذي أطعته كان ذاك الذي راقتني نغمته، أمّا الصوت الآخر

فمجرّد صدى في العراء. ربما الصوت الأخير هو الأكثر حكمة. لكنني كنت سأخسر آخر ذرّة من احترامي لنفسي لو أطعته.

وبعد، وبعد...

إنني أحلم برجل الدّين. توقّعت ذلك، ولذا لم أجزع؛ لكني، بسبب تنبّؤي المسبق بتلك الأحلام، ظننت أنها لن تأتي.

* * *

إنني أتفهّم بغض الملك هيرودس(65) للأنبياء الذين راحوا يوقظون الموتى من قبورهم، ويعيدون إحياءهم. إنه يقدّرهم في كل المسائل الأخرى، لكن هذا النّوع وأمثاله من بين أنشطتهم العديدة لم يلاقِ منه سوى الجفاء.

* * *

أيّتها الحياة، لست أفهمك. لكنني لا أحمّلك أي جريرة. أحسب أن الذنب ذنبي، ففي الحقيقة: أنا ابنك غير السويّ، ولست أنت أمي المستهترة.

وبعد كل هذا الوقت، راح الاشتباه يتّضح أمامي، ربما ليس مقدّرًا لنا فهم الحياة؟ ربما يكون كل هذا الغضب لتفسيرها واكتناهها، وكل هذه المطاردات الضارية وراء الحقيقة، ليست سوى انعطافة خاطئة، أو اقتراب أكثر من اللازم من مصدر الضوء. فالشّمس رحيمة بنا لأننا نعيش منها على مسافة تبقينا أحياء وأصحّاء. إن بضعة ملايين من الأميال قُربًا منها أو بُعدًا عنها كفيلة بأن

تحرقنا، أو تجمّدنا حتى الموت. ماذا لو كان ما يجري بيننا وبين الشّمس، هو ما يجري بيننا وبين الحقيقة؟

تقول الحكمة الفنلنديّة القديمة: من يرى وجه الله لا بدّ أن يموت.

وأوديب، لقد حلّ أحجية أبي الهول ثم صار أتعس الفانين طرًّا.(66)

لا تخمّن الحلول أمام الأحاجي! لا تسَل! لا تظن! إن التفكير مثل الأسيد، يقتات علينا حتى يفنينا. نتخيّل في البدء أنه سيلتهم وحسب ما هو فاسد وعفن لا بدّ من التخلّص منه. لكن للتفكير فكرة أخرى! إنه أسيدٌ يقتات بعماء. فهو يلتهم أوّل فريسة تلقيها له بوجل، لكن لا تظنّ أنه سيكتفي بها! إنه لا يتوقف حتى ينهش آخر ما تضمّه عزيزًا إليك.

ربما كان عليّ ألّا أمعن التفكير طويلًا. ربما كان عليّ المضيّ في الدراسة وتحصيل الشهادات. "العلوم مفيدة لأنها تمنع البشر عن التفكير"، أحد العلماء قال ذلك. ربما كان عليّ أن أحيا حياتي، كما يقال، أو أن أشربها حتى الثمالة، كما يقال أيضًا. كان يجب عليّ أن أركب ألواح تزلّج، وأسدّد كرات قدم كثيرة، وأن أعيش بصحّة وافرة، مسرورًا بين النساء وأصحابي. كان عليّ أن أتزوّج وأطلق أطفالًا في هذا العالم. كان لزامًا عليّ أن أنجز واجبي. تلك أمورٌ تُثبّت الأقدام في الطريق القويمة، تدعمها وترسّخها. ربما كان عليّ أيضًا، ويا لغبائي، أن أدخل في معمعة السياسة والانتخابات. إن

وطننا الأمّ يفرض واجباته علينا أيضًا. حسنٌ، ربما هناك وقت لتأدية هذا الأخير...

الوصيّة الأولى: لا تفطن لكلّ شيء.

لكن مَن فهم هذه الوصيّة، فإنه فطن فعلًا إلى أكثر ممّا يجب.

إنني أهذي، والأشياء من حولي تدور وتدور.

* * *

9 سبتمبر

لم أرها مطلقًا.

أكثرت من الذهاب إلى جزيرة شيبسهولمان لمجرّد أنني رأيتها هناك آخر مرّة. وعلى رأس التلّة، جوار الكنيسة، وقفت مساء اليوم أتأمّل غروب الشمس. أذهلني جمال ستوكهولم. لم أطل النظر إليها هكذا من قبل. عادةً يقرأ المرء في الصحف عن جمالها، ولهذا لا يحمّل هذه الإشارة أيّ قيمة.

* * *

---

(49) فرانسوا فنلون (1651-1715) أديب ورجل دين فرنسي. عُرف بالاعتدال مبتعدًا عن التفكير العقلاني الصارم المسافة نفسها عن العاطفة الجامحة، وهذا ما يظهر في مراسلاته وغالبية كتبه الخمسة والخمسين. م.

(50) نبرة هي مملكة أوروبية كانت تقع في الأراضي على جانبي جبال البرانس إلى جانب المحيط الأطلسي. م.

(51) أمير القلوب هو إحدى شخصيات رواية آليس في بلاد العجائب، وهو يمثل الطبقة الحاكمة في البلاد، أما الجواريف (السّبيت) فإن تلك البطاقات تمثّل الخدم. م.

(52) سكيلين هي عملة إسكندنافية قديمة تكاد لا تساوي شيئًا. م.

(53) سر التثبيت، في بعض التقاليد المسيحية، هو الطقس الذي به يصير الشاب أو الفتاة عضواً رسمياً في الكنيسة، وبه يعلن قبولًا شخصيًا ناضجًا للإيمان المسيحي. م.

(54) يشوع بن سيراخ هو أحد حكماء اليهود ممّن درسوا التوراة واختبروا الحكمة، فكتب فيها. وقد كان كاتبًا مشهورًا مات أثناء السبي في بابل ودُفِنَ هناك. م.

(55) سفر يشوع ابن سيراخ، الإصحاح الثامن عشر، أي ٢٦. م.

(56) هنريك يوهان إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦) كاتب مسرحي نرويجي كبير، كان من أهم العاملين على ظهور الدراما الواقعية المعاصرة. يعرف بـ "أبو المسرح الحديث". له ٢٦ مسرحية. اعتبر من أهم كاتبي المسرح على مر التاريخ. م.

(57) البرلمان السويدي. م.

(58) أوريليوس أمبروزيوس كان قديسًا في مدينة ميلان في القرن الرابع. عُرف بإسهاماته

الجليلة في الموسيقى الكنسيّة م.

(59) السلم الكروماتيكي هو سلم موسيقي ذو اثنتي عشرة نغمة، بين كل نغمتين متتابعتين منها نصف بُعد. م.

(60) هالة هي أكبر مدن ولاية زاكسن أنهالت الألمانية، وتقع على نهر زاله. م.

(61) جورج فريدريك هائدل (١٦٨٥-١٧٥٩) مؤلف موسيقي كلاسيكي إنكليزي من أصل ألماني، عاش الفترة الباروكية الأخيرة. كانت لغته الموسيقية تمثل خلاصة الأساليب الموسيقية في أوروبا. م.

(62) إقرار أوغسبورغ هو أول عرض رسمي لمبادئ حركة الإصلاح وأهداف المصلحين البروتستانتية، والذي سيطلق عليها لاحقًا اسم اللوثريّة، أصدر في سنة ١٥٣٠. م.

(63) ريشارد فاغنر (١٨١٣-١٨٣٣) كان مؤلفا موسيقيًا وكاتبا مسرحيا ألمانيا. يقال إن النصف الأول من العصر الرومانسي في الموسيقى سيطر عليه بيتهوفن، أما النصف الثاني فامتلكه فاغنر. م.

(64) هربرت سبنسر هو فيلسوف بريطاني (١٨٢٠-١٩٠٣) يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع الحديث. كان سبنسر، وليس داروين، من أوجد مصطلح "البقاء للأصلح " وأسّس مفهوم الداروينيّة الاجتماعيّة. م.

(65) هيرودس (٧٣ ق.م - 4 ق.م) ملك اليهودية.

كان مقره في مدينة القدس (أورشليم) واشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي أقامها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمى هيكل سليمان. م.

(66) أوديب هو ملك طيبة في الميثولوجيا الإغريقية، حقق النبوءة التي قالت انه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه. صاغ سيغموند فرويد بهذه الأسطورة مفهومه النفسي "عقدة أوديب". تقول الميثولوجيا إن أوديب أثناء رحلته إلى مدينة طيبة صادف في طريقه أبي الهول الذي يوقف جميع المسافرين ويطلب منهم حلّ لغز، وإذا فشلوا في حلّه فإنه يأكلهم، أمّا إذا نجحوا فإنه يسمح لهم بالعبور. كان اللغز يقول: "ما الذي يمشي على أربعة أقدام في الصباح، واثنتين بعد الظهر، وثلاثة في الليل؟". أجاب أوديب: "الإنسان؛ وهو رضيع يحبو على أطرافه الأربعة، وإذا بلغ يمشي على قدمين، وفي الشيخوخة يعتمد على عصا للمشي". وكان أوديب هو الأول في حل اللغز. وبذلك صار ملك طيبة، وتزوّج أمه بعد أن كان قد قتل أباه. وعند اكتشافه ذلك، فقأ عينيه بنفسه ندمًا وحسرة. م.

20 سبتمبر

أثناء حفل العشاء الذي دُعيت إليه في منزل السيّدة بي، يتداول الضيوف أمر خطوبة ريكّه علنًا كأمر واقع ومعروف.

تدريجيًا أصبحت رفقتي مستحيلة. أنسى الرد على الناس إذا تحدثوا إليّ، وغالبًا لم أكن أنصت إليهم. وبدأت أقلق، هل راح سمعي يخفّ؟

ويا لتلك الأقنعة! جميعهم يرتدونها. والأدهى أن لبسها هو خصّيصتهم الأسمى. لا أريد رؤيتهم من دونها. لا، ولا أن أظهر دون قناعي! ليس أمامهم!

أمام من إذًا؟

بكّرتُ في الخروج من الحفل قدر ما استطعت. كدت أتجمّد أثناء سيري نحو المنزل: باتت الليالي شديدة البرودة على حين غرّة. أعتقد أن شتاءً قارسًا يزحف نحونا.

تابعت السّير مفكّرًا فيها. أستدعي زيارتها الأولى لي عندما سألتني مساعدتها: كيف تشجّعَت، وحملت نفسها على البوح بسرّها، دون حاجة؟ كيف احتقنت وجنتاها بحُمرة دافئة وقتها! أذكر أنني قلت لها: أمورٌ كهذه لا بدّ من بقائها طيّ الكتمان. فقالت لي: لقد أردت أن أخبرك أنت! أردتك أن تعرف من أنا! على افتراض أنني أقصدها الآن في حاجة، كما جاءت إليّ، أذهب إليها وأقول: لا أستطيع الاحتمال أكثر، وحدي أعرف من أنا، أرتدي قناعًا طوال الوقت، أمام الجميع! لا بدّ أن أعرّي

وجهي لشخص واحد غيري؛ واحد غيري يعرف من أنا..
أوه، علينا الهرب من أفكارنا، علينا هجران رؤوسنا...
أخذت طرقًا عشوائيّة، ودون قصدٍ منّي، انتهيت إلى منزلها. هناك ضوءٌ يسطع من إحدى نوافذه. وما من ستارة تحجب شيئًا؛ إنها لا تحتاج إلى ستر أيّ شيء، فليس في الجهة المقابلة لمنزلها سوى مساحات غير مبنيّة، وأراض لتخزين العوارض الخشبيّة، فلا أحد يستطيع أن يطلّ عليها. أمّا أنا فلم يقع نظري على شيء؛ لا هيئة ظِلّيّة لإنسان، ولا خيال ذراع أو كفّ تتحرّك، مجرّد صُفرة المصباح الناصعة المنعكسة على شيفون الستائر المفتوحة. رحت أفكّر: ما هي فاعلةٌ الآن، ما الذي يشغلها؟ هل تقرأ كتابًا؟ أم أنها تُسند رأسها بيديها وتفكّر؟ أم أنها تسرّح شعرها للّيل...آه لو أنني هناك، لو أنني قربها: أستلقي متأملًا إياها، وأنتظرها ريثما تنتهي من تسريح شعرها أمام المرآة، لتحلّ ببطء ثياب نومها لي. لكن لا يحدث ذلك وكأننا نعيشه لأوّل مرّة، بل يحدث وكأننا معتادون عليه، فعلناها سابقًا وسنُكثر منها لاحقًا، مرّة نُطيلها ونطيل متعتها، ومرّة نخطفها خطفًا. إن كل ما يبدأ لا بدّ وأن ينتهي، ولا أريد لهذه المرّة أن تكون بدايةً كي لا تكون لها أيّ نهاية...
لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا واقف أمام منزلها دون حراك مثل تمثال. السّماء عالية، مثقلة بالغيوم ومنتفخة، ألوانها قزحيّة شاحبة في ضوء القمر، تتحرّك ببطء فوق رأسي مثل مشهد طبيعيّ بعيد. كنت أشعر

بالبرد. والطرقات تصفر فيها الريح. وفجأة رأيت عاهرة رصيف تبزغ من الظلمة، مقتربةً نحوي. لم أعرها اهتمامًا. اجتازتني. لكنها في منتصف طريقها توقفت، التفتت ونظرت إليّ بعينين نهمتين. هززت رأسي رافضًا. فذابت مبتعدةً في الظُّلمة.

ومن حيث لا أشعر، تناهى إلى سمعي صوت مفتاحٍ يُدار في قفل باب منزلها. انفتح الباب. انزلقت منه هيئةٌ مبهمة نحو الخارج. أتكون هي؟ لماذا تخرج في منتصف الليل، ودون أن تطفئ مصباح غرفتها؟ ما الذي يجري؟ انقبض قلبي. أردت معرفة ما وراءها، فتبعتها بحذر.

ذهبَت إلى صندوق البريد، عند الناصية، ورمت برسالة في جوفه، ثم هرعت عائدة. رأيت وجهها بينما تعبر مسرعة تحت مصباح الشارع: كان شاحبًا شحوب الشّمع.

ولا أعرف هل رأتني أم لا.

***

لن تكون لي أبدًا. لم أضرّج وجنتيها بأيّة حُمرة كانت، ولست أنا الذي كساهما ببياض الطباشير. لن تنسلّ في شارع الليل بقلبٍ يحمل قلقًا عليّ ورسالةً لي.

عبرت الحياة إلى جانبي، ولم ترني.

***

7 أكتوبر

الخريف ينهب أشجاري. تقف شجرة الكستناء خارج نافذتي عاريةً مسودة. تتدافع الغيوم في قطعان

متراكمة على السطوح، ولم أعد أرى الشمس.

جلبت ستائر جديدة لنوافذ مكتبي، بيضاء ناصعة حتى أنني عندما استيقظت صباحًا ظننت للوهلة الأولى أن الثلج راح ينهمر في الخارج؛ فالضوء في غرفتي هو تمامًا ذلك الضوء الذي يعقب أوّل هطول له؛ خُيّل لي أنني شممتُ شذاه يزورنا للتوّ. لكنه سيصل قريبًا، إني أشعر به في الهواء.

سأرحّب به. فليأتِ إليّ... فلينهمر.

نبذة عن المؤلف

يلمار سودربيري (1869-1941) أحد أشهر الروائيين الاسكندنافيين. وُلد وترعرع في ستوكهولم، وقضى شطرًا طويلًا من حياته في كوبنهاغن. كان موظفًا حكوميًا قبل أن يمتهن الصحافة. لكنه أقلع عنها تدريجيًا وتفرّغ للكتابة الأدبية. إضافة إلى الروايات، فقد ألّف قصصًا قصيرة ومسرحيات، وكتب مقالات نقديّة في الأدب، وفلسفية حول الدين. لطالما احتفى الوسط الأدبي بمشاهده القصيرة الخلابة عن الحياة في ستوكهولم، واعتبره من السّابقين إلى مدرسة التحليل النفسي. من بين أعماله «اعترافات» و«مارتن بريك وفترة صِباه» و«اللعبة الصّارمة.»

أحمد العلي

كاتب من السعودية، يعمل في الترجمة وتحرير الكتب. وُلد في مدينة الظهران عام 1986. تخرّج مهندسًا من جامعة البترول في السعودية، ثم أنهى دراساته العليا في علوم نشر الكتب والمجلات وتحريرها في مدينة نيويورك، وأخذ تدريبه عام 2014-2015 في دار نشر «كنابف» التابعة لدار «بينغوين راندوم هاوس» أكبر دور النشر في العالم.

صدرَ له في الشّعر: «لافندر، أوتيل كاليفورنيا» / «كما يُغنّي بوب مارلي: دليلُ التائهين إلى نيويورك» / «يجلسُ عاريًا أمام سكايب» / «نهّام الخليج الأخضر.»

صدرَ له في الترجمة: «دكتور كلاس، رواية يلمار سودربيري» / «حليب أسود: مذكرات الروائية التركية أليف شافاق» / «اختراع العزلة: مذكرات الروائي الأمريكي بول أوستر» / «صندوق الموسيقى: مختارات شاملة من أعمال نعومي شهاب ناي الشعريّة» / «أصوات الطبول البعيدة: مختارات من الأدب الصوفي العالمي.»

جمعَ وحرّر أعمال الأستاذ محمد العلي الأدبيّة: «لا أحد في البيت: مختارات شعريّة» / «نمو المفاهيم: تساؤلات وآراء في الوجود والقيم» / «البئر المستحيلة: محاولات لتجاوز السائد في الثقافة والمجتمع» / «حلقات أولمبيّة» / «هموم الضوء» / «درس البحر»

مُدوّنة نهر الإسبرسّو

https://alaliahmed.wordpress.com

إنستقرام

@al_ali_ahmed